جاك كاليبو
نيكول كاليبو



مذاهب وملل وأساطير
في الشرقين الأدنى والأوسط





الفارابي

55 ص5

مذاهب وملل وأساطير

في الشرقين الأدنى والأوسط



جاك كاليبو
نيكول كاليبو

مذاهب وملل وأساطير
في الشرقين الأدنى والأوسط

تعريب: فارس غصوب

الفارابي

الكتاب: مذاهب وملل وأساطير
المؤلف: جاك كاليبو ونيكول كاليبو
التعريب: فارس غصوب
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
e-mail: farabi@inco.com.lb
www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 1997

الطبعة الثانية 2007

ISBN: 978-9953-71-233-6

© جميع الحقوق محفوظة

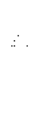
تباع النسخة الكترونياً على موقع:
www.arabicebook.com

«شعرت بنفسي وثنياً في اليونان، ومسلماً في مصر، وموحّداً بين الدروز، ومتديِّناً في البحار في الكواكب الإلّهية لبلاد الكلدان».

جيرار دي نيرفال

إننا على قمة الشجرة، وقد نقع على الأرض ونتحطم، فقد أصبح ملحّاً أن نستعيد عصا الحج، ونلمّ بالمسيرة الطويلة عبر أقدم المعتقدات وأكثرها بعداً في الإنسانية، ليس من أجل الاندماج فيها كما هي، بل لاكتشاف تلك الحيوية التي فقدتها ذهنيَّاتنا الجافة في الكثير من أوجهها.

إلى صديقنا كمال جنبلاط الذي اغتيل في جبل لبنان بسبب مثله من أجل الحرية والعدالة.



مقدمة

عندما انطلق منذ أكثر من أربعة آلاف سنة، زعيم قبيلة سامية يُسمَّى إبراهيم، مستجيباً لدافع لا يقاوم أسماه يهوه، في رحلة استثنائية عبر الشرق الأوسط، كان بوسعه أن يتصوَّر أنه من خلال ذرِّية وعد بها «بعدد نجوم السماء» سيُعترف به يوماً ما كمكتشف للإلّه الواحد وكأب روحي لثلاث ديانات كبيرة هي: اليهودية والمسيحية والإسلام.

إن أحداث مغامرته ـ أول ما سجلت في كتاب سفر التكوين ـ ما إن خرجت من دائرة القصة حتى أخذت بُعداً تاريخياً لم نتمكن من مقاومة سحره. منذ عشر سنوات ونحن نحلم بالعثور على آثار البطريرك، وإعادة قراءة المشاهد والأمكنة التي وجَّهت مسيرته، وإعادة الصلة بالتقليد التوراتي. لكن هذا الحج لا يمكن أن يتحوَّل إلى جردة أثرية وإلى مجرد «عودة إلى الجذور»، فملاءمة مثل هذه المسيرة هي خاضعة للنقاش.

أكثر من ذلك، فالانتقال من «أور» إلى أورشليم يتيح باكتشاف أصول الحقيقة، وكل حيوية إرث إبراهيم: ازدهار لا يصدَّق لحركات روحية منقرضة مفتَّتة متغيّرة بألوف النزاعات الدينية المفككة من الاضطهادات، والممزقة بالانقسامات والباقية لصدفة جغرافية. حركات تنادي بأصلٍ مشترك، وتبقى في الوقت نفسه متعلقة بخصوصيتها الأساسية.

تراث روحي هائل، إذاً، يمكن أن تحصيه مثل هذه الرحلة فقط التي تتم في ظل إبراهيم، وفي مثل هذه الاستعدادات الروحية. عندئذ يأتي اللقاء السحري غالباً بين شيع منطوية على ذاتها وعوالم مغلقة تحتفظ غيرة بكنوزها وأسرارها وتشكل شواهد حية على إنسانية في طريق الزوال! وهي فوق ذلك تفترض قراءة جديدة غالباً مأساوية للأحداث التي تمزق اليوم هذه المنطقة وتسمح بفهم أن الحل السلمي الذي افترضنا وجوده، لا يمكن أن يخرج إلا من هذه الأبعاد المعاصرة لمبادرة إبراهيم.

بروكسيل، تشرين الثاني/ نوفمبر عام 1979

الفصل الأول

من بيروت إلى بغداد

نيكول

للهواء روائح الطحالب والملح

في هذه الصبيحة البيضاء المتأرجحة في سكينة الليل بدا بعض المسافرين المنهكين على متن السفينة يحاولون رؤية الثلج الذي يشير إلى البحّارة من البعيد، من فوق خط الأفق، بالوصول إلى لبنان.

وفيما تتَّسع البقعة شيئاً فشيئاً لتلفّ جبل صنين المغشَّى بالظلال، أفاجأ بأني أتصوَّر فينيقيا تلك التي سنجدها أرض الملاذ، وذلك المركز الجغرافي بين الشرق والغرب الذي استقبل على مدى الأزمان اللاجئين من كل الحروب المتوسطية بين الفراعنة والآشوريين وبين اليونان والفرس وبين المسلمين والمسيحيين.

لا أذكر من قال: «التاريخ يعيد نفسه لأن الجغرافيا لا تتغيَّر»، لكن هذه العبارة هي صحيحة أكثر من أي وقت مضى بالنسبة للبحارة الفينيقيين وللبنانيّي اليوم الذين لا يريدون أن يعرفوا، ولا يستطيعون أن يحبّوا سوى هواء الحرية اللاذع.

كان الوقت يقارب الظهر، عندما، تحت شمس ربيع بيروت المشعة، أمسكت رافعة ضخمة في المرفأ سيارتنا الصغيرة ورفعتها من قلب المركب أمام أعين أصحابها القلقة ووضعتها دون عناء على الرصيف. اختفت العجلات التي بدت في الهواء وكأنها تخرج من الإطار تحت جوف السيارة الذي بدا ينازع. راح صاحبها يتنصت إليها بقلق: سيارة قديمة للشرطة البلجيكية، أعاد تصليحها كلياً، وجهَّزها للتصدير. لم يهمل شيئاً: أسرَّة نقَّالة، وطاولات، ومرايا، وزجاج عازل خاص، وبطاريات إضافية مع جهاز تعبئة للكاميرا، وصناديق عازلة للاحتفاظ بالأفلام. بالإضافة إلى صندوقها المليء بغالونات الزيت الخاص بالسيارة. لأننا اكتشفنا بسرعة بأن هذه السيارة المستعملة العجيبة كانت مدمنة حقيقية ويلزمها بين الليترين والثلاثة من الزيت يومياً. . .

استسلم محرّكنا على الهضبات الأولى من جبل لبنان. عودة إلى بيروت لراحة إلزامية لدى أصدقاء لبنانيين، لنستفيد منها ونرجع قليلاً في الزمن إلى الوراء. .

ثلاثة إجراءات دون فائدة. . .

إذا كان هدف مسعانا هو قبل كل شيء استخراج تاريخ أول بطاركة التوراة من التخيّل الأدبي، فيجب ألَّا ننسى أن مكان انطلاق الرحلة، بلاد «أور» في المنطقة الكلدانية، هي اليوم في جنوب العراق. وافقت وزارة الإعلام في بغداد على خلاصة سيناريو الفيلم الذي سلَّمناه في بروكسل لسفير العراق. سمحوا لنا بتصوير فيلم بإشراف المكتب العراقي للإعلام والتلفزة وبالاتفاق معه. لم نلبث أن لاحظنا بسرعة أن الازعاجات الإدارية في البلدان الإشتراكية هي واقع يجب ألَّا نقلّل من أهميّته أبداً!

إلّا أننا لم نصل بعد إلى هذا المستوى. فقبل أن نبدأ بالعمل، كان علينا أن نتجاوز عدداً من الصعوبات، بعضها متوقع، يشكل القسم الأكبر منها الاحتمالات المادّية والصعوبات الإدارية، والبعض الآخر غير متوقع: حرب تشرين الأول/أوكتوبر عام 1973، والثورة الكردية عام 1974، اللتان أثَّرتا على بداية العمل، والحرب الأهلية اللبنانية التي أخَّرتنا كثيراً.

كان علينا بالإضافة إلى التحضير الدقيق للبرنامج ـ يقترح سفر التكوين المراحل، لكنه يحتقر حدود القرن العشرين ـ أن نأخذ بعين الاعتبار روزنامة الأعياد الدينية ومواسم الحج،

ونحصي الطوائف الرئيسية ونستعلم عن تاريخها، وعاداتها، ونحتك بالناس، ونعدّد المساعي ونتعلّم، بهذا المستوى أو ذاك، العبرية والعربية. باختصار، مضت شهور وسنوات، قبل البداية الحقيقية، وقبل أن نتمكن من إقامة العلاقات الإنسانية التي طالما رغبنا فيها مع الشرق الأوسط. بالفعل، تمكنّا خلال بضعة أيام قضيناها في لبنان من استكمال معارفنا، على يد أساتذة جامعيين، وعلماء آثار مستشرقين وقادة سياسيين أغدقوا علينا جميعاً النصائح والتشجيع. أوَليست بيروت هي بوتقة الانصهار الطائفي في الشرق الأوسط؟ لا نجد أقل من 18 طائفة دينية رسمية. سبق وكتب بلين لوجون (Pline Le Jeune)، منذ القدم، إلى أحد أصدقائه: «إذا ذهبت إلى لبنان، فاحترم الآلهة»!.

هناك على كل حال، سعدنا بلقاء رجل استثنائي غاب بشكل مأساوي منذ ذلك التاريخ: كمال جنبلاط. لعب هذا القائد الإقطاعي ذو الأصل الدرزي، مؤسس الحزب التقدمي الإشتراكي، الحزب العقائدي في لبنان، دوراً من الدرجة الأولى في السياسة اللبنانية أكسبه شهرة عالمية حتى اغتياله عام 1977، كضحية جديدة للتعصب الطائفي. إنه الشخص الذي قدّم لنا مساعدته دون تحفظ، لكي نتمكن من التصرّف في متاهة هذه الآلهة وهذه المعتقدات والطوائف: معرفته للشرق الأدنى كاملة، وتبحّره الديني مذهل، وكياسته بدون

حدود. أدركنا اليوم أنه لولا تعاونه، ولولا مساعدته وصداقته، ـ والبراهين الملموسة التي أعطاها على ذلك ـ لما تمكنّا من إنجاز لا الفيلم ولا الكتاب. وعندما سافرنا إلى العراق، أعطانا رسالة: «إذا طرأت صعوبة ما سلّموا هذه الرسالة إلى شبلي العيسمي الأمين العام لحزب البعث. إنه صديق وسوف يساعدكم».

... وأخيراً، الانطلاق

تستغرق الرحلة الممتعة بين بيروت ودمشق ساعة من الزمن. وتنخرط الطريق بسرعة في الجبل الذي تستلقي عليه العاصمة اللبنانية الواسعة. فالمشهد الذي نكتشفه مع كل منعطف، يقطع من بين أشجار الصنوبر المنتصبة كالمظلات أمام ميناء البحر الزرقاء التي تتوزع حولها ناطحات السحاب البيروتية. كيف يوصف انبلاج الفجر في الجبل اللبناني؟ إنه عيد الحواس: انتشار رائحة زهر الليمون أو رائحة الصمغيات الأكثر مرارة. إنه عيد الألوان أيضاً: الرمادي ـ الأخضر والبرونزي والظلال الصينية للصنوبر الشاهق ثم سماء ذات لون أزرق خفيف ناعم شفاف.

اجتزنا بحمدون وعاليه وهما لا تزالان راقدتين؛ هناك يأتي ـ كلَّ صيف ـ حوالى 60 ألف عربي من الخليج وقطر والعربية السعودية والكويت سعياً وراء بعض الهواء العليل في

شهري تموز/ يوليو وآب/أغسطس. كل مرة أجتاز فيها هاتين المدينتين تتألم أنوثتي أمام كمامات الجلد التي تضعها نساء تلك المناطق والألبسة الثقيلة السوداء التي تلتف بها والتي تتراكم تحتها كيلوات من الحرارة. كم هم الرجال قساة وحمقى لكي يفرضوا مثل هذه الإيلامات، ومثل هذه الإرغامات على رفيقاتهم! وهذا ليس المثل الوحيد على كيفية اقتصاص الرجال بهدف ديني من زوجاتهم بشكل يجعلهن غير مرغوبات! ألا يجبر الهاسيديم زوجاتهم على حلاقة شعر رأسهن لكي يصبحن أقل إغراء؟ وماذا تعني العمليات الجراحية الجنسية ـ استئصال وتطهير ـ التي تخضع لها فتيات صغيرات في شروط تغيب عنها كل الاحتياطات الطبية؟ وكل ذلك باسم الله والدين والثقافة! آه، إن هذا ليغضب القلب. لا تزال أمام النساء نهاية طريق قصير تجتزنه قبل أن تحصل جميعهن على حدٍّ أدنى من الحرية والكرامة الشخصية.

لكنني سأوقف هذا الاستطراد، لأننا ننحدر الآن إلى البقاع، ذلك الوادي الفسيح والطويل بشكل خاص الذي يفصل، على ارتفاع ألف متر عن سطح البحر، بين لبنان (الجبل) والسلسلة الشرقية منه. وإلى جانب البساتين المحاطة بسياج متين من شجر السرو، ترى بساتين الخضار؛ وعلى طول الطريق، ترى الأولاد قرب أهرام من البطيخ، يدعونك بحركات حيَّة وعفوية لشراء كنوزهم. ونحن لم نقاوم على كل

حال، فالطريق طويلة إلى بغداد، والصحراء السورية لا تقدِّم الكثير من الموارد الشهيَّة.

تبقى دمشق في ذاكرتي مرادفاً للغبار: في كل مرة نمرّ بها تبدو لي هذه المدينة كورشة كبيرة ولا يبدو أنها تغيَّرت كثيراً. ومع ذلك، فاسمها مثير للذكريات: دمشق! نفكّر بالقديس بولس، وبالخلفاء الأمويين الذين دمج مهندسوهم بدقة الفن البيزنطي بفن الإسلام الصاعد. فهم الوحيدون الذين تجرأوا على تزيين القناطر الخفيفة في قصورهم، وحتى في جوامعهم، بالجدرانيات ونقوش عناصر نباتية وحيوانية. أتذكَّر خاصة تلك الفسيفساء الجذابة التي طلبها الخليفة الوليد من بعض الفنانين البيزنطيين، والتي تزيِّن الآن الجامع الكبير.

أسواق دمشق هي أجمل وأوسع الأسواق في الشرق الأدنى؛ لا يمكن مقاومة جاذبيتها، وخاصة مقاومة جمال الأشياء المعروضة: أثاث، وتحف من الأبنوس المرصَّع باللؤلؤ وشراشف المائدة الدمشقية، وفساتين أنيقة قديمة مطرزة باليد ومصاغات من الذهب والفضة وحلى قديمة مرصعة بأحجار نصف كريمة، والعقود الثقيلة من الفضَّة للنساء البدويات. هذا عدا الأشياء القديمة التي لا تحصى: برونزيات، وزجاجيات ملونة، وعملات بيزنطية ورومانية، وأواني فخارية، هي حسب تعبير ذوي الألسنة المسيئة، من

صنع دمشق: ما همَّ!!، إنها أشياء جذابة جميلة وزهيدة الثمن. سنتمكن من حمل بعض الهدايا لأصدقائنا، بين الكيلومترات، من الأفلام والمواد المصفوفة في السيارة.

إلا أنه يتوجب علينا معالجة نقطة هامة: يلزمنا إذن تصوير الأماكن التي تواجد فيها إبراهيم في شمال سوريا. ولم نحصل على التطمين بأننا سنبدأ بالتصوير لدى عودتنا، بعد عدة أشهر، إلا بانتظار طويل ولبضعة مرات في الوزارات المختصة. وها نحن نعود إلى العراق مزوَّدين بهذه الموافقة.

لا يمكن تصوّر الحزن الذي يميز هذا القسم من الرحلة: مسافة رتيبة مسطحة وباهتة بحيث لا يسترعي الانتباه إلا بعض الحجارة السوداء الكبيرة، وبعض الصخور الناتئة؛ كل ذلك تحت سماء رصاصية ثقيلة تفجّر إسفلت طريق قديم مليء بالحفر. وأسوأ من ذلك؛ ما إن نجتاز الحدود السورية، حتى ندخل منطقة مقفرة من مئات الكيلومترات قبل أن نصل إلى الأرض العراقية. والطريق التي لم يعتن بها أحد على ما يبدو منذ مغادرة الجيوش الفرنسية ـ والإنجليزية، تجعل من الأفضل السير على أطرافها، حيث يرسم مرور سيارتنا غيوماً من الغبار على امتداد بضعة كيلومترات.

تتوقف الصحراء فجأة أمام النهر على أبواب بغداد. نهر رائع عريض غزير يحتضن مياهاً غرينية تندفع بسرعة: الفرات! إسم خرج من كتاب الجغرافيا بخط مستقيم، إسم يدفع إلى

الحلم. شريط عريض من الأخضر القاتم يتعرج إلى جانب مجرى المياه: جنّة التوراة على الأرض.

المعنى واللامعنى في الإدارة

بدت لنا بغداد بعد غبار دمشق ـ نظيفة ومنشرحة جداً، فالشوارع واسعة، والجنائن المحيطة بالمنازل خضراء، وتشُّم فيها رائحة إنجلترا، غير أنَّ الشوارع لا تحمل أية أسماء. تعلَّمنا شيئاً فشيئاً التجول مستندين إلى بعضِ النقاط الثابتة كما يفعل السكان: الجامع الفلاني، والبرج الفلاني، وحيّ السفارات وحيّ البريد، وحيّ النهر، ونبع الـ 40 حرامياً. . .

العراقيون مضيافون كالسوريين لا بل أكثر، استُقبلنا فوراً في دائرة مغلقة: عند فنانين وصحافيين ورجال أعمال. الكل يشعر باعتزاز لكونه ينتمي إلى أرض حملت الحضارات الأولى وشهدت ولادة ابراهيم. فكانت صداقتهم وتشجيعهم ثمينين جداً في علاقاتنا الصعبة والمتوترة أحياناً، مع الهيئات الرسمية.

لأننا اكتشفنا بسرعة أنَّ السيناريو لا يثير حماساً كبيراً. طلبوا منا بلطف أولاً أن نقدمه باللغة العربية، ثم لفتوا نظرنا ـ بودٍّ أيضاً ـ إلى أنَّ بعض المقاطع لا تتطابق ووجهات النظر الرسمية في هذا المجال، وأنه يجب بالتالي وضع سيناريو جديد. لكن جميعهم رفض أن يعيّن لنا المقاطع

موضع النقاش. وهكذا بقينا أسبوعاً كاملاً بين بيلاطس بنطس، بين أخذ ورد لا جدوى منه، ويقترحون علينا ببساطة، أحد الأفلام الناجحة من مكتب السياحة! نعلن بتهذيب، أنه عندنا وجهة نظر مختلفة حول الموضوع، وقد يكون من المفيد أن نشرحها.

الى أن فتحت أخيراً الرسالة التي سلَّمنا إياها كمال جنبلاط للأمين العام لحزب البعث شبلي العيسمي، باب هذا الأخير، فجرى استقبالنا بكل احترام في قصر من الرخام وسط أجمل الحدائق، وبين أشجار النخيل على ضفاف دجلة. إنه قصر يتمتع بحراسة فائقة: من مراقبة إلى أخرى، وعبر مجموعة من الممرات والغرف الواسعة، وأدراج الرخام، لندخل أخيراً إلى غرفة مهيبة. شبلي العيسمي رجل جميل جداً، ذو أناقة نادرة وتهذيب عربي، له عينان مخمليتان، ونظرة عقاب. إنّه في الخمسين من العمر، وهو درزيّ مثل كمال جنبلاط. استقبلنا هذا الرجل ـ الذي يلعب دوراً من الدرجة الأولى في الحياة السياسية لبلده ـ بكل لياقة العربي ذي المكانة المرموقة، المدرك لمقدرته وواجباته تجاه الصداقة. بمَ أستطيع أن أخدمكم؟» سألنا بإنجليزية متقنة، وأضاف: «سأقدِّم لكم ما تتمنون»، هذا هو التضامن الدرزي، فالدرزي حيث ما كان يقدِّم دائماً الخدمة لعضو من طائفته.

مع الأسف، لم تبدُ طريقتنا واضحة في استخدام لغة شكسبير، وعندما فسَّرنا له بأننا سينمائيون، فهم منّا بأننا صهيونيون. يا له من سوء تفاهم رهيب! إذ أن العقاب على هذه الجريمة هو السجن في تلك البلاد. إلا أننا ـ لحسن الحظ ـ تفاهمنا أخيراً، وعاد كل شيء إلى مجراه. وفي اليوم التالي، أصبحنا ضيوف وزارة الإعلام، تلك الوزارة التي جرجرت بنا في السابق. بالطبع، إن شبلي العيسمي هذا كان رجلاً قوياً. ولولا حمايته، أعتقد أن موعدنا مع إبراهيم ما حصل أبداً. والآن، أخذنا التلفزيون العراقي على عاتقه. وها هي الصحافة تتحدث عن «فيلمنا الكبير»، وتعلن انطلاق رحلتنا الأكيد إلى الأماكن الأثرية «أور» و«سومر» في جنوب البلاد.

اندفعنا أخيراً، بعد أن زالت مخاوفنا، في التحضيرات الأخيرة التي تخلَّلها بعض الانخراط في مناخ ألف ليلة وليلة التي لا زالت توفره بغداد. ورغم الحماية القوية التي نتمتع بها، ارتأوا مرافقتنا من قبل مرشد مهمته السهر على أمننا أثناء الرحلة. رغم عدم تحمّسنا لأن نكون دائماً مُرافقين. لم نلبث أن اكتشفنا أن مرافقنا رجل جذاب وكفؤ يعرف مهنته جيداً... ومهنتنا...

ها نحن أخيراً أمام النبي إبراهيم.

الفصل الثاني

بلاد الرافدين، موطن إبراهيم

جاك

من سماء بلاد الرافدين الحارة، والمليئة بالغبار وذات الاصفرار القاتم، اكتشفت في البدء البُعد الأول: بُعد التاريخ. وفي ذلك اليوم، راقبت من على قمة برج «أور»، اللحظة التي سيختفي فيها قرص الشمس في الصحراء اللامتناهية دون ضجة. وكان الليل قد بدأ يظهر في تجاعيد المشهد، يغطي الأقنية الجافة ويتسلل بين المقابر الملكية.

خط قاتم في الشرق كأنه مقطوع بسكين، وشريط من الخصوبة طويل يشق الطريق في السهل الغرينيّ، تنبعث منه وشوشة، تحملها الرياح الساخنة، إنها صوت ألوف النواعير التي تمتص باستمرار مياه الفرات.

خطوة واحدة وتبدأ الصحراء، وخطوة أخرى وتبدأ الأرض المرويّة، أرض غنية عضوية أموميَّة: عالمان يتجاوران ولا يتداخلان أبداً، وألوهيتان أيضاً: «شمش» إلّه الشمس

و«إشتارت» إلَهة الخصب والنمو والحب، التي كان السومريون يعبدونها من أعالي برجهم، حيث أقف أنا الآن بالتحديد. في الظلمة القادمة يطل «نانارسن»، الإلَه القمر، من جهة الشرق.

عندئذ أدركت أنني أسير بعكس الطريق: لكي نعرف بلاد الرافدين وندرك بُعدها التوراتي، كان علينا أن ننطلق من هنا، حيث تنتقل التوراة من الأسطورة إلى التاريخ.

الحضارة الأولى وحقيقة التوراة

كانت حضارة الفرات ـ المسماة جمدة ـ نصّر ـ مزدهرة قبل انبثاق الأهرام الأولى من رمال مصر بزمن طويل؛ كانت يومها تستثمر صناعياً الموارد الكبيرة للمادة الأولية التي هي في أساس مجتمعاتنا اليوم: وهي النفط.

مدينة «هيت» على الفرات و كركوك على دجلة، هما منذ أكثر من عشرة آلاف سنة، الموردان الرئيسيان للقار في الشرق الأدنى. ويتصاعد الغاز دائماً بشكل طبيعي من الأرض ويشتعل لدى احتكاكه بالهواء. ربما هذا هو الأتون الشهير الذي وقع فيه رفاق النبي «دانييل».

منذ عدة عقود، كان السائل لا يزال يخرج طبيعياً من الأرض، ويتجمد على شكل شريط طويل من الإسفلت. كان العمال يكسّرون هذه المادة ويذوّبون قطعها على النار، ونتاج

هذا التذويب يوضع على سلال كبيرة تسمَّى القفّة، كانت تستخدم لنقل الرجال وحتى الحيوانات من ضفة إلى أخرى على الفرات ويبدو أن نوح استخدم نفس التقنيَّة عندما أمره الله:

«إصنع تابوتاً من خشب قطراني، واجعله مسكناً! واطله بالقار، من خارج ومن داخل». (سفر التكوين ١٤: 6).

كانت تستخدم أيضاً كملياط للتلييس. قال «هيرودس» الذي زار «هيت»: «إن القار الذي وجد هناك استخدم لبناء جدران بابل، ويبدو أنه بنفس فعالية الإسمنت طالما أنه قد تبيَّن لعلماء الآثار أن مدن الرافدين بقيت فيها قناطر وأروقة غير مهدمة مبنية من القرميد الملحَّم بالقار».

«وكان أنهم لما رحلوا في الشرق وجدوا بقعة في أرض «شبينعار»، فأقاموا هناك. وقال بعضهم لبعض تعالوا نصنع لِبْنا وننضجه طبخاً فكان لهم اللِّبْنُ بدل الحجارة والحُمرّ بدل الطين». (سفر التكوين).

واليوم لم يتغير شيء تحت سماء العراق، فالمداخن العالية ترتفع في الأفق على مدى النظر شبيهة بالسيجار المغروس عامودياً، تقذف موجات طويلة من السُّخا والقار. إنها مداخن مصانع القرميد المزروعة على امتداد السهل. أهرام من القرميد تحترق تحت قوة النار حيث يستهلك مزيج من القش والقار. ورجال تُدخل المزيج في فتحات في قمة الأهرام

فيتصاعد اللهب دخاناً أسود، يلف الرجال الذين يتراجعون وهم يسعلون.

هكذا كان حال بناة بابل الذين أذهلت جنائنهم المعلقة ـ إحدى عجائب الدنيا السبع ـ العصور القديمة. ماذا يبقى منها اليوم؟ جدران متداخلة تتفتت سنة بعد سنة، مهجورة في وسط بستان من النخيل. تحولت بابل إلى غبار، فقد بنيت من الفخار الجاف بدون نار. ولم تصمد إلا بعض الجدران المبنية بالقرميد المشوي في بعض القصور.

بهذا أسر نبوخذ نصّر الإسرائيليين، وأمام عظمة هذه الجدران وهذه الأصنام، تنبأ إرميا:

«ولا تُسْكَنُ من بعدُ إلى الأبد ولا تُعمَّرُ إلى جيل فجيل ومن يمر بالقرب من بابل سيصاب بالدهشة». (إرميا 50: 39).

ربما هنا ولدت أيضاً أسطورة برج بابل. بالفعل. بنى السومريون كثباناً ضخمة من التراب، مغطاة بالقرميد، وهي الأبراج التي يمكن الوصول إلى قمتها عن طريق سلسلة من الأدراج. فهي سلسلة من المصاطب مرصوفة الواحدة فوق الأخرى ومغروسة بالأشجار. وكانت المصطبة العليا تستخدم ـ ربما ـ لمراقبة الكواكب، لكنها كانت قبل كل شيء، قاعة مقدسة، تسمح للآلهة بالنزول من السماء والتجول في المعبد الصغير الموجود على رأس القمة.

في ظل واحد منها في «أور»، حيث الدرج الفخم الهائل الذي رمَّمه علماء الآثار، والذي يصعد نحو الفراغ، يرتاح البدو الرحّل اليوم قبل أن يقودوا قطعانهم ليشربوا من الفرات. في أيام «سومر»، كانت مياه النهر تصب على جدار البرج عبر نظام متقن من الأقنية. جفَّت الأقنية الآن بعد أن هُجرت واستعادت الصحراء قسوتها. نستطيع أن نشاهد من أعلى قمة، عند غروب الشمس، آثار الأقنية القديمة كخطوط من الظل مرسومة على السهل.

وفي أسفل البرج توجد مقبرة مؤلفة من ستة عشر قبراً ملكياً، ومن حوالى ألف قبر عادي تعود إلى فترة الأهرام المصرية الأولى. فقد حصلت ـ قبل المسيح بثلاثة آلاف سنة ـ مأساة في هذا المكان، مؤثرة وقاسية، شهدنا مثالاً حديثاً عنها في «جونستاون» في «غويانا». إذ اكتشف عالم الآثار «وولي» في إحدى هذه المقابر سرداباً مليئاً بالجثث المصفوفة بعناية: ستة رجال و68 إمرأة بلباس البلاط الملكي، معاطف حمراء ذات أكمام مرصّعة باللؤلؤ، والأحزمة المزينة بالأصداف، يلبسن تيجاناً من الذهب والفضة وأقراطاً على شكل هلال وعقوداً عديدة زرقاء وذهباً. إحدى هذه النساء لم تضع شريطها الفضي على شعرها فقد طوته في جيبها كما لو أنها تأخرت عن مأتمهن، فلم يكن لديها الوقت لربطه. وأربعة من الموسيقيين يمسكون بقيثاراتهم، وبالقرب منهم،

وفي مساحة فارغة، توجد آلة موسيقية من النحاس. من الصعب عدم إقامة الصلة بين هذا الشيء وبين الأقداح الصغيرة التي اكتشفت بالقرب من الجثث.

هل كانت هذه العادات البربرية ما زالت موجودة في عصر إبراهيم بعد ألف سنة؟ أمن أجل مواجهة مثل هذه الممارسات حطم البطريرك أصنام أجداده؟. لا تذكر التوراة شيئاً عن هذا: فهي ليست ثرثارة عن المحيط الاجتماعي والطبيعي لإبراهيم؛ تتكرر عدة مرات في سفر التكوين إشارة: «أور الكلدان» لا أكثر. أما عائلته بالذات فنعرف أنها كانت وثنية:

> «في عبر النهر سكن آباؤكم منذ الدهر تارح أبو إبراهيم و أبو ناحور وعبدوا آلهة أخرى». (نبوءة ياشوع سفر التكوين 24: 2).

التوراة الخارجة من الرمال

لم تكن البادرة البطريركية منذ عقود سوى أسطورة وخرافة بالنسبة للمؤرخين والمستشرقين. لكن الاكتشافات الأثرية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، أعادت النظر جذرياً بهذا الاعتبار.

كانت «أور»، التابعة لبابل، مدينة مزدهرة في زمن ابراهيم في ظل حكم حموارابي. ومن المفارقة أن هذه العاصمة لم

تحتفظ إلا بالقليل من تراث هذا الملك وهذه الإمبراطورية. ففي المدن المستعبدة وجدنا وتقصّينا مظاهر تلك الحضارة البابلية التي ازدهرت في كل مجالات الحياة.

وفرت لنا مكتبة «ماري» على الفرات الأوسط نصوصاً ليبرالية لا شبيه لها. فبفضلها تمكن علماء الآثار من اكتشاف الفصول الأولى لسفر التكوين. كما أن رسائل الملوك المحفورة على فخار الصفائح تشكل مجموعة وثائقية دنيوية في تطابق تام مع الأحداث التوراتية: أسماء مدن، وسكان، وأشخاص مع التقليد المذكور في سفر التكوين.

في المدينة الآشورية الصغيرة« نوزي»، بالقرب من كركوك في العراق، كشفت الأبحاث عن صفائح عديدة مسمارية، تتحدث عن عادات شرقية للألف الثاني قبل المسيح، والتي عرفناها بفضل التوراة: المباركة على سرير الموت (سفر التكوين 27) عادة تأمين الوريث بفضل العشيقة (سفر التكوين 16 : 3) علاقات يعقوب بلابان (سفر التكوين 29 ـ 26) دور تيرافيم(*) (سفر التكوين ـ 31: 19، 24)، كلها، أكدتها هذه الاكتشافات الأثرية كسمات حقيقية لعالم الآباء.

توجد على عدد من الصفائح تجمعات من الناس، نسبها

(*) إله بشكل بشري، وجدت صوره الضخمة على عتبة أبواب قصور الآشوريين.

علماء الآثار والمستشرقون إلى أجداد العبريين، واليكم مثلاً التقرير الذي أرسله «إيبعل آدو» ملك «أشلكا» في الفرات الأعلى إلى ملك «ماري»، الذي كان تابعاً لـ«أيبعل آدو» والذي يشهد على حصول أعمال النهب:

«يوم أرسلت هذه الرسالة إلى سيدي، ذهبت إلى «لوهايا». في الجبهة المقابلة من زلماكوم غزا جماعة تلهايا و ألحابيرو، لوهايا وسلبوها: خمسمئة خروف وعشرة رجال».

نص آخر يتحدث عن تعاون عسكري:

««احتل «باباح آدو» مدينة زلّول على ضفاف الفرات. اجتاز النهر مع ألفي حابيرو من البلاد إلى داخل المدينة ومكث فيها».

من هم إذاً هؤلاء «الحابيرو» الذين يتجولون بين الفرات ودجلة؟ يمكن أن نتصور مجموعة من الساميين أشباه رحَّل، يقودون مواشيهم في سُهب، ما بين النهرين، يعيشون في جو المدن الكبرى مثل «أور»، ويقومون عند الحاجة بغزوات على احتياط سكان المدن، مما لم يكن يمنعهم مع ذلك من أن يبيعوا خدماتهم للأمراء.

لو حدَّثني ابراهيم

من بينهم رجل يدعى «تارح» وابنه إبراهيم. ذات مساء، جاء تارح مع إبنه الشاب إلى مدينة «أور»، فاجتازا الجسر

فوق القناة المحيطة بوسط المدينة، واختلطا بباعة وحرفيي المرفأ. وعندما وصلا قرب البرج، سمعا أصواتاً ممزوجة بصوت قرون الخراف ونايات القصب والطبول، وفي وسطهم، على عرش فخم: نانارسن الإلّه ـ القمر على هيئة رجل ذي خطوط وقورة، لحية طويلة جعدة بين يديه، مصادر قوّته العصا ومقاليد السلطة، يصعد ببطءٍ المنحدر الموجود في وسط البرج، يحمله الكهنة، وعلى الأدراج الجانبية تضرب أشعة الضوء صنم ـ «شمش»، إلّه الشمس وصنم ـ «تينغال»، الآلهة (Poredre)(*)، التي تنزلها مجموعة أخرى من الكهنة.

هؤلاء هم الآلهة الذين يعبدهم والدي؟ ـ تساءل إبراهيم. هذا الإلّه الذي أسمع أحياناً لهاثه في الليل في سكون الصحراء. رفض إبراهيم الانحناء عندما مرَّت الأصنام.. إنها فضيحة، إنها انتهاك للحرمات...

أمن أجل هذه الجريمة اضطّر إبراهيم أن يهرب من مدينة «أور»؟ تقول التوراة ببساطة:

> «أخذ تارح «أبرام» ابنه ولوط بن «هرام» ابن ابنه و «سارايا»، كنته، إمرأة أبرام ابنه. فخرج بهم من «أور» الكلدانيين، ليذهبوا إلى أرض كنعان، فجاؤوا إلى حاران وأقاموا هناك». (سفر التكوين 11: 31).

(*) إلّهة من صف أدنى.

وبدأت حركة ابراهيم

من الراعي الصغير الحالم، إلى الأب الصامد المليء بالحكمة، أسطورة مذهلة: القصص التي قُرأت وتُرجمت، والتي تهم نصف البشرية. فكرة ثورية، انبثقت عنها ثلاثة أديان، كثلاثة فروع من جذع واحد، وألوف التعابير الروحية كغصون للفروع الثلاثة.

ليست هناك أية وصية إلّهية أخرجت ابراهيم وعائلته من «أور». ففي «حاران» حطم ابراهيم أصنام أجداده، وهناك تكلّم عن الله، وهناك توجَّه الله إليه:

> «انطلق من أرضك وعشيرتك وبيت أبيك إلى الأرض التي أريك وأنا أجعلك أمّة كبيرة وأباركك، وأعظّم إسمك وتكون بركة. وأبارك مباركيك. وشاتمك ألعنه ويتبارك بك جميع عشائر الأرض». (سفر التكوين 12: 1 ـ 4).

منذ الآن لم يعد اسمه «أبرام»؛ سوف يحمل إسم ابراهيم. تركيب كلمات عبريّة، أب وحامون، يعني أب الذرّية. ومنذ الآن أيضاً سيصبح ابراهيم وحده: (أنا وحدي وأنت وحدك)، قال له يهوه حسب المدراش (الكتابات التلمودية). وأصبح ابراهيم كليم الله، وناقل رسائله، والمستفيد من وعوده، وحده يعرف ذلك ويعلن عنه: أرض وشعب.

إسحق هو المختار

ذات يوم، قرر الله أن يمتحن للمرة العاشرة والأخيرة خادمه الأمين. المرحلة العاشرة والأخيرة التي ستسجل انحداره من لدن الله:

«خذ ابنك إسحق، قال الصوت، وقدّمه ذبيحة لي».

ذبيحة؟ سكت ابراهيم الذي ناقش مع الله، والذي تدخَّل لإنقاذ سدوم و عامورة، والذي قاتل الجيوش، وواجه النفي، واجتاز النار والليل دون أن يفقد إيمانه، هذه المرة، سكت ابراهيم، نام ولم يخبر أحداً حتى زوجته، وفي الصباح ركب الحمار وانطلق مع ولده وخدمه. سارت القافلة الصغيرة في منطقة تكثر فيها الوديان، ووصلت بعد ثلاثة أيام تجاه جبل «مسوريا». أمر ابراهيم خدمه أن يبقوا مع الحمار في الخلف، وأكمل الرحلة وحده مع إسحق؛ يحمل الوالد السكين والنار، والولد يحمل الحطب. شيّدا معاً مذبح الضحيَّة. هل عرف عندئذ إسحق؟

«إني أرى النار وأرى الحطب، قال إسحق، لكن أين هو الحمل»؟.

التفت ابراهيم إليه؟ ففهم إسحق، ووافق بصمت. فقيَّده والده ومدَّده على المذبح، تبعه إسحق بنظراته، رفع ابراهيم سكينه وأطلق يده... «توقف وصاح به صوت الله». انتهى

الامتحان. إن كبشاً في العوسجة المقابلة سيكون ضحية المذبحة. أصبح إسم المكان يهوه ـ يريه (سوف نراه في جبل يهوه). وها هو صوت الملاك يجدد الوعود الإلّهية. ستولد من إسحق شعوب لا تحصى تملك أرض كنعان.

بالفعل، ستولد مُن إسحق ذرية شعب إسرائيل، ليس الذي لا يحصى بل الذي لا يُقهر. ولكن هل كان على إسحق حقاً أن يؤمِّن إرث ابراهيم؟ أليس هناك سوء تفاهم؟ لأن إسحق لم يكن وحده: لابراهيم ولد بكر من جارية مصرية.

«حرمني يهوه من الولادة. فاقترب إذاً من جاريتي. ربما أحصل منها على أولاد»؟

قالت سارة لابراهيم محترمة بذلك عادة أخذتها من بلاد الرافدين ومنحته هاجر المصرية زوجة له. وعندما حملت هاجر، أصبحت وقحة، وأساءت إلى سيدتها التي طردتها بسبب الغيرة، فهربت هاجر. لكن هذا الصوت قال لها:

«هاجر، عودي إلى سيدتك واخضعي لها، ستلدين إبناً. ستعطينه إسم إسماعيل. سيكون رجلاً أحقب يده في كل مكان وكل يد عليه، وسيبقى بمواجهة كل إخوته».

عادت هاجر، وولد إسماعيل، الإبن البكر لابراهيم. هل هذا هو الوعد بالتكاثر: ابن محظيّة؟ انفجرت المأساة بعد بضع سنوات. ونبِّه الأب أنه سوف يلد وريثاً آخر. في حين كان هو وزوجته متقدمين في السن، ويبدو ذلك مستبعداً جسدياً؛ سمع الأب العجوز هذه النبوءة المدهشة:

«ستكون أباً لمجموعة من الشعوب. سأجعلك تثمر (. . .) وسأعطيك ـ لك ولذريتك من بعدك ـ أرض مساكنك كل أرض كنعان ملكية إلى الأبد. لقد باركت سارة زوجتك، ومنها سترزق إبناً».

إبن، بهذا العمر!! ابتسم ابراهيم.

«ستسمِّيه: إسحق (ابتسم). وسأرفع تحالفي معه إلى الأبد».

وأنجبت سارة. وها هو إسحق الإبن الثاني ابن الوعد، قد وُلد.

إسماعيل مرفوض

في الخيمة الكبيرة حيث يعيش ابراهيم وأتباعه بين تلال حبرون (الخليل حالياً)، يجري التحضير لعيد عبودية إسحق. ارتدت النساء فساتينهن الجميلة من الصوف المقلَّم ذي الألوان الحيَّة، وعقود ثقيلة من الفضة تتدلى على صدورهن، وأساور ثمينة تزين معاصمهن. والرجال أيضاً يرتدون ثياب الصوف ينتظرون بداية الوليمة، بينما تتسارع الجاريات حول القدور. إسحق يجلس على وسادة كأنه ابن ملك. «مع أنه ليس البكر مثلي «فكَّر» إسماعيل واقترب من الصغير يزعجه ويسخر منه. . .»

لكن ساره، ساره الرهيبة، تلك التي كانت أجمل النساء،

والتي لا تزال غيورة مثل النمرة، من الأخرى الجارية هاجر. ساره رأت كل شيء، فصرخت وولولت:

«فليُطرد. إنفِ خادمتك وابنك فابن الخادمة يجب ألا يرث مع إبني أنا، مع إسحق»:

تردَّد ابراهيم، ألا تفرض عليه شريعة حمورابي التي لا تزال قائمة في العشيرة البدوية، أن يقبل للإرث ابن محظية؟ لم يخضع ابراهيم إلا لطلب «يهوه» نفسه. فأخذ ـ بقلب كئيب وبيد ضعيفة ـ خبزاً وقربة من الماء، وأعطاها إلى هاجر فوضعتها على كتفها مع الولد.. طردها... ونفاها إلى الصحراء. وبقية الحادثة مأساوية: انهارت هاجر في الصحراء، فرغت القربة من الماء، ونفذ الخبز، وأصبح الولد على حافة الموت. وضعت الأم الولد تحت عوسجة: ربما يخفف ظلها شيئاً من آلامه؟ لا يمكن تحمل هذه الفكرة. ابتعدت هاجر على رمية قوس كي لا ترى الولد يموت. كيف يمكن التخلص من هذا الكابوس في هذه الصحراء المليئة بالحصى والعوسج؟ انتحبت هاجر، وذرفت دموع التوراة الأولى، سمع «يهوه» تنهدات الولد وظهر الملاك، فأرشدهما إلى بئر على مسافة قريبة:

«انهضي يا هاجر، احملي الصبي. شدي يدك عليه لأنني سأجعله شعباً كبيراً».

أُنقذ إسماعيل. أنقذه الله. سيعيش في الصحراء أحقب، للقوس، وستخرج منه أمة كبيرة تعيش في الصحراء.

ذرِّية ابراهيم

أرض وشعب. من يستطيع أن يزعم ذلك؟ تمَّ اختيار إسحق، لكن إسماعيل هو البكر، مدَّ عنقه للسكين؛ و إسماعيل نازع في الصحراء. أُنقذ الإثنان في النهاية بإرادة الله.

كان بالإمكان أن يبقى النزاع هناك مدفوناً إلى الأبد في رمال الصحراء العربية لو لم يظهر يوماً ما محمَّد (ص) خاتمة الأنبياء. فالدعوة الجديدة ترتبط ـ هي أيضاً ـ بابراهيم من خلال إسماعيل المنسي، وكما لو أنه يريد الشرعية لنفسه، أمر النبيّ محمد كل المؤمنين أن يتجهوا نحو القدس ليصلّوا.

أرض وشعب. وسيستمر رسل النبيّ محمد (ص) من خلال إسماعيل وذريته بالمطالبة بالإرث الأبوي، إرث ابراهيم، باسم حق البكوريَّة. ألم يكن إسماعيل الإبن البكر؟ لماذا يُحرم إذاً؟

كان بالإمكان أن نتصوَّر للحظة، أن كل شيء كان يمكن أن يُحل ويزول في اللحظة التي ظهر فيها المسيح الذي يقول عن نفسه هو أيضاً إنه ابن ابراهيم. لكن الذي جعل الوعد روحانياً: أن البركة الممنوحة لأبناء ابراهيم تشمل كل شعوب الأرض؛ والشعب المختار، وأرض الميعاد، ليسا في جوهر جسدي بل روحاني. فباستكمال تضحية المسيح التي جسدها

إسحق و إسماعيل حقق الله في التقليد المسيحي للجميع الوعد المقطوع لابراهيم. لكن التميز المسيحي بين الروحاني والزمني لا وجود له بالنسبة لليهود كما بالنسبة للمسلمين: العالم هو ديني مطلق؛ فالدين والأمة يندمجان.

على الأمة الإسلامية الكبيرة التي هي في الوقت نفسه قلب الدين والأرض المغذية، يجيب بعض اليهود «السنة القادمة إلى القدس»، وصية قومية ودينية في الوقت نفسه فكيف جماعة إسحق وجماعة إسماعيل لا تبقيا دائماً كما كانتا منذ أربعين قرناً في حدود التعابير المادية للوعد الإلّهي؟ كيف لا تستمران بالمطالبة بأرض كنعان رمز إرث الأب التي لا يمكن تقسيمها أو التخلي عنها؟

إن المسألة، بهذا الشكل، مأساوية، ولا يمكن حلها، وهي إحدى مآسي الشرق الأدنى وعائلة ابراهيم والعالم. إن رحلتنا إلى «أور» تقودنا إلى قلب هذه المأساة، إلى القدس، مدينة مقدسة ثلاث مرات، حيث أبناء ابراهيم تجابهوا غالباً في سبيل الحجارة ذاتها.

هل يعرف ابراهيم ذريته إذا ما عاد إلى القدس؟ هل مسموح الشك بذلك؟ ـ من يمكن أن يجيب عن ذلك؟ ربما تجدون الجواب خلال صفحات هذا الكتاب؟ ولنأخذ ـ إذاً ـ دون تردد ـ عصا الحج على خطى ابراهيم.

الفصل الثالث

النجف، قبلة الشيعة

جاك

«ستكونون هنا حُجَّاجاً من أذربيجان»، هذا ما أمرنا به مرافقنا قبل أن ندخل في شوارع النجف الضيقة. «إذا وجهوا الكلام اليكم فألزموا الصمت، إنكم من أذربيجان، وسأقول ذلك للجميع»: إنها وصية آمِرة. نتعرَّض للموت. أمر آخر، لبست نيكول الشادور الواجب ارتداؤه في كل مدينة شيعية مُكرَّمة. اختلطنا بالحجاج الذين ينزلون من السيارة الكبيرة المليئة بالكتل البشرية، وعلم الإسلام الأخضر يرفرف على النوافذ.

وعندما دوَّى صوت المؤذن للمرة الثانية في اليوم نفسه، أمَّت جماهير غفيرة أكثر الأمكنة احتراماً عند الإسلام الشيعي: قبر الإمام عليّ صهر النبيّ (ص). عندما جرح حتى الموت عام 661 في جامع الكوفة طلب الإمام عليّ وضعه

على جمل يهيم به في الصحراء: «ادفنوني في المكان حيث يركع الجمل» هكذا أمر عليّ حاشيته. ومنذ ذلك اليوم يأتون من كل مكان أفواجاً من جنوب العراق ومن لبنان و أفغانستان، أقارب وأصدقاء، ليواكبوا فقيدهم. وعندما يصلون قرب الجامع يُنزلونه من التابوت ويحملونه إلى المعبد. أحياناً يأتي الميت من بعيد والجثة جافة، لكنه يرتاح على الأقل في المكان، حيث ينتظر يوم الدينونة الأخير: أكبر قبر في العالم...

راقبت من سقف فندقٍ صغيرٍ، تحول إلى معسكر، الساحة المربّعة الواسعة التي تنتصب في وسطها قبة مغطاة بقشرة ناعمة من الذهب؛ فهي محصَّنة بأربع مآذن مخروطية الشكل، مغطاة بالذهب، ومعروفة بخرجاتها التي هي على شكل قفير النحل. الجدران المنتفخة والجامع يلمعان من السيراميك الأزرق والفيروز الأزرق، حيث تظهر آيات كاملة من القرآن الكريم. عربات خيل قديمة تخرج من متاهات الأزقة وتوصل إلى الجامع مجموعات أو عائلات، يبدو أنها أكثر غنى من جماهير الحجاج التي تنزل من الباصات.

نظرة أولى إلى ضواحي الجامع: كتّاب عامون يكتبون على الآلة الكاتبة تحت خيم كبيرة. في المدخل، إمام يوزع قطعاً من القماش الأخضر، يربطه المؤمنون بالشبكات الفضية،

ويخرج من أحد الأزقة تطواف كئيب جنائزي بقيادة المُلَّا(*)، يجتاز بخطى سريعة ساحة الجامع دون توقف ودون إثارة أي انتباه. يدخل الرجال إلى المعبد بعد أن يخلعوا أحذيتهم، ويقيمون للميت المكفَّن بكفن بسيط تطوافاً أخيراً بالدوران ثلاث مرات حول الضريح، ثم يوضع الميت على سقف سيارة تاكسي. المقبرة هي بالطبع قريبة لكنها واسعة بحيث يلزم اجتياز عدة كيلومترات للوصول إلى الحفرة التي توضع فيها الجثة.

إمرأة مغلَّفة بالسواد تتأمل من على تلة تشرف على شواهد القبور الحجريَّة في الحقل الواسع، وقبب تلمع في الأفق على شكل بصلة، جوامع المدينة «المقدسة». وبين المرأة الجامدة، والقبب الخضراء والذهبية، تمتد ألوف الشواهد المتجهة جميعها نحو مكة، نحو الشمس الغاربة التي تضيء النقوش والأزهار المرسومة من قبل فنانين بسطاء على حجارة قبور هؤلاء المؤمنين، فهم ينتظرون في الصحراء حكم الله.

جرت مراسيم دفن ليست بعيدة عني: خمسة أولاد يدفنون أمَّهم. والذي يبدو أنه البكر، يقف أمام المجموعة إماماً في الصلاة؛ يقفون بالصف ويديرون ظهرهم للجثة الموضوعة على الأرض: شكل هزيل ملفوف بشرشف مبقَّع، ومجموعة

(*) المُلَّا: دكتور في الشرع الإسلامي.

من النساء تشارك في الجنازة جامدة وصامتة. لاحظت أن أحد الأخوة يرتدي ثياباً أوروبية ويداه ناعمتان: يبدو أنه أكثر غنى من الباقين. انحنت الرؤوس للمرة الأخيرة وارتفعت الأيدي حتى الأذنين؛ تفرَّق الأخوة: اثنان نزلا في الحفرة والآخرون صامتون ومحتارون. رفعا الجثة وسلَّماها للأول منهم ثم خرجوا من الحفرة بعد أن أنهيا مهمَّتهما والشرشف في أيديهما. في هذه اللحظة المحددة، وقفت النساء وبدأت تنتفض وهي تبعث صرخات الألم وتذرف الدموع؛ رمى الأولاد كل بدوره بعض الحصى في الحفرة، ثم قذفوا بالتراب بحميَّة. شاهد قبر جديد يولد بين ألوف الشواهد.

هذه الأرض مقدسة منذ الأصل. فهي تحتضن ليل الأزمان. اليوم كما الأمس، تُدفن في بلدان الكلدان أجيال من المؤمنين. أليست أحشاء هذه الأرض هي التي صنعت أول إنسان:

> «وإن الرب الإله جَبَلَ الإنسان تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نسمة حياة». (سفر التكوين 2: 7).

لكن أيضاً: «أنت من التراب والى التراب تعود».

أرض الآلهة السومرية وإله ابراهيم، أرض آلهة السريان والبابليين، أرض العقائد المزدكية والبيتاغوريَّة، أرض مخلفات كنيسة النسطوريين البدائية، وأرض الإسلام الشيعي أخيراً، قليلة هي الأماكن، في العالم، التي مثل القدس،

تتميز بتحالف ـ بهذه الوثاقة ـ بين السماء والإنسان. هاتان النقطتان في الكرة الأرضية هما في انطلاقة وصول مسيرتنا، ومسعانا . . .

ضريح الإمام عليّ، خليفة النبيّ (ص)

هنا في مدينة النجف المكرمة، قبلة الشيعة، تمكنا من تصوير المشاهد الدينية الأولى لفيلمنا، وهذا بفضل مساهمة مرافقنا. فاقتراح هذا الأخير بإظهار أننا حجاج من أذربيجان، سمح لنا، ليس فقط بدخول المعبد، بل أيضاً وبصورة خاصة بتفسير جهلنا للغة النبيّ. وفي حال وجَّه أحدهم الكلام لنا، فإن مرافقنا يسارع للإجابة عن هذين الأذربيجانيين السخيفين المفترض أن نكونهما. ويكفينا لكي نظهر كمسلمين صالحين أن نعرف الشهادة، أي أن نجهر بالعقيدة الإسلامية: لا إله إلّا اللّه ومحمد رسول الله. هذا هو الحد الأدنى الذي يجب أن يعرفه كل مؤمن من لغة محمد (ص). لم تكن المغامرة مرضية لمرافقنا السنِّي الذي يعتبر المحرمات الدينية رجعية. ثم أن إدخال رجل غير مؤمن بين الشيعة لعبة جيدة تلعب على هؤلاء المسلمين السيئين.

دخلنا إذاً إلى المزار الرائع. بدا لنا أنَّ بعد الظهر هو أفضل وقت لذلك، لأننا اعتقدنا أن الحراس سيقلّلون من مراقبتهم في وقت القيلولة، وأن عدد الحجاج سيكون أقل.

الكاميرا مخفية بعناية تحت الجلابية يمكنها أن تصور دون تدقيق بفضل المكبِّر ذي الزاوية الواسعة.

على المدخل حارس بلباس خاص يراقب مرورنا. آه لو كان يعرف من نحن؟ خلعنا أحذيتنا تحت ناظريه كمؤمنين صالحين. داخل المزار يتجول حراس آخرون يحمل كل منهم شارة مهمته؛ رجال الدين معمَّمون يرتدون العباءات السوداء.

يعجز الوصف عن غنى المزار: أبواب من الذهب والفضة مصنوعة بإتقان من قبل صاغة فُرس ورخام نادر وأهداب حلزونية، وثريات من الكريستال ينعكس ضوؤها على ألوف المرايا المتقابلة التي تزين عقد القبة؛ إنه مبهج للعين. الشواهد الحية في عصرنا هي صفوف لمبات النيون التي تلفُّ المكان. وفي مشكاك صغير مغطى كلياً بالسيراميك الأخضر، يجلس رجل تقيّ على حصيرة من قش، يرتدي دشداشة واسعة ويزين لفَّة رأسه بشريط أخضر، يستقبل المؤمنين القادمين لاستشارته. وفي مكان جانبي في الظلمة تجلس نساء تُرضع أطفالها وسط ضجة مجموعات من الأطفال. فنظراً لفقرهم الذي يحول دون تمكنهم من الذهاب إلى الفندق، حطوا رحالهم ليقضوا الليل هنا قبل أن يرحلوا في الغد إلى خيامهم في الصحراء، وأكواخهم القصبية على ضفاف الفرات، أو إلى بيوتهم الترابية على الهضبة الإيرانية.

الضريح مفتوح للزوار ليلاً نهاراً. ومصابيح النيون تضيء المداخل في المساء، وأفواج المؤمنين لا تنضب.

وجهت الكاميرا نحو الناس المتنوعة والمتجولة التي تتجمَّع حول الناووس. عثمانيون باللباس الأبيض الأنيق بلحاهم المتقنة، وأفغانيون بشرائط عريضة تتدلى فوق أعينهم المغولية، وفلاحون بسطاء يسيرون جنباً إلى جنب مع تجار أغنياء، ونساء في كل مكان، أشباح سوداء ومتناسقة تجر وراءها مجموعات الأطفال بسراويل النوم. تصدر وشوشة من بين الشفاه المتحركة، تمتزج بحفيف الفساتين ووقع الأقدام على البساط. يجب العمل بسرعة: فالكاميرا تهتز على خاصرتي، لم يبقَ ما يكفي لحركة دورية للجسم.

لاحظت فجأة أنني الحاج الوحيد الذي يتأبط لفَّة من الثياب وكأنها طرد ثمين، وأنني أهتم بالناس الذين يحيطون بي أكثر من اهتمامي بالرفات الطاهر لمؤسس الشيعة. باختصار، شعرت بنفسي أني قد لفتّ الانتباه. وبدا لي فجأة أنّ الجامع الكبير بات مقفراً، ولم أعد أرى سوى حارس يتوجه نحوي بخطى كبيرة. اعترضه المرافق، وأومأ لي لمغادرة المكان فيما هو يجرّ الحارس بكم قميصه، فانسحبت تاركاً الرجُلين يتفاهمان. كاد أمرنا ينكشف لأن هذا الحارس عاش في أذربيجان. كيف يمكن أن يكون صديقك من هناك! صاح بالمرافق. فاتركني إذاً أرحب به وأسأل أخي من أي قرية جاء، وإذا كان يعرف صديقي عثمان أحمد. . . .

الكوفة وولادة الشيعة (التشيُّع)

كان الإنذار حامياً، واعتبرت، من الحكمة، أن أطلب من السلطات الدينية تعاونها. وافق صديق من بغداد أن يؤمِّن لي مقابلة مع شخصية شيعية رفيعة المستوى تحمل لقب آية الله.

انتظرت في قاعة الاستقبال. هذه القاعات الرسمية سواء كانت لبطريركٍ في دمشق أو لأسقفٍ في بيروت، أو لحاخامٍ في القدس أو لمفتٍ في القاهرة، فإن لها طابعاً مشتركاً: أثاث من طراز لويس الخامس عشر ينقصه الذوق السليم، كثير من الذهب المزيف، جدران مصفرَّة اللون، طنافس ثقيلة، وضجر ثقيل أيضاً. كل واحد يعلق شعاراته الخاصة. المسيحيون يضعون الصليب وعدداً كبيراً من صور القديسين. واليهود، الشمعدان بفروعه السبعة وعدة صور لشخصيات صهيونية، أما المسلمون فلا رسوم ولا صور، فقط كتابات تذكر الله و محمد (ص).

جلس ثمانية رجال دين مع آية الله حول الطاولات الواطئة التي توضع عليها فناجين القهوة. لكن قبل هذا الطقس يجب البدء بالتعارف. وانتقل رجال الدين هؤلاء ليطرحوا عليَّ الأسئلة، كأنه امتحان: من أنا؟ ما هو هدفي؟ ما هي مشاريعي؟

بعض كلمات التحية باللغة العربية لكي أحطم جدار

الحذر، ثم انطلقت بالإنجليزية لمواجهة الحكام الثمانية. فجرى دفاعي على مرحلتين: أولاً، إظهار الاهتمام الشخصي الذي أبديه بالإسلام الشيعي والتبيان لهم أنني لا أجهل شيئاً عن عقيدتهم وعن تاريخهم، ثم عَرْض هدف زيارتي ووضع نفسي كلياً بين أيديهم واستسلامي إلى مشيئة الله، وهذا أمر طبيعي. شرحت لهم أنّ اهتمامي بالشيعة أبديته بالدرجة الأولى عند الجمعيات الصوفية الإسلامية وخاصة عند الدروز، فالدرزية المتحدرة من الإسلام الإسماعيلي تشكل بالفعل طائفة سرّية وباطنيَّة تصل إلى حدود الشيعية. ولم أتردد بالتأكيد أنني عدت من الدرزية إلى الأصول، إلى الإسلام العراقي مهد التشيُّع، وبما أن علياً قد اغتيل في الكوفة ودفن في النجف واستشهد ابنه الحسين في كربلاء، فإنني أرغب في أن أنطلق من هذه الأماكن، لأصوِّر فيلمي «على خطى ابراهيم».

أصغى رجال الدين إليَّ باهتمام وعيونهم نصف مفتوحة.

كل حقيقة كنت أتفوَّه بها، ألاحظ تأكيدها بهزات الرؤوس الثمانية. في نهاية عرضي، كل واحد يستشير جاره وعيناه تراقبان ردَّات الفعل الأولى عند آية الله. طلبت بصراحة ودون مواربة تعاونهم وضيافتهم، في حين لا أجهل سحر هذه الكلمة الأخيرة في الشرق: لا ترفض. عادة قديمة موروثة عن حياة الصحراء. فالضيافة لها قوانينها وواجباتها. لقد

خاضت فرنسا عام 1925 حرباً دامت ثلاث سنوات ضد الدروز في سوريا، لأنها خرقت هذا المبدأ. فقد خرق نقيب فرنسي يومها حرمة منزل الزعيم سلطان باشا الأطرش الذي استضاف شخصاً من الفارّين.

قرر آية الله أخيراً أن يجيب: شُكر تقليدي، مدائح مهذبة، تهاني قلبية، ثم فجأة طرح السؤال: لماذا لا تصوِّر فيلماً عن الشيعة؟ ربحت المعركة أكثر مما كنت أتوقع! وهكذا، وجدنا أنفسنا صبيحة اليوم التالي في الكوفة بين اثنين من رجال المُلَّا، مكلَّفين بحمايتنا. نرجع عدة قرون إلى الوراء، إلى أيام الإسلام الشيعي الأولى في الكوفة، حيث قتل صهر النبي محمد (ص)، وعلى بضعة أمتار رأينا حجراً يحمل بصمات يده، هذا كل شيء. ولا شيء غير ذلك: الذهب والفضة والخشب المحفور، كلها لم تصمد لا أمام الزمن ولا أمام التاريخ. في الماضي، كان يوجد هنا جامع بجمال جامع النجف؛ والآن، الصمت المدهش للذين يصرّون على المجيء والبقاء بين جدرانه. بعض الرجال الأتقياء يصلّون بعيداً عن الجمهور على حصيرة مفروشة على الأرض، وسط حوش واسع مستطيل. صفوف الأعمدة والعقود انهارت منذ زمن طويل. إني أفضل هذه الأطلال على جماهير النجف. كم هو أجمل نور الشمس الغاربة الذي يتلاعب على الجدران! وكم هو توراتي بستان النخيل الذي يحيط بالمزار!

تأسست الكوفة عام 639 بأمر من الخليفة عمر من قبل سعد بن أبي وقّاص وهو صحابي من أصحاب الرسول فكانت العاصمة العباسية الأولى ونسب اسمها إلى الكتابة الكوفية ذات الأحرف المزوّاة. وهي تحتفظ بعد أن دمَّرها القرامطة في نهاية القرن التاسع على مقتل الإمام علي بذكر التاريخ عام 39 هجرية الذي يسجل ولادة الشيعة. فدخل الإسلام حرباً أهلية ضارية ورهانه استبدال لقب أمير المؤمنين بلقب الخليفة الروحي والزمني للإسلام الذي هو أيضاً الإمام. «الخلافة والإمامة هي من حق المتحدرين مباشرة من النبي (ص)» أعلن عليّ وأنصاره الشيعة ذلك، واعترض على هذه المقولة حزب متطرف ومتشدد، هو الخوارج، الذي ردَّ بصيغة ديموقراطية: «كل مسلم مؤمن وتقي، بوسعه أن يصبح خليفة حتى ولو كان عبداً أسود». واعتبر من جهته حزب ثالث، وهو السنَّة، بين الحزبين السابقين، أن خليفة النبي (ص) يجب أن يتم اختياره من داخل قبيلة قريش التي منها النبي، ومن بين أكثر الرجال استحقاقاً.

تمكَّن حزب السنَّة بعد مرحلة من الحروب الدامية، والإرهاب والاغتيالات السياسية من فرض نفسه، وإقامة السلطة الملكية للأمويين. وثالث الخلفاء، عثمان، وقع ضحية مؤامرة؛ ثم أصبح الإمام عليّ الخليفة الرابع. لكن هذا الأخير سقط تحت ضربات حاكم سوريا القوي والثري،

معاوية. حاول ابنا عليّ الحسن والحسين أن يستعيدا إرث محمد (ص) لكنهما قتلا بدورهما، الحسين قتل في معركة كربلاء عام 680، والحسن مات مسموماً في الحجاز.

عقائد الشيعة وسلوكهم

تلاشى بعد كربلاء، عند الشيعة، الأمل برؤية المتحدرين من النبي مباشرة يحكمون الإسلام، فترك ذلك عندهم حقداً دفيناً وعميقاً ضد المغتصبين السنَّة. ولا يزال أئمة الجوامع في الكوفة حتى اليوم ـ وقد شهدت ذلك فيها ـ يمسكون أثناء الخطبة سيفاً، ويلوحون به بعنف وهم يعظون المؤمنين. إنه سيف الانتقام. وويل للسنّي الموجود بينهم! أما وجودي فبالكاد سُمح به. فرغم تزكية القادة الدينيين، كنت أقرأ الحذر والعداء على وجوه عديدة. إذ كنت الكافر تحت رحمة بعض المتحمسين.

أما الحزن الكبير في عاشوراء، الذي تستعاد ذكراه في العاشر من شهر محرم، والذي يكرِّم استشهاد الحسين فهو الأهم والأوسع شهرة. فيه تجري مظاهرات استثنائية من التقوى والحماسة الدينية. ينتشر جمهور المؤمنين منتحباً؛ وتطلق النساء اللواتي يرتدين الشادور التقليدي صرخات حادَّة، بينما يبكي الرجال الذين يرتدون الثياب السوداء بصوت عالٍ. كما أن مجموعات من حملة السوط تجلد

نفسها بعنف تعبيراً عن الحزن، فيمزقون الجلد حتى يظهر اللحم الحي وأحياناً العظام. وتُطلق في هذا اليوم لعنات ضد السنَّة الذين يختبئون حينها خوفاً من العقاب كما حصل في بعض الأحيان.

ينقل الشيعة ـ المضطهدون طيلة أجيال من المسلمين السنَّة ـ من جيل إلى جيل، أمل انتقام سيأتيهم من السماء، يعبَّر عنه بعودة الإمام الأخير إلى الأرض، الإمام الثاني عشر، «المهدي»، الذي لم يمت لكنه اختفى. سيظهر هذا الإمام يوماً، مكللاً بالنصر، ليفتح عهد العدالة والسلام كما أعلن النبي محمد، سيظهر على شكل المخلّص ممهداً بذلك للحكم الأخير. إنها نظرية إمام الشيعة المتخفي، والذي بسببه يُدْعَون الشيعة الإمامية أو الإثني عشرية، تلك النظرية المقبولة أيضاً من الإسماعيليين(*)؛ لكن هؤلاء يسمونهم أتباع الإمام السابع، لأن مهديهم ليس سوى الإمام السابع المتخفي.

إن الميزة الأساسية للشيعة تكمن إذاً في هذا الغياب للزعيم الشرعي الذي، يتابع حكم الطائفة من قصر تحت الأرض، حيث سيخرج يوماً ليعاقب مضطهدي أقارب عليّ. إن مفهوم الغياب هذا، الغيبة، هو أساسي عند الشيعة لأن

(*) راجع الملحق.

الإمام المختبىء يملك معارف سرية منقولة عن النبي محمد (ص) ذاته.

إن مثل هذا المفهوم، مضافاً إلى البحث عن المعنى الخفي للقرآن، أديا إلى ولادة شيع مساريَّة مثل الإسماعيليين والعلويين والدروز، كما أديا إلى ولادة حركات سرِّية مختلفة مثل التصوف والدروشة.

يستمر الشيعة كمنشقِّين عن الإسلام عاملين على إلغاء هذه الصفة بسلوك مميَّز، لا بل معاكس للأكثرية: هذه الميزة التي هي ردة فعل تحدٍّ بقدر ما هي دفاعية. وهكذا، يملكون حركة رجال دين منظَّمة حقيقية وذات تراتبية، رغم أن هذه الفكرة متعارضة مع القرآن. فرجال المُلَّا بصفتهم رجال دين ينشرون التعليم الديني ويؤمِّنون العبادة. ويبلغ عددهم حوالى 1200 رجل في الطائفة كلها. فهم ممثلو الإمام الثاني عشر على الأرض. وهو بالمناسبة، حسب تعبيرهم المقدس، الإمام الغائب «الذي يدخل قلوب المؤمنين ويقول لهم إلى أي آية الله يجب أن يصغوا».

في سنة 1963، أعطي لأكبر آيات الله في إيران، آية الله الخميني لقب زعيم تخطت شهرته كل المقاييس عندما أطاح بسلطة الشاه؛ وهذه هي قوة هؤلاء القادة الدينيين.

إن الشيعة الذين يعتبرون أن السلطة يجب أن تعود إلى الإمام الثاني عشر هم إذاً معارضون بطبيعتهم. فكل سلطة

زمنية هي اغتصاب. فهم لا يقبلون إلا بالحكومات القائمة على مبادىء ديموقراطية جداً كالمساواة والعدالة الاجتماعية والكفاءة الملائمة للمهام، حيث يبقى آيات الله في الظل يكتفون بتوجيه ونصح مثل هذه الحكومات. فإن الدراويش البكتاشيين(*) وهم الطائفة الشيعية الوحيدة في تركيا والتي وقفت غالباً ضد حكم السلاطين الاستبدادي، يصورون الإمام عليّ كفارس لا يخاف ولا يقارب يعزّي الفقراء والبؤساء ويُصلح الأخطاء وينقذ المضطهدين.

هذا ما يفسر وقوف الـ 35 مليون شيعي إيراني ضد الحكم الفردي للشاه المعتبر زنديقاً، بطبعه غير الديني، والغربي جداً في نظامه. أراد الشيعة بسقوطه معاقبة مجتمع قائم على الظلم والاستثمار. كما أنهم ينظرون إلى أنظمة الملوك والأمراء العرب النظرة نفسها، إضافة إلى كونها أنظمة سنِّية.

يتضح من ذلك أن هناك نزاعاً دائماً بين الشيعة والسنَّة على السلطة، فهي حرب قديمة تظهر بشكل متقطع في البلدان ذات التمركز الشيعي القوي مثل لبنان و اليمن أو العراق.

في لبنان، لم يحظَ الفلسطينيون السنَّة خلال الحرب الأهلية إلا بدعم محدود من قبل الشيعة، حتى أننا شاهدنا

(*) راجع الفصل العاشر.

بعض سياسييهم يتحالفون مع المسيحيين. وفي اليمن يقف الشيعة على رأس ديموقراطية شعبية معارضة للعربية السعودية، بينما في العراق فإن السبعة ملايين شيعي هم على حد السيف مع السلطة الممركزة بين أيدي السنَّة.

إن هذه النزاعات الدينية هي أحد المعطيات الهامة التي يجب أخذها بعين الاعتبار على المسرح السياسي في الشرق الأدنى.

الفصل الرابع

من بغداد إلى الموصل،
لقاء مع عبدة الشيطان

نيكول

إنه مكتوب أن قرارات وزارة الإعلام المتعلقة بعملنا بدت لنا دائماً غير واضحة. فلماذا استبدل الدليل الذي رافقنا إلى «أور» والى النجف في جنوب العراق بدليل آخر؟ ولماذا هذه التأخيرات وهذه المماطلات التي تؤجل سفرنا إلى شمال البلاد؟

ها هو اليوم الثامن يمر على وجودنا في فندقنا البغدادي الصغير، والنقاشات اللامتناهية تتكرر دون أن نلاحظ أقل تقدم في تطور الوضع. يمكن القول إن العلاقة بيننا أصبحت أكثر تهذيباً وأقلّ حميمية. ربما لن ينفّذ وعد شبلي العيسمي. لكنه في النهاية سينفَّذ وسنحصل على دليل آخر وعلى الضوء الأخضر للسفر إلى الموصل.

يتبدى أمامنا مشهد سهل ما بين النهرين الرتيب والمليء بالحصى في بدايته، المليء بالحفر والهضاب، فليستيقظ السينمائي قبل غروب الشمس بقليل: الأبعاد البنفسجية للتلال تفتنه، والجوانب المنخفضة للطريق ملأى بالناس. نشاط متحرك يميز الرجال والحيوانات المستعجلين لإنجاز عمل ما قبل نهاية النهار. جِمال ضخمة تجر عربات صغيرة ذات إطارين، ورجال يركبون على حميرهم ويضربونهم بالهراوات، بينما تحمل نساء ترتدي تنانير واسعة بألوان حادة تظهر من تحتها سراويل مزمومة على الكواحل، حِمال الشوك الكبيرة على رؤوسهن.

تباً لهذا الوضع! إن مرشدنا السياحي العنيد والحذر لا يسمح لنا بالتصوير، لا يمكن تصوير رجل يركب دابة، فذلك حسب رأيه دلالة على التخلف الثقافي للمزارع. ونقدِّم الكثير من الحجج لإقناعه بالسماح لنا بأن نصوِّر بضعة مناظر للشمس الغاربة. فيقف هو بالذات وراء مكبر الكاميرا لكي يتحقق من أنَّ أي إنسان لن يتسلل إلى المشهد.

الى بلاد التلال والدرِّيك (حفارات النفط)

في صباح اليوم التالي، بدا السفر متعباً، فالجوّ بارد، والمحرك يرفض الانطلاق. وبعد جهد دام أكثر من نصف ساعة، غيَّر رأيه فانطلقنا. تمنينا لو أنَّ دليلنا على الأقل هو

أيضاً يبدي مثل المحرك قليلاً من الإرادة الطيبة! ولكن، لا: فأمام كل مشهد، مثل هذا الفندق في قرية صغيرة الذي تحوَّل إلى سوق جميل جداً، أو هذا الفاخوري العجوز الذي يصنع تماثيل غريبة، نصفها لبشر ونصفها لحيوانات، يتكرر نفس السيناريو: مراقبة المناظر ونقاشات حادة. إكتشفنا بالفعل أن دراساتنا لم تفدنا شيئاً في هذه البلاد: فلكي تتمكن من التصوير يجب أن تكون محامياً! وفي نهاية النهار، يجد صحافيان يائسان نفسيهما أمام حصيلة سلبية جداً: بعض الأمتار من الأفلام، ومعنويات سيئة جداً.

على عكس ذلك، فإنَّ مرافقنا أبدى تسامحاً كاملاً في حقول النفط في كركوك: يمكن تصوير كل شيء، وكل شيء صالح ليكون موضوعنا. الاستقبال لائق جداً في الشركة، والمهندسون يستقبلوننا بلطف استثنائي على ربعة ذات اخضرار جميل. فالخمر الإسباني، وأغطية الطاولات الجميلة، والكراسي الهزازة من الطراز الفيكتوري، تُذكِّرنا بوضع مريح نسيناه. في المطعم، يُبدي الخدم العراقيون القدماء نوعاً من الفخامة البريطانية، والأواني الفضية تلمع. يبدو أن العراقيين ـ لم يتخلوا ـ عندما أمَّموا شركة النفط العراقية، عن كل أوجه الكولونيالية.

دُعينا في المناطق الخالية من النفط لزيارة أحد الآبار الأولى لاستخراج النفط في الشرق الأدنى: لم تتوقف محطة

الضخ عن العمل منذ عام 1925. أعترف أن مخيلتي تلتهب ألف مرة أكثر من رؤية لهب النار الدائمة التي تنبعث بشكل طبيعي من الأرض بعد خروج غاز الهيدروكاربير من ثغرات الطبقات التحتية. هل هذه هي الأفران الشهيرة الحامية التي تتكلم عنها التوراة والتي يراقبها آشور بانيبال من أعالي درجات قصره في كالخ نمرود القديمة؟

إستفدنا من تحسين علاقاتنا مع دليلنا للقيام في اليوم التالي بزيارة الأماكن الأثرية في خرسباد ونمرود وكالخ وأشور. أبدى له جاك رغبة في مقابلة اللجنة الأثرية المكلفة بتنظيف الأماكن، استقبلتنا هذه الأخيرة في عز الظهيرة، في معسكر مجهّز بالتدفئة بالقرب من نمرود. شربنا فنجاناً من القهوة الحلوة التي زادت من عطشنا، فالمسؤول رحَّب بما نقوم به، وأعطانا تصريحاً للتصوير. تبلغت شركة التلفزيون في بغداد ذلك بسرعة، ووصلت مجموعة تصورنا ونحن نصور الفيلم.

يبدو أن عمل عالم الآثار في عالم ما بين النهرين يُخيِّب الآمال، لأن الآثارات التي يكتشفها، مصيرها الدمار بسبب المادة المستخدمة لصنعها: اللِّبن الترابي المُجفَّف. إلا أنه إذا كانت المدن والأبراج والأنصاب تقتصر على تلال من الركام وبعض الصفوف من النواويس، فإن السخاء الاستثنائي على تصوير القصور من الداخل، وخاصة النقوش المطمورة منذ

أجيال، ساعد على إعادة بناء حياة بعض الحضارات في بلاد الرافدين إلى درجة ما. والغريب أننا نجد اليوم في متحف «اللوفر»، وفي «المعرض البريطاني» وفي «برلين» قصر تغلّات بلاسر و سرجون و نبوخذ نصر، لأنه منذ أكثر من قرن، يوم اكتشف «بول إميل بوتا» قنصل فرنسا في الموصل آثار ما بين النهرين، أرسلت كل الكنوز التي نُبشت بين دجلة و الفرات إلى الغرب. فمن العدل أن تستعيد العراق جزءاً من كنوزها القومية.

لحسن الحظ أن التنقيب يتم منذ الاستقلال تحت مسؤولية الدائرة القومية للآثار. كنا مع علماء الآثار العراقيين يوم كشفوا في آثار نمرود تبليط قاعة قصر سرجون وبدت النقوش التي تعرض المنفيين السامريين من قبل هذا الملك المنتصر، وقد وضعوا حلقة في شفتهم العليا. لا يزال أحفاد السامريين موجودين حتى الآن، ولقاؤنا معهم سيكون من أكثر اللقاءات إغناءً لرحلتنا.

المعتقدات الغريبة لعبدة الشيطان

استُقبلنا في الفندق الحكومي في الموصل ببهرجة عجوز عاهرة متصابية: قطع الذهب باهتة، وطلاء الجدران وسخ، وزجاج النوافذ مكسّر، وأكثر من ذلك، يستخدم الأسرَّة نزلاء آخرون، مما جعلنا نسهر القسم الأكبر من الليل. إرتفعت

عصبية مرافقنا الذي اقترح عليه «جاك» يوماً سياحياً بدون كاميرا وبدون آلات تصوير.

تجـولنا في الـموصل: نتأمل برج بيزا المنطقة، مِئذنة منحنية رائعة مزينة بخط عريض من اللِّبن، يشبه إلى حد الاندهاش نقوشنا في «ليبج»، ثم دعوناه إلى أحد صالونات الشاي الصغيرة في الشارع الكبير في الموصل حيث يراقب الرجال من وراء المشربية في الطابق الأول، الجمهور الذي يتدافع تحت أعينهم. إنني المرأة الوحيدة التي تجرأت على المغامرة بدخول مكان الرجال هذا، فشعرت بصمت معارض يرافقني حتى طاولتنا. مهَّدنا بكأس من الشاي الأسود، لنحاول إقناع مرافقنا بحجج أردناها علمية ـ كلمة بدا أنه يقدرها كثيراً ـ بضرورة لقاء وتصوير اليزيديين أو عبدة الشيطان.

لكن من هم هؤلاء اليزيديون الشهيرون؟ شعب غير معروف يخيِّم عليه حجاب من الأسرار؟

يسمونهم عن غير حق عبدة الشيطان فلو درسنا ـ ولو قليلاً ـ عقيدتهم، لاكتشفنا أن الأمر لم يعد يتعلق بشيطان بقدر ما هو بملاك حتى ولو أسقط. فالله ـ حسب اليزيديين ـ هو الذي خلق العالم، لكنه لا يهتم بالشؤون الإنسانية، فقد كلَّف بإدارتها سبعة ملائكة يساعدونه. رئيسهم هو طاووس ـ ملاك يصورونه على شكل طاووس. وحسب ر.

ليسكوت (Lescot) الذي تسنى له التواجد بين اليزيديين المدينيين في سوريا، فإنَّ الغرب والشرق هما اللذان ماثلا بين الملاك ـ طاووس وشيطان الديانات المسيحية والإسلامية. وهكذا، اتهموا بممارسة عبادة الشيطان، فأصبحوا موضع احتقار النسطوريين والسريان، رغم أنهم تقاسموا مع هؤلاء المسيحيين مصير الأقليات المشترك. ورغم ذلك، فإن اليزيديين ـ حسب قول بعض الكتَّاب ـ هم في نفس الوقت مسيحيون صالحون ومسلمون صالحون ويهود صالحون. فهم يعتبرون التوراة والأناجيل والقرآن خلاصة الوحي. كما أنهم يعترفون بألوهية المسيح. ولاحظ «ش. لوك» أنهم يطهِّرون مع المسلمين ويعمِّدون مع المسيحيين ويصومون مع اليهود(*).

يظهر اليزيديون للوهلة الأولى، كواحد من تلك الشعوب الريفية أو الرحَّل، التي لم تتنصَّر جيداً قبل الموجات الدينية المختلفة، فكل مرة قناعات جديدة على السابقة تقريباً، مثل هنود أميركا الجنوبية، الذين احتفظوا عبر مسيحيتهم، بقناعات ما قبل ـ الكولومبية. هل يجب المقارنة إذاً بين شيطان اليزيديين وخالق الزرداشتيين، أنغرا ـ مينيو (ماني) إله الشر؟. يميل بعض الكتَّاب إلى تصديق ذلك.

(*) هنري شارل لوك، الموصل وأقلياتها. هوبكنون، لندن، 1925.

باختصار، إنه بسبب مزجهم لعدد كبير من المعتقدات في توفيقية مضللة، وبسبب اتخاذهم مسافة من الديانات الإسلامية، اضطهدهم الإسلام المستعد دائماً لتطبيق القانون القرآني الصارم تجاه منشقيه. مما يفسِّر جزئياً لماذا يجدون أنفسهم معزولين عن بقية البلاد كلما شهد العراق اضطرابات دينية أو سياسية.

وباسم ما يسمى بالاضطرابات السياسية، رفض مرشدنا اليقظ ذهابنا إلى كردستان. اقترحنا عليه عندئذ جبل سنجار على بُعد 160 كلم غرب الموصل. بالفعل، فإذا كانت معظم القبائل الرحَّل اليزيدية تعيش في كردستان، فإن بعض القبائل قد تحضَّرت في سلسلة جبل سنجار في شمال سوريا. تردد مرشدنا، وراح يحاول مرة أخرى إقناع هذين الأجنبيين العنيدين بشكل سخيف أنه علينا الإقلاع عن مشروع غير مجدٍ. لكنه وافق أخيراً بسبب إصرارنا.

اللقاء الأول مع عبدة الشيطان

في قلب مشهد صحراوي مقفر وصلنا إلى القرية اليزيدية الأولى، وهي مبنية باللِّبن المجفَّف، سقوفها من الأغصان المغطاة بالوحل، ولا تختلف بشيءٍ عن القرى التي رأيناها حتى الآن.

على السطوح، أكوام من قطع روث الخيل المجفف، ومن

العشب الشوكي، وأمام الأبواب نساء تغزل وتتسارع للدخول إلى المنازل لدى اقترابنا. وأما الذي أثار دهشتنا فهو مظهر الرجال: تحيط بوجوههم عشرات الضفائر، يبلغ طول الواحدة منها حوالى المتر، واللحية كثة وعلى رؤوسهم عمامة مخروطية غريبة.

بالقرب من «الخربة»، في جوار الحدود السورية، الحقول واسعة لكن القمح فيها هزيل، والكوسى ضعيفة. وفي الشارع الرئيسي لهذه القرية في آخر العالم، يقف رجال عاطلون عن العمل، ينتظرون دون كبير أمل زبائن في دكاكين النقش، فيفاجأون بمرورنا لأنهم لا يرون أوروبيين عندهم كل يوم.

طلبنا مقابلة شيخ القرية، فتدافعت زمرة من الأولاد ذوي الضفائر المتعددة المتطايرة، ترشدنا إلى بيت الشيخ «سيمو». يشبه منزله من كل الأوجه منازل جيرانه: حوش منخفض دون نوافذ في الجهات الثلاث الأخرى. في الحوش شجرة واحدة، شجرة زيتون قديمة، ودجاج هزيل، يفتش في حرارة مرهقة عن بعض الفتات.

الشيخ «سيمو» رجل ملؤه اللطافة، يستضيفنا في منزله قدر ما يبتغي. فالله بارك بيته حيث أعطاه 12 ولداً جميعهم على قيد الحياة.

وسط موجة من الغبار، تفرش زوجته الهادئة حصيرة على الأرض، وتدعونا بابتسامة خجولة إلى الجلوس عليها.

وتفوهت ببعض الكلمات بالعربية التي لم نفهمها. شاي أخضر، سجائر، دردشة، مجاملات متبادلة، نفس طقس التعارف المعروف في الشرق، مع ذلك، كانت هناك كلمة تحرق شفاهي؛ لفظتها: شيطان. كانت ردة فعل الشيخ سيئة. هل ارتكبت خطأً ما؟ مرشدنا أيضاً بدا منزعجاً. ترجم جواب الشيخ: «يكرِّم اليزيديون الملاك ـ طاووس ولا يلفظون أبداً كلمة شيطان كما أنهم يتجنَّبون استخدام كلمات عربية فيها حرف شين، لأنه يهين الألوهية».

من هو الملاك ـ طاووس إذا؟ إذا لم يكن يبدو على الشيخ أنه عالم لاهوتي، فهو مطَّلع على عقيدة طائفته: نُكرِّم الملاك ـ طاووس، لأنه مصدر كل ما يمكن أن يحلَّ بنا خيراً أم شراً، يوزِّع الملاك ـ طاووس، على هواه، الخير الذي يمسك به بيده اليمنى، أو الشر الذي يمسك به بيده اليسرى. ولأنه مصدر الشر أيضاً، فنحن نطلب رحمته؛ إذا أهملنا «طاووس» لن نتمكن أبداً من تجنب غضبه. لكننا إذا سايرناه، نربح السعادة في هذا العالم وفي العالم الآخر. زادنا هذا الكلام فضولاً. فأمطرنا الشيخ بأسئلة كثيرة، ولكن بكل هدوء:

هل عند اليزيديين كتب مقدسة؟ ما هي؟ هل صحيح أنهم يؤمنون بالقوى السحرية لبعض الإشارات؟

ـ نعم، أجاب الشيخ. يؤمن اليزيديون بقوة الدائرة. فإذا

رسمنا واحدة حول متشيِّع، فلن يستطيع الخروج منها، لأنَّ قوة غير مرئية تحتفظ به أسيراً. ورجال الدين وحدهم يستطيعون حل العقدة السحرية بسحرهم. ويتابع: يملك اليزيديون كتابين مقدسين لا يطّلع عليهما سوى المطّلعين، كتاب الجهونة الذي يؤكد قوة طاووس، والكتاب الأسود الذي يظهر أصول العالم.

ـ كيف تمكَّن الملاك ـ طاووس من أن يصبح المماثل للشيطان عند المسلمين والمسيحيين؟

ـ ذلك لأن الله غضب عليه ذات يوم، وحكم عليه بالنزول إلى جهنم حيث نجح بإطفاء نيرانها بفضل دموع توبته. لكن طاووس يبقى أفضل الملائكة، وهو الذي سيرجع إلى السماء في نهاية العالم؛ فيمنحه الله عندئذ المقام الأول.

في غرفة الضيوف، الأرض الترابية مغطاة بحصيرة كبيرة. وقرب الجدران مقعد عربي مغطى بالبسط والطراريح.

رافقنا الشيخ في اليوم التالي إلى معبد طاووس في عمق منخفض يقسِّم القرية إلى قسمين، حيث يُسمع خرير نهر يرتفع فوقه جسر ضيِّق على شكل ظهر حمار؛ ينتصب في الجهة الثانية بناء أبيض صغير، مغطى بقبة مقرنة، تحيط به ساحات عديدة تعلوها الظلال. جدران البناء المطلية بالكلس توحي بالسلام والصفاء. صففنا أحذيتنا بعناية إلى جانب الأحذية

الأخرى قبل دخولنا إلى الساحات الداخلية، ولكننا عرفنا أنه لا يمكننا الدخول إلى المعبد الذي يزين بابه نقش لطاووسين كبيرين. فقد اعترض مرشدنا على ذلك بحزم، لأنه يخشى حصول مشاكل مع اليزيديين وهو يرى أن المخاطر في كل مكان. إلا أن كرم ضيفنا مثالي. فمن المحرج أن نفسِّر له مشاكل علاقاتنا مع دليلنا، ورغم كل ذلك لم يبدُ أنه لاحظ ذلك خلال فترة بقائنا عنده.

رافقنا ذات يومٍ لزيارة شقيقه الذي يملك بضعة قطع من الأرض في الجبل، ويبدو أن هذا الأخير هو رجل ميسور لأن الفلاحين في الحقول جميعها يعملون لحسابه. تروي مياه الجبل أرضاً سمراء جميلة ويبدو القمح الذي ينبت فيها كثيفاً جداً.

شقيق الشيخ سيمو هو رجل منفتح ضخم ومرح، يجعلك مرتاحاً بسرعة. دار الحديث حول مواضيع مختلفة، لكن ما أتذكره بشكل خاص هو أن اليزيديين يؤمنون بالتقمُّص، هذا الاعتقاد الذي يشاركهم فيه الدروز لم يتأكد لنا بعد حتى الآن.

إذا كانت علاقاتنا مع اليزيديين حارة جداً فعلاقاتنا مع دليلنا وصلت إلى قمة السوء. فماذا يجري، هل جاءته إشارة من رؤسائه الذين يبلّغهم باستمرار تقريراً هاتفياً عن أعمالنا

وتحركاتنا؟ يجب أن يكون هذا الاهتمام باليزيديين قد أثار شكوكهم بأنه يخفي نشاطاً سرياً آخر، ووجودنا في جبل سنجار لم يعد مسموحاً به؛ فاستدعينا بفظاظة إلى بغداد، فشربنا المرارة حتى الثمالة. ودَّعَنا أصدقاؤنا بحزن. ربما سنلتقي يوماً؟ إن شاء الله!



الفصل الخامس

آخر معقل نسطوري في كردستان

جاك

لاقت زيارتنا إلى شمال العراق فشلاً ذريعاً: تعذَّر علينا دخول كردستان. فهل تقع مسؤولية ذلك على اندفاع دليلنا الجديد، أو أن القرار فُرض عليه من فوق؟

اضطرت «نيكول»، بالإضافة إلى ذلك، للعودة إلى أوروبا. وبقي عليَّ أنا وحدي مهمة زيارة مراكز الوزارات، بأمل إزالة سوء التفاهم هذا، والحصول أخيراً على الإذن بزيارة الأديرة النسطورية القديمة في الجبل، وتصوير رأس السنة اليزيدية.

تأخر الجواب في الوصول، فعدت إلى الانتظار أمام أبواب المكاتب. ولما طال الوقت، طلبت لقاءً جديداً مع شبلي العيسمي، رجل العراق القوي الذي بمخابرة هاتفية واحدة، حوَّل في الشهر السابق مهمتنا المتواضعة إلى إقامة جديرة بألف ليلة وليلة خلال الأسابيع الثلاثة الأولى على الأقل.

هنا تغيرت الظروف؟ وزير الإعلام يبدي معارضة لطلبي ولا يوافق إلا مرغماً؛ ها أنا للمرة الثانية أمام الرجل الذي يقرر مصائر العراق، فقد بدا متحفظّاً مهذباً وأقل حرارة من المرة الأولى. كما أنه أظهر حذراً عندما عرضت عليه أهدافي في كردستان. ففي العراق، يظهر أنهم لا يقدِّرون الذين يهتمون بالشيع والأقليات خاصة في اللحظة التي بدأت تظهر فيها أولى ضحايا الحرب الأهلية في بيروت. لماذا الاهتمام بهؤلاء الناس؟ سألني شبلي العيسمي بلهجة اللائم؟ فلا يوجد هنا سوى عراقيين عرب. أنظر بالمقابل ماذا يجري في لبنان مع الموارنة الذين يريدون تدمير الأمة العربية. أنظر ماذا جرى مع الصهاينة الذين اغتصبوا جزءاً من الأرض العربية، في حين لا نشكل نحن سوى أمة واحدة كبيرة من الخليج إلى المحيط. بدت خلفه خريطة كبيرة مشار فيها إلى الأمة العربية بمساحة واسعة خضراء من لون الإسلام، ولا تظهر البلدان الأخرى إلا كأقطار: عراقية سورية مصرية فلسطينية الخ... «إذا كنت تنجز عملاً علمياً فإننا على استعداد لنؤمن لك كل التسهيلات الضرورية». هذا ما لخصه شبلي العيسمي في نهاية اللقاء.

بعد أيام من الانتظار، جاء جواب الوزارة مختصراً: وهو رفض ميؤوس منه. إنهارت الأرض تحت قدميّ! كل هذا العمل التحضيري ينهار ببضع كلمات. بدا لي مستحيلاً أن يتمكن رجال لا أعرفهم أن يكونوا محقِّين إلى هذه الدرجة

ليقرروا أساس عملي. لم أتحمل هذا الانتقال من وضع مميز قبل شهر، إلى وضع أُصبح فيه فجأة منبوذاً وغير مرغوب فيه. بدأت منذ تلك اللحظة أشعر بتزايد الشكوك والعداوة، فليشرحوا لي على الأقل أسباب الرفض! فيرتاح قلبي وأتمكن من تبرير نفسي، لكنني كنت أصطدم بحائط من الصمت والتواطؤ. يأتي الرفض من الوزير... أقابل الوزير؟ مستحيل... أي وزير. سيجري ذلك في مكان رفيع... حوار بين أطرش وأعمى.

بعض العزاء: صديقي العراقي، كائن ذو انفتاح فكري هائل، وصاحب ثقافة واسعة، مثل الذين نلتقي بهم فقط في صفوف مثقفي الشرق الأدنى الذي يتمتع بتكوين مزدوج إسلامي ويوناني ـ كلاسيكي، يُكتسب غالباً عند الكهنة المسيحيين. يعرف صديقي طبيعة أبحاثي ويقدِّر قيمتها. أطلعني هو وعائلته، خلال نزهات طويلة، على العلاقة الحميمية بين خزف ما بين النهرين والانسياب الذي لا يُنسى لنهريه، بين المادة والزمن الذي يخلق الروح. كانوا جميعهم مأخوذين بالثروات الأساسية في بلادهم، تلك التي أعطت الصفحات الأولى لسفر التكوين، والأبراج، والمجوس وبيتاغور(*)، والمانوية ومسيحيي يوحنا المعمدان، والنسطورية

(*) راجع الملحق.

والشيعية. هل كان صديقي شيعياً أم سنّياً أم نسطورياً أم مسيحياً سبئياً(*)؟ غير مهم! لأن هذا يعنيه وحده، ونحن لم نتكلم عنه أبداً. لكنني أعرف أنه عاش ردحاً من الزمن فترة السرية وأن بريطانيا حكمت عليه بالموت، وأن النظام البعثي قد لاحقه.

جَمَعَنا غداءٌ أخير عنده في ضواحي بغداد، إنها حفلة الوداع، فالجوّ حزين وثقيل. فجأة نظرت ابنته إليَّ بتركيز كما لو أن هناك سراً في قلبها، ثم توجهت إلى والدها العجوز قائلة:

«والدي، إذا سمحت، إنني أرغب مكاشفة ضيفنا بالحقيقة».

ـ قولي ما تعرفين. أجاب الأب.

ـ قالت الفتاة عندئذ. أنت في خطر. جاء صديق ينبهني وقد رأى في الوزارة تقريراً عنك. كُتب فيه أنك عملت في إسرائيل. هذا هو السبب الذي من أجله مُنِعْتَ عن التصوير. نحن أيضاً نخاطر باستقبالك عندنا؛ غادر البلاد بأقصى سرعة...»

عزّزت عندي هذه المسارّة فكرة المخاطرة بكل شيء في سبيل كل شيء: السنة اليزيدية الجديدة بعد ستة أيام وليس

(*) مسيحي من أتباع يوحنا المعمدان. راجع الملحق.

بعيداً عن الحدود التركية. إنه آخر حظ بلقائهم، وكذلك بلقاء نسطوريي كردستان.

سأذهب إذاً وحدي، ثم آخذ مباشرة طريق الحدود التركية دون العودة إلى بغداد. لن أخبر أحداً، بل على العكس، سأشيِّع أنني سأزور، كسائح عادي، الأماكن الأثرية في الشمال: «آشور ونمرود ونينوى وخرسباد». ولكي أوهمهم بالعودة إلى بغداد، احتفظت بغرفتي في الفندق حيث دفعت حسابها مسبقاً. وها أنا في طريقي نحو المجهول.

مرحلتي الأولى على مسافة حوالى مئة كيلومتر من بغداد هي سامراء، مدينة صغيرة هادئة، وعاصمة سابقة لسبعة خلفاء عباسيين. عاش هنا منذ 11 قرناً أكثر من مليون شخص، وها نحن لا نرى الآن سوى الصحراء... لم يبقَ من تلك المدينة الواسعة، ومن قصور الخلفاء الـ «24»، ومن الجوامع التي لا تحصى، من كل هذه الثروة سوى بحر من الركام الشاهد، حيث تبرز مستطيلات من الأرض وساحات قصور قديمة، وجوامع قديمة أو حانات قديمة. نجتاز عشرة، عشرين، ثلاثين، أربعين كيلومتراً من الصحراء ويسبقك دائماً ويرهقك مشهد حياة منهارة مطمورة في الغبار. فجأة يبرز السراب؛ برج محاط بجدران من القرميد المشوي، هذا البرج الباقي في هذه العزلة بأعجوبة هو مئذنة لولبية، هندسة نموذجية للحكم العباسي، والذي يبدو أنه يخلِّد الأبراج

السومرية والبابلية القديمة، تلك الصلة بين السماء والأرض. إن القديم استوحى من هذا البرج دون شك ـ بناء على شهادة مسافرين في زمانه ـ ما يساعده على رسم اللوحة التي تمثِّل برج بابل.

إن قِبة مِئذنة جامع «الملوية» هي أشهر مئذنة لولبية، ارتفاعها خمسون متراً، أما الجامع الذي لم يبقَ منه سوى الجدران، كان بإمكان مئة ألف مؤمن أن يصلّو فيه فهو أعظم جامع في العالم الإسلامي(بناه عام 850 الخليفة ابن هارون الرشيد. تشاهد المدينة الخيالية الواسعة من أعلى مِئذنة، ويُرى في البعيد لمعان قِبب جامع، فهناك يرقد الإمام الشيعي الحادي عشر «أبو محمد حسن» الذي توفي في عام 874. في باحة الجامع درج يؤدي إلى سرداب حيث اختفى الإمام الثاني عشر «أبو قاسم» منذ ألف سنة. وفي قبر محمي بشبكة جميلة من الخشب المحفور، في قعر حفرة مغطاة بمربعات السيراميك المزيَّنة بإتقان، يشيخ رجل تقي وينتظر عودة الغائب.

المرحلة الثانية، الموصل وهي آخر مدينة في السهل قبل الصعود إلى كردستان. تحتل هذه المدينة منذ الفتح الإسلامي، المكان الذي تركته نينوى المدينة الملاصقة لدجلة. الجمهور الذي يتسارع إليها متنوع، وليس من السهل أن نتعرَّف في هذا المد البشري، من خلال العادات والهيئة

الجسدية، إلى النماذج المختلفة للمجموعات الاثنية التي جمعها التاريخ هناك: بدو الصحراء، وعرب السهل، والأتراك الباقون بعد توقيع المعاهدات، وأكراد جبال زاغروس، واليزيديون، والنسطوريون المتحدرون من السكان الآشوريين، ينزلون كل صباح من أحيائهم المختلفة فيملأون الأسواق والشوارع الضيقة في المدينة القديمة. ينشطون طيلة النهار في حوانيتهم ومحترفاتهم التي تحيط بمياه النهر الموصليَّة. فهم نحَّاسون وإسكافيون وفخَّارون وصاغة ونسَّاجون وباعة فاكهة وحملة مياه... تحتكر كل إثنية نشاطاً ما مربحاً. وفي المساء، تجدهم في المقاهي المنوَّرة يجلسون على بنوك من قش مجدول، يدخنون الشبُّوق والنرجيلة، ويشربون القهوة أو الشاي في ضوضاء طاولة النرد المزعجة.

توجهت نحو الحي المسيحي بحثاً عن دليل يستطيع إرشادي إلى بعض الأديرة النسطورية أو الكلدانية في الجبل. الحي المسيحي في الموصل هو ككل حي صغير: تتلاصق في شوارعه الضيقة ومنازله المحصَّنة عائلات نسطورية وكلدانية وسريانية أرثوذكسية وكاثوليكية مجمعة حول كنائسها الخاصة.

ندخل مع النسطوريين والسريان بدون صعوبة في النزاعات الدينية للكنيسة البدائية التي أدَّت إلى البدع الكبرى. إن ما يهمنا في هذه اللحظة البدعة النسطورية التي تطورت في أرض

ما بين النهرين الخاضعة لسلطة الملك الساساني، إلى أن أصبحت الكنيسة الرسمية، الكنيسة الوحيدة المعترف بها من الملك المعارض للإمبراطورية البيزنطية. وهكذا تأسست سلطة الكنيسة النسطورية خارج الإمبراطورية الرومانية، وقد سميت أيضاً الكنيسة الفارسية النسطورية. وبدون هذه الإرادة الشكلية لملك الملوك الذي أيدها الإكليروس المحلي بمعارضة كل ما كان يحدث في بيزنطية. كان من المحتمل ألّا تكون تسمية الكنيسة النسطورية مرادفاً للكنيسة الفارسية وألّا تكون النسطورية سوى عقيدة خاطئة، بل واحدة من البدع المختلفة للمسيحية البدائية التي لم تترك أثراً إلّا في كتب التاريخ الكنسي واللاهوتي.

أصول الكنيسة النسطورية

ليس هناك أية وثيقة تحدد بدقة متى وكيف، أدخلت المسيحية في الإمبراطوريات السريانية والفارسية والبارتية. ولدت الكنيسة النسطورية رسمياً على انشقاق نسطوريوس بطريرك بيزنطية في القرن الخامس الذي كافح في البدء ضد الأريوسيين ثم خلق عقيدته الخاصة حول دراسة المسيح. عارض المدرسة الأنطاكية في تعبير تيوتوكوس أم الإلّه الذي يعبِّر عن الأمومة الإلّهية للعذراء مريم، لأنه يرفض الاعتراف بها كأم الله. وفضَّل عليه تعبير كريستوكوس أم المسيح الذي

يعبِّر عن الطبيعة البشرية أكثر مما يعبِّر عن الطبيعة الإلّهية ليسوع المسيح «الذي يسمَّى تيوفوروس باب ـ الله».

أدان مجمع أفسس عام 431 هذه العقيدة الملحدة، واعتقل الامبراطور نسطوريوس الذي رفض الحضور ونفاه؛ فخلق أنصاره كنيستهم الخاصة «خارج الإمبراطورية» التي امتدت في بلاد الفرس وآسيا الوسطى والهند وحتى الصين. لكن هذه الرواية التاريخية لا تتطابق مع وجهة نظر النسطوريين، فقد أخبرني مار «نارسي» الأسقف السرياني في بيروت، أن الشعب الآشوري كان قبل الانقسام النسطوري بزمن طويل يتبنى هذه الموضوعة العقائدية، إلا أنه منذ تحول أبكير الخامس، آخر ملك سرياني في القرن الثالث على يد مُبشِّرين هما «الدي» و« ماري»، تبنى السريان الاعتقاد بأن المسيح هو في الوقت نفسه إلّه وإنسان؛ لكن العذراء مريم ليست سوى أم الإنسان وليست أم الإلّه. وعندما عُيِّن نسطوريوس بطريرك بيزنطية تبنى وجهات نظر السريان العقائدية، مما أثار خلافاً مع القديس «سيريل» بطريرك الإسكندرية. ثم سُميت الكنيسة السريانية الشرقية خطأً الكنيسة النسطورية.

إن النساطرة يعرفون بثقة تاريخ كنيستهم: يعود أصل كنيستهم إلى القرن الأوّل للمسيحية، إلى يوم ابتعد الرسل عن

القدس لينشروا الإنجيل. ويؤكدون أن القديس «توما»(*) هو الذي أعطى الرسولية للكنيسة الفارسية ولمعتقداتهم. وتشير الكتابات القديمة المنسوبة إلى «أوريجين» أن حصة «توما» عندما توزَّع الرسل، كانت «بارتيا»؛ لا عجب في أن يكون نشر الإنجيل قد بلغ الهند عندما نعرف أن الأمراء البارتيين كان يمتد حكمهم حتى هندستان؛ ويجري حالياً تعداد المجموعات النسطورية والكلدانية(**). على شاطىء مالابار، أهداهم القديس توما نفسه وهم يعيشون تحت السلطة الروحية لبطريرك مالابار، أهداهم القديس توما نفسه وهم يعيشون تحت السلطة الروحية لبطريرك بابل مار بولس شيخو المقيم في بغداد. في نهاية القرن الثامن أكد البطريرك الكبير تيموتاوس الأول من أجل مساندة نظرية العذراء أم المسيح وليس أم الله، أقدمية كنيسته، واضعاً، نشر الإنجيل في المرحلة الرسولية، في نص نود لو أمكننا تبرئته من مفارقة تاريخية قوية: «لأننا كنا نملك المسيحية قبل ولادة نسطوريوس بخمسمئة سنة تقريباً، حوالى العشرين سنة بعد صعود سيدنا إلى السماء».

(*) راجع الملحق: القديس توما.

(**) الكلدان: مسيحيون نسطوريون اعترفوا بسلطة روما. يسمونهم المسيحيون البابويون.

النسطوريون والساسانيون

على كل حال، فالكنيسة المسيحية قد تطورت وتنظمت في بلاد الفرس تحت سيطرة الساسانيين. وتبقى هذه المرحلة التي انتهت مع الفتح العربي عام 632، رغم كل شيء، صفحة من التاريخ غير المعروفة جيداً. سأحاول عرض ما هو أساسي منها.

تتميز بالشخصية الرئيسية ملك الملوك الذي كانت سياسته الموجهة ضد سلطة بيزنطية تقضي باستخدام الديانتين الرسميتين للإمبراطورية النسطورية والزرادشتية(*). فبمسايرة النسطوريين، سعى البلاط الملكي إلى الحصول على ولائهم، لأنهم رغم الخلافات العقائدية، كانوا يكرهون مقاتلة مسيحيين آخرين ويشكلون حليفاً بالقوة لإمبراطور بيزنطية. هبَّت أول عاصفة على المسيحية الفتية الخاضعة لملك الملوك يوم انتصرت المسيحية في الإمبراطورية الرومانية مع قسطنطين. كانت لا تزال المسيحية موحدة في تلك المرحلة، لأن البدعة النسطورية لم تبرز إلا بعد قرن. فرأى شهبور الثاني في الانتصار السياسي للمسيحيين خطراً على بلاد الفرس، وعلى ديانته الخاصة الزرادشتية، فأجبر عندئذ

(*) راجع الملحق: الزرادشتية.

كاثوليكوس كيليكيا، «سيمون بار السباعي»، أن يفرض على رعيته ضريبة أعناق مزدوجة كمساهمة في المجهود الحربي ضد بيزنطية. رفض الكاثوليكوس ذلك فاقتيد مكبلاً بالسلاسل إلى حضرة الملك حيث طُلب منه السجود له، وتقديم التكريم الإلّهي للشمس، فرفض؛ فحُكم على «سيمون» بالموت مع مئة أسير أكليريكي من كل الرتب. إن هذه الحادثة الدموية افتتحت مرحلة طويلة من الاضطهاد انتهت مع قدوم يزديجير عام 399، إذ تعهَّد هذا الأخير بحسن معاملة المسيحيين. فأقام مرحلة سلام بين الإمبراطوريتين كما سمح يزديجير لنفسه بالقيام بدور الحامي للمسيحيين الشرقيين بشكل يخرجهم فيه من إطار النفوذ السياسي لبيزنطية، لدرجة أن المجوس الذين وجدوه غير متعاطف كما يجب مع الدين الزرادشتي، وصفوه بالخاطىء والزنديق.

عندما صعد نسطوريوس، حوالى عام 420، إلى العرش البطريركي في بيزنطية افتتح يزديجير مرحلة من الاضطهاد، بتأثير المجوس المستائين من رؤية البلاط يميل إلى المسيحيين، ومن الأشراف الذين تحولوا إلى النسطورية، فتذرَّع يزديجير بهدم أحد مذابح النار بتحريض أحد الكهنة في «هورميز دردازير» لكي يأمر بهدم الكنائس ونفي المسيحيين.

إلا أنه عندما اعتنق المسيحيون رسمياً البدعة النسطورية في سينودس خلقيدونيا عام 484، خفّت الملاحقات. ففي هذا

السينودس بالذات تأكد الإذن المعطى لكل أعضاء الإكليروس من البطريرك حتى آخر واحد في التراتبية «لعقد زواج طاهر مع إمرأة واحدة ليمارسه وليلد أبناء». وهكذا نشهد تكون سلالات بطريركية حقيقية. ولا تزال الكنيسة النسطورية، حتى اليوم، الكنيسة الشرقية الوحيدة التي تسمح بزواج ثانٍ للكهنة الأرامل.

منذ تلك المرحلة، بدأت الكنيسة خارج الإمبراطورية الرومانية تتطور في إطار مغلق، بعيداً عن الحياة المشتركة للكثلكة. واحتفظت بفضل هذا الانعزال بعادات وطقوس بدائية، لا نجدها في أي مكان آخر، وستكون لي مناسبة اكتشاف أديرتها في آخر المعاقل النسطورية في كردستان.

النسطوريون والنبيّ محمد

لم تنجُ الكنيسة الشرقية، وقد أصبحت الكنيسة القومية لبلاد الفرس، من دورات الملاحقات الدموية حتى سقطت المدن الملكية، في صيف عام 637، بين أيدي المسلمين. واتخذ الفاتحون العرب وجه المحررين بالنسبة لمسيحيي ما بين النهرين وبلاد الفرس، المعرضين باستمرار لاعتباطية المجوس الزرادشتيين وأهواء الملوك. وشكك الساسانيون بأن يكون مسيحيو إمبراطوريتهم متواطئين وجواسيس للبيزنطيين؛ وها هم يتحولون عفوياً إلى مساعدين للعرب. والميثاق الذي

أعطاه النبي (ص) بذاته للسريان يبين هذا التواطؤ. فيزعم النسطوريون، بالفعل، أن البطريرك إيشوباواي التقى عام 628 بمحمد (ص) الذي أعطاه رسالة للسريان، تمنحهم حرية العبادة، والحماية. احتُفظ بهذه المعاهدة المكتوبة على جلد ثور في كنيسة سريانية قديمة في تركيا، «مار زايا»، حتى عام 1915، تاريخ تدمير الكنيسة من قبل الأكراد. وصحيح أن العرب حاولوا باستمرار خلال غزواتهم الأولى أن يستميلوا إليهم أهل الكتاب مسيحيين ويهوداً. لقد وجدوا أنفسهم في هذه الأثناء - في بلاد الرافدين - في ظروف مؤاتية: المسيحيون كانوا آراميين بأكثريتهم، أي ساميين مثلهم، بينما الزرادشتيون كانوا من الفرس يختلفون عنهم باللغة وبالطباع الإثنية. فتحمَّل هؤلاء مصاريف الغزوة العربية، ولاحقوهم بعنف بمباركة النسطوريين بينما تحسَّن حال هؤلاء. ومنحهم الإسلام صفة ذميين، أي مواطنين محميين يخضعون في بعض الحالات إلى الإهانات بدلاً من الملاحقات الفعلية.

إنتقل مركز العالم الإسلامي بعد تحوله من المدينة إلى دمشق، إلى بلاد الرافدين لبضعة أجيال، فأصبح الكاثوليكوس موظفاً بفعل اعتراف الحكومة بسلطته على المسيحيين، يتبع الخليفة العباسي في عواصمه المتتالية بغداد و سامراء. ثم أن تطوير الإدارة فرض الاستعانة بالمسيحيين الأوسع ثقافة وتعلماً من أبناء الصحراء. كل الأطباء وعلماء الفلك

والفلاسفة في بلاط المنصور أو هارون الرشيد كانوا من المسيحيين. تستعين بهم الطبقة الحاكمة والمثقفون العرب لترجمة كل ما يعرفون عن العصور القديمة. وهكذا أدوا للإسلام الخدمة الجلّى بنقلهم الإرث العلمي والفلسفي اليوناني إلى العرب، حيث نقله العرب بدورهم إلى الغرب اللاتيني عبر إسبانيا. وقد علّم عدد من اللاهوتيين النسطوريين في جامعة قرطبة، وليس سراً على أحد، أنَّ طلاب كلية مونبليه في القرون الوسطى، كان عليهم درس اللغة العربية لقراءة مؤلفات أبو قراط. وقد أسهم النسطوريون ـ بسبب وجود مركزهم الإكليريكي في عاصمة الخلفاء، في القرنين الثامن والتاسع ـ، بالحركة الثقافية الهائلة التي كانت بغداد مركزاً لها، وقد برز هذا الإسهام حتى في الميدان الديني، إذ لا شك أن التنسّك النسطوري كان له تأثيراً كبيراً على بعض أشكال التديُّن الإسلامي كالصوفية مثلاً، التي سأقودكم إلى اكتشاف أحد أغنى أوجهها وأكثره غموضاً عند دراويش تركيا.

لنعد إلى المغول الذين دخلوا بغداد عندما قام هولاكو عام 1258 بمجزرة المسلمين الكبرى موفراً الطائفة النسطورية وحدها. لقد استلهم هولاكو دون شك من زوجته المسيحية «دوكوز خاتون» التي أقنعته فيما بعد بإرسال جيش إلى سوريا وفلسطين لكي يحرر الأماكن المقدسة من السيطرة الإسلامية،

ففشلت هذه الحملة المغولية التي قادها جنرال مسيحي قرب القدس في 3 أيلول/سبتمبر عام 1260 في معركة عين جلوت.

هل استقبل المغول المبشرين النسطوريين؟

إنضم بالفعل عدد من الكهنة، منذ القرن الرابع إلى قوافل الحرير، ودخلوا أعماق آسيا الوسطى بين قبائل الرحَّل وشبه الرحَّل التابعة إلى العرق الألتاييكسي: «أتراك»، «تتر»، «هون»، «مغول». كثيرة هي النكات عن هذا الوجود، أما أكثرها تعبيراً فيبدو أنها نكتة ألوف الجنود الآسيويين التابعين للملك بهرام تشوبين الذين أسرهم ملك الفرس كسرى الثاني عام 590، كل هؤلاء المقاتلين كانوا موشَّمين بصليب على جبهتهم. هل هم مسيحيون حقيقيون أم وثنيون يعتبرون أن للصليب قيمة وقائية؟

تعود نصرنة آسيا الوسطى إلى تيموتاوس الأول الذي تابعه بشكل منتظم حتى بلغ منغوليا. وقد نجح في نصرنة ملك الأتراك مع كل شعبه تقريباً: كانت سمرقند في تلك المرحلة مركز أسقفية.

ولقد فشلت نصرنة الشعب التركي، مع الأسف، بسبب تدخّل المبشرين اللاتينيين في شؤون الآخرين. بينما النسطورية المتأصلة منذ أجيال، تمكنت من أن تتجذر هناك

بوصفها ديانة آسيوية، وبدت الكثلكة الرومانية على عكس ذلك ديانة للأجانب والغزاة. بالنسبة للأتراك، لم يكن المبشرون اللاتينيون سوى ممثلين للإمبراطورية العدوّة، إمبراطورية البيزنطيين والفرنجة. ومنذ تلك الفترة اتجه الأتراك بالجملة نحو الإسلام الحامي الذي عرف كيف يبشر بالدين باسم النبي محمد (ص)، ضد الغرب المسيحي، وهكذا، فإن إخلاص حفنة من المبشرين اللاتينيين كانوا يحاربون النسطورية بدل من التبشير باللاتينية، مما ساهم في تغيير مجرى التاريخ إلى الوقت الذي استولوا فيه على القسطنطينية وبدأوا يهددون أوروبا وهم على أبواب فيينا(*).

أما من جهة منغوليا البعيدة، فلم يقف المبشرون النسطوريون مكتوفي الأيدي. ففي عام 1007 أصبح الكاريتيون مسيحيين بالجملة في ظروف تُذكر باهتداء «فرنجة كلوفيس» بعد معركة «ترلبياك». ووصل عدد سكان «عبد يزو» عاصمة «مرف» إلى 200 ألف نسمة. كان ذلك في نفس المرحلة التي اهتدى فيها الأنفوت المتمركزون على مجرى النهر الأصفر الكبير، وهم حراس ممرات الصين باتجاه منغوليا. وقد حطم جانكيزخان قوة الأسر المالكة الكاريتية والأنفوت عندما أقام الاتحاد المنغولي بالقوة. لكن عدداً من

(*) راجع الملحق: الناظرة في الهند والصين.

الجانكيزخانيين تزوجوا من أميرات «كاريتيات» واعتنقوا معهنَّ الدين المسيحي.

وهكذا يفسَّر النفوذ الكبير الذي اكتسبه النسطوريون في مجلس كبار الخان وأمراء عائلاتهم، حيث كانوا وزراء وكتَّاباً. ونعرف منذ ذلك الحين كيف كان الأمراء المغول متعاطفين مع المسيحيين ومع النسطوريين بشكل خاص، وذلك بتأثير من مستشاريهم وأميراتهم.

ونشر مسيحيو بلاد الفرس دينهم بصورة واسعة؛ جاء يوم كانوا فيه سعداء، إذ أصبح في 2 تشرين الثاني/نوفمبر عام 1281، مارك الأنغوتي، أحد القادة المتحدّرين من تلك المناطق البعيدة، الكاثوليكوس الجليل لكنيسة سلوقيا الكبيرة، واسمه «يهب الله» الثالث. إن وصول مغولي إلى رأس المسيحية الشرقية لهو حدث يفوق العادة؛ وخلال مدة وجوده على رأس السلطة المسيحية سُجّلت ـ على الأرجح ـ المرحلة الأكثر ازدهاراً للكنيسة النسطورية التي تطورت خلال ما يقارب نصف القرن في ظل السلطة المغولية، حتى المرحلة التي أغرقها فيها بشكل وحشي، تحمُّس تيمورلنك لصالح الإسلام، حيث لم يحتفظ التاريخ عملياً بأي شيء من تلك المرحلة فكل ما احترمه العرب والمغول أو شجَّعوه، زال بشكل نهائي. وأدَّت فوضى الشيعيين وتعصبهم إلى زوال طوائف نسطورية عديدة.

وهكذا انتهت ـ في الصمت والمأساة ـ مأثرة النسطوريين الكبيرة التي سيكتشف المبشرون اللاتينيون بقاياها بعد قرنين، وقد تحولت إلى بضعة قرى في سهل ما بين الرافدين وجبال كردستان. وحتى أيامنا هذه، بقيت كردستان القلعة المنتزعة من الكنيسة النسطورية. ومرة جديدة إذاً يصبح طين ما بين الرافدين كفناً للحضارة تلك التي لعبت دورها كاملاً خلال عدة عصور: الرابط ما بين الشرق والغرب، ومركز التبادل على الطريق الشهيرة في تجارة الحرير، أطول طريق في العالم وأبطأها، عشرة آلاف كيلومتر كطريق للقوافل.

إن التجارة هي التي تثبت مثل هذه المغامرة، وكذلك، في نفس الوقت، التبادل التجاري الذي كان يروِّج للأفكار الجديدة، والتطورات التقنية، والاكتشافات الكبيرة، والديانات الجديدة بفضل المبشرين. وبمعنى ما، فإن الآلهة، من أثينا إلى بكين، هم الذين أثَّروا بالباعة. ومنذ أيام القديس توما كان المبشرون الآشوريون دائماً على رأس تلك القوافل. «اجتاز الكثيرون البحار والأراضي باتجاه الهند و الصين، حاملين العصا والخرج فقط». كما كتب البطريرك تيموتاوس الأول في بداية القرن التاسع. دمَّرت الحروب شيئاً فشيئاً طريق تجارة الحرير. وعندما روى ماركو بولو في القرن الثالث عشر في كتاب العجائب ما رآه، اعتبروه كاذباً. مع ذلك، استمرت عمليات التبادل فترة طويلة قبل أن تمتزج

الثقافات بعضها ببعض، وتؤثر المعتقدات بالتبادل. تأثرت البوذية قبل المسيح ـ بالفلسفة اليونانية، وبالمقابل، تأثرت هذه الأخيرة بعلم الأخلاق البوذي بعد مغامرة الإسكندر. وفيما بعد، كانت ثنوية الزرداشتية الخاصة هي قاعدة المذهب المانوي، ومن خلال طريق الحرير امتدت المانوية باتجاه الغرب، وقد نقلها مسيحيون نسطوريون وسريان ناشرين البدع البوليسية[1] (Paulicienne) والبوغوميلية[2] (Bogomile) وأتباع فالدو[3] (Vaudoise) والأنقياء[4] (Cathare). وباتجاه الشرق الأقصى انتشرت في آسيا الوسطى، في واحات طُرْفان، قبل أن تنحدر باتجاه الجنوب وتدمغ ببصماتها علم الأخلاق الكونفوشيوسي. وهنا كانت المساهمات الكبيرة لكنيسة ما بين النهرين، صلة الوصل بين الشرق والغرب، وبشكل ما، سفير الغرب في الشرق.

محاولة اتحاد مع روما

في القرن السادس عشر، قدَّم ما تبقى من الطوائف

---

(1) راجع الملحق.
(2) راجع الملحق.
(3) راجع الملحق.
(4) راجع الملحق.

النسطورية إلى المبشرين الرومان صورة لمجتمع في انهيار كامل: أصبح مركز الكاثوليكوس وراثياً، وقد شهدوا أيضاً نشوء سلالتين بطريركيتين متنافستين؛ تكرَّس بعض الأبناء أساقفة، بينما كانت المؤامرات تُقسِّم الإكليروس. وباسم الاتحاد استفاد موفدو روما لاستعادة بعض الرعيات هنا وهناك، ووطدوا أسس الكنيسة الكلدانية المتحدة مع روما، مضعفين أكثر فأكثر الشعب النسطوري ـ الآشوري الذي حاول بيأس أن يعيد تشكيل ذاته كأمة.

لكن من خلال حماستهم وتصلبهم، جذب المبشرون الرومان إلى أنفسهم عداوة قسمٍ من النسطوريين، أو نجحوا في استعداء قسمٍ على القسم الآخر. ومن جهة الإدارة الرومانية فقد كانت تسعى إلى نشر الطقوس اللاتينية أكثر مما كانت تسعى إلى الحفاظ على الطقوس الشرقية. بينما من الجهة النسطورية فقد قبلوا بصعوبة بالتخلي عن صيغة مريم أم المسيح، بصيغة مريم أم الله، وكذلك عن الإسم المحروم لنسطوريوس. ونسطوريوس الذي لم يكن مع ذلك شيئاً في التبشير بالإنجيل، كان قد أصبح رمزاً للأمة التي لم يرد مسيحيو ما بين النهرين و كردستان التخلي عنه. وفي الهند، كان وضع النسطوريين أكثر مأساوية لأن التفتيش البرتغالي كان يسيطر عليهم.

وهكذا حدثت خلال عدة عصور، ظواهر اهتداء وعودة

إلى العقائد القديمة. وما من شيء أكثر دلالة على ذلك من علاقة مهمة الراهبين الفرانسيسكانيين، فرانشيسكو كواريسمينو وتوما الملاني لدى البطريرك إيليا التاسع، عام 1629، والمحفوظة في الفاتيكان: «لقد أظهر (البطريرك)، بدون مواربة، كم كان بعيداً عن الحقيقة الكاثوليكية، لأنه بعد أن قال بأن إيمانه كان نفس إيمان الرومانيين، وقد أرسل هذا القرار عدة مرات إلى روما وجرى التصديق عليه، أضاف بأنه يتمسك بحزم بأن مريم لم تكن أم الله، بل أم رجل عادي، وأن هذا الإيمان الذي دعمه البطاركة أسلافه، كان وسيبقى، إيمان شعبه. لأن كل الفلاحين البسطاء سيرفضون التضحية بهذا الإيمان ولو مقابل كل ذهب العالم، وحتى لو تقطعوا إرباً إرباً. وأضاف إيليا التاسع أنه لو افتخر بعض النسطوريين بولائهم لروما، فذلك فقط، بواسطة الفم وليس من عمق قلبهم، مراعاة لمصالحهم الزمنية. وعندما رجعوا إلى بلادهم عاشوا مجدداً الإيمان النسطوري وماتوا وهم عليه.

فقط في المناطق الواطئة، بصورة خاصة، وفي سهل الموصل ووادي دجلة، استطاعت الكثلكة الكلدانية أن تعمِّق جذورها، بينما بقي الجبل صعب الاختراق بسبب الصعوبات المادية وضعف السلطة القائمة. ومن المعروف أنه في البلاد الإسلامية يشكل أعضاء الطوائف المسيحية أمماً تتمتع ببعض الامتيازات السياسية. وكذلك كان الأمر بنظر الأتراك بالنسبة

لنسطوريي السهل، لكن سكان الجبل وجدوا أنفسهم مندمجين بالحياة الإقطاعية للقبائل الكردية؛ وكان البطريرك النسطوري، حتى الحرب العالمية الأولى، في رتبة رئيس اتحاد القبائل. والاعتناقات الدينية الفردية، في مثل تلك الظروف، أصبحت مستحيلة تقريباً: يجب أن تعتنق الدين قرية بأسرها، ويؤدي مثل هذا الاعتناق، دائماً تقريباً، إلى تفكك مجموعة سياسية، وهذا يعني الحرب في تلك المناطق القاسية. وكان النسطوريون، المحاطون بالأعداء، بحاجة للحفاظ على وحدتهم السياسية والعسكرية.

مهَّد انقسامهم لمجازر سعَّرتها الحملات السياسية التي قامت بها إنجلترا وروسيا. وتحت غطاء البعثات، سعت الدول العظمى لكسب النسطوريين، لكي تخترق، بواسطتهم، مناطق تركيا الآسيوية حيث بذلت جهدها لبسط سيطرتها. وذاقت الأمة النسطورية الأمرَّين في الأعوام 1914 ـ 1918، من خلال تآمر الأموال البروتستانتية والمؤامرات الأرثوذكسية الروسية، وليست اليوم سوى ظل فحسب. ومنذ تأسيس العراق في عام 1919، استسلمت لوصاية الكنيسة الإنجليزية حيث ـ حسب قول أحد ممثليها فيما بعد ـ: «ضاعت هذه الكنيسة القديمة المستقلة في الفرع البابوي، مما وضع حداً نهائياً لتاريخ عريق لأمة بدأت منذ أيام ابراهيم».

طقس مسيحي بائد في الموصل

لم أستطع إلا أن أحلم بكآبة بهذا التاريخ العريق لهذه الكنيسة التي أبدت فيما مضى مثل هذه القوة في الانتشار، عندما أرى اليوم الحالة البائسة لمؤمني منطقة الموصل ورهبانها. بعد أن علّمت الفاتحين العرب عناصر الحضارة، والآداب والفلسفة والفيزياء وعلم الفلك والطب، حملت الثقافة مع الدين المسيحي إلى شعوب البدو الرحّل في آسيا الوسطى. فقبل أن اعتنق الأتراك الدين الإسلامي، وراحوا يهددون غربنا المسيحي، كان عدد كبير منهم قد تعلّم الإنجيل بواسطة الرهبان؛ وكذلك المغول الذين أصبح «خاناتهم» أسياد العالم الآسيوي، مالوا ردحاً من الزمن إلى تلك المسيحية.

مسيحية بائدة إذا صحَّ القول، في زمن كانت فيه مناطق مسيحية أخرى تغرق في البربرية، كانت تسطع بإشعاعها وغنى مؤسساتها. وبقي لنا من كل ذلك شاهد أخير من خلال التقاليد المحتفظ بها منذ ألفي سنة والتي تظهر في طقس مؤمني الموصل وشعائرهم الدينية.

في كنيسة معتمة، لا تترك هندستها الرائعة أي شك حول مصيرها الثاني ألا وهو حصن الاحتماء في مرحلة الاضطرابات، ها أنذا، في يوم الأحد هذا، في واحد من

الأماكن النادرة في العالم، حيث يمكنني أن أشاهد الطقس المسيحي القديم الفارسي، مزامير وترانيم تملأ الكنيسة. بالنسبة لمستمع غربي، كان ذلك خليطاً من الأصوات جميلاً. كل واحد يرتّل بأعلى صوته دونما اهتمام بجاره. ومن حين إلى آخر، يرتفع صوت حاد ويطلق ثلاث نغمات أو أربع شبيهة بالصراخ. إنه مرتِّل الجوقة المكلَّف بتحديد الكلمات الأولى والنغمات الأولى لترنيمة جديدة.

شمَّاس يجوب صفوف المؤمنين يمرجح مبخرة تتصاعد منها نفثات دخان كثيفة. يتصاعد دخان البخور الحلزوني مخترقاً أشعة الضوء ثم يختفي في العتمة، فيعطِّر المؤمنون أيديهم به، ويمسحون وجوههم وهم سائرون.

أخيراً يدخل الكاهن إلى الكنيسة متقدماً بخطى وقورة، ليصل أمام إنجيل مركَّز على هرم خشبي، على مسافة بضعة أمتار من بساط مزيَّن بزخارف صليبية الشكل، وهو الموضع الوحيد الملوَّن. يسجد، وركبتاه على الأرض، تلمس جبهته بلاطة الحجر، وينهض على مهل، ثم يُقبِّل جلد كرسي الإنجيل الفضية. عندئذ ينفصل البساط عن المذبح المنزوي تحت بناء متماسك سميك بشكل قِبة تسندها أعمدة صغيرة حلزونية الشكل، فيقلِّد الحضور حركة الكاهن ويسيرون بدورهم أمام كرسي الإنجيل؛ الرجال أولاً ثم النساء. ومشت امرأة عجوز في أول الصف، ببطء أقصى، ووصلت الأخيرة

من بينهم. لم تستطع بمثل عمرها الطويل أن تسجد فاكتفت بلمس الأرض بيدها، ثم مسحت بها جبينها باحترام، واقتربت من المصلوب وقبلته ولامسته بيدها مرات عديدة.

قبل تناول القربان المقدَّس، قرأ الكاهن على الشعب قانون الغفران العام، لأن الاعتراف السماعي لم يعد في الممارسة. أثناء ذلك، كان الحضور ساجداً على ركبتيه يضرب بقبضته على صدره. وعندما حان وقت المناولة، اقترب الكاهن، برفقة الشمَّاس، يحمل الأول صينية عليها عدد كبير من قطع الخبز، والثاني يحمل كأساً عريضاً مليئاً بالنبيذ. وفي نفس الوقت، يبدأ المتناولون بالتقدم بمظهر تقي وورع.

يتوقف كل مؤمن أمام المبخرة المدخِّنة، يعطِّر يديه بالبخور ثم وجهه وصدره، ثم يصل أمام الكاهن فيقبِّل يده. واحد بعد الآخر، يمدون كفَّ يدهم اليمنى التي تشد عليها اليد اليسرى. يضع الكاهن فيها قطعة الخبز التي يمتصها المتناول وهو يمسح يده بلسانه ثم يمسح بها جبينه. ويتقدم أمام الشمَّاس يقبِّل كمَّ قميصه، ويشرب من الكأس، ثم يمسح فمه بمنشفة، ويعود إلى مكانه واضعاً يده على شفتيه.

يفضِّل بعض المؤمنين الاحتفاظ بقطعة الخبز ليحملوها إلى بيوتهم. وفي الكنائس التي لا يوجد كاهن فيها تحدث

المناولة باتخاذ بعض التراب عن الأرض ومسح الوجه به؛ يبتلع المؤمن بعضاً منها قبل أن ينهي صيامه.

ينتهي القداس بترنيمة قديمة جداً ومؤثرة للغاية حول التبريك: يعطي الكاهن إلى الأقرب إليه «قبلة السلام»، ويتلقاها المؤمنون الواحد من الآخر وهم في أمكنتهم، يلمسون يد جارهم، ثم يمسحون بيدهم شفاههم ووجوههم قائلين: «فليكن سلام الرب معك».

المَلَكانيَّة النسطورية

إن حيوية النسطوريين العجيبة هي رهبانهم الذين كانوا من الصنَّاع الماهرين النشطين؛ فمن أديرتهم خرجت فرق «الذين اجتازوا البحار والأراضي (. . .) حاملين عصا وقربة فقط».

إن جذور المؤسسة الرهبانية لبلاد الرافدين غير معروفة. ففي القرن الرابع، كان يوجد إلى جانب النساك والمتزهدين المنعزلين عن العالم، «أبناء» و «بنات الميثاق»، (أبناء القيامة) وهو تعبير يتردد اليوم بغرابة في آذاننا منذ أن وجدناه يطبَّق على الأسَّانيين(*) في وادي قمران، من خلال المخطوطات الثمينة للبحر الميت. وهذا هو أحد الأسرار الذي يمكن أن يغري بعض البحاثة، في أي مكان. تُرى

(*) راجع الملحق.

وجد الأسّانيون ملجأ لهم بعد تشتيت اليهود عام 70 بعد يسوع المسيح؟ نتتبَّع آثارهم حتى دمشق، ثم يختفي كل شيء. هل اجتازوا، ـ مثل آخرين غيرهم ـ الصحراء لكي يحتموا في الشرق في أرض ما بين النهرين ويبذروا فيها بذور المَلَكَانيَّة المسيحية؟ ما من شيء مستحيل على ضفاف الفرات، حيث تتبدَّل الأفكار والعقائد وتتمازج كما الطمي في مياه النهر.

إن المَلَكَانيَّة النسطورية قد توارت اليوم عملياً، إذ لا وجود إلا لدير واحد هو دير «ربَّان هرموز»، وليس ما يشهد على أنه للمَلَكَانيَّة النسطورية، لأن الرهبان الكلدانيين يعيشون فيه.

بعد القداس النسطوري، قبِلَ أحد كلدانيي الموصل المدعو إلياس سهدونا، أن يكون مرافقي حتى «ألكوش»، وهي قرية مسيحية كبيرة يختبىء الدير في مرتفعاتها. في صبيحة يوم الأحد هذا، لم يكن نادراً أن نرى بعض الباصات التي تحمل بعض المشاركين في النزهات الأسبوعية، وعلى رأسهم كاهن أو راهبة يسلكون طريق الجبل متوجهين إلى دير الرهبان. كان الهواء علِيلاً أشد برودة مما في السهل، ولدى المسيحيين عادة أن يلتقوا مع بعضهم بعضاً هناك في منطقة نفوذهم.

ودخلنا في ممر متموج محفور في الأودية العميقة. تظهر

هنا وهناك بعض القرى البائسة، ببيوتها الترابية، وسطوحها المصنوعة من القضبان المغطاة بالطين المجفَّف، وهذه الضياع الكبيرة تدل كيف اختفت عبر العصور مدن لم تترك بعدها إلا بعض التلال والهضاب المصطنعة التي تشكل، من المتوسط حتى بلاد الفرس، جزءاً مكملاً لمنظر الشرق الأدنى.

ونحن على الطريق، ليس بعيداً عن الموصل، رأينا الحاجز الدائم للشرطة، الموجود عند مداخل كل مدينة عراقية نقدِّم أوراقنا، ويجري تسجيل هوية كل مسافر وكذلك وجهة سيره. وبما أنني أجنبي، توجَّب عليَّ أن أقدِّم نفسي منذ وصولي إلى ألكوش، إلى السكرتير المحليِّ للحزب الذي، هو بدوره، يراقب كل تحركاتي.

كان هذا الرجل نائماً عندما طرقنا بابه في أول الظهيرة. يجب أن نوقظه إذا أردنا متابعة الرحلة. كيف! أجنبي في المنطقة! إنه لأمر مريب ويمكن أن يجلب لي بعض المتاعب، هكذا ظنَّ عندما أعلنوا له عن وجودي. وهو نصف مستيقظ، مرتدياً البيجاما ومنتعلاً خِفَّه. سأل إلياس عن مقاصدي. «إنها زيارة عادية للرهبان، ونرجع إلى الموصل قبل حلول الظلام، وسنعود طبعاً لكي نبلغك عن رحيلنا»، قال بلهجة واثقة. وبالواقع، بقينا ساعة كاملة في النقاش ـ فللشرق تهذيب وحذر ـ وتساءلت إذا ما كان يسمح لنا

بالوصول إلى الدير الذي لا يبعد سوى بضعة كيلومترات عن القرية المتعلقة بالجبل الصخري وكأنها عش عقاب.

كنا بحاجة إلى ساعتين سيراً على الأقدام لكي نصل إلى ذلك المخبأ من خلال طريق ضيق صعب يتعذر حتى على البغال اجتيازه. وفي تلك الساعة المتقدمة من بعد الظهر، كنا نخشى أن يفاجئنا هبوط الظلام، وأن نجد لدى وصولنا الباب مغلقاً، لأنه مذ يحل الليل تُغلق الأبواب والنوافذ في تلك المنطقة غير الآمنة تقريباً. هل نؤجل زيارتنا لـ «الربَّان هرموز» إلى الغد، ونطلب أن يستضيفنا رهبان المنطقة السفلى؟؟.

يرتفع على أقدام الشاطىء الصخري بناء فسيح محصَّن، أقامه الطلاب الداخليون في «ربّان هرموز»، منذ أكثر من قرن، لكي ينجوا من هجمات الأكراد الدائمة. واستجابة لرعويَّة «نوتردام ـ دي ـ سيمونس»، اتخذ هذا الفرع من الدير أهمية، بحيث أصبح المقر الرئيسي للرهبان. بالكاد وجدنا الوقت لكي نُدخِل عربتنا اليه قبل إقفال الأبواب الثقيلة، يتبعنا قطيع كبير من الغنم يقوده بعض اليزيديين الذين يعملون لدى الرهبان. يبدو أن عبدة الشيطان هؤلاء لا يكرهون حماية المسيحيين...

هذا المساء، سأتقاسم السهرة مع الرهبان. كانوا دزينة، يجلسون على بنوك خشبية في الحديقة يثرثرون مثل العجائز

الصغيرات. ألمح بالكاد وجوههم بالرغم من ضوء البدر، لكن عندما قصف أحدهم عود الكبريت وأشعل غليونه الطويل، ظهرت عندئذ عينان براقتان، وجلد مجعَّد يعلو لحية رمادية اللون. تجاوز أكثرهم الخمسين من العمر. الليل هادىء جميل وصامت، ليل شرقي رائع حيث التقى القمر بالمجرَّة، ليخلق كوناً من الظلال ويعكس ضوءاً لا لون له يرتاح اليه الرهبان. إنهم يستفيدون من هذه اللحظات الأخيرة للسلام المشترك ليقوموا ببعض الألاعيب البريئة، وكأنهم عجزة صغار رجعوا إلى الطفولة وقد شجعهم حضوري. أخيراً قرع الجرس الصغير معلناً إطفاء الأنوار، فاتخذ كل منهم باحتشام طريق الظلام الكامل باتجاه غرفته.

تتوزع حياة الرهبان الكلدانيين بين الأعمال الزراعية والواجبات الطقسية. لا يزال البعض منهم يحتفظ بتقاليد أجيال الخطاطين الذين أعطوا فيما مضى الشهرة لهذا الدير. وفي المكتبة الفسيحة المعتمة تقريباً، سيُظهر لي أحد الخطاطين، وهو يتربع على الأرض على الطريقة التركية، كيف يستهلك عينيه ليملأ بالحروف السريانية القديمة الصفحات البيضاء التي يمسك بها منحنية بيده اليسرى. ولكي يحتوي على كنوز المخطوطات وليكون مركز اتحاد الكثلكة، يتباهى «ربَّان هرموز» بأنه روما الكلدانيين. ومع الأسف! فُقِدت الألوف من تلك المخطوطات النادرة خلال فترات

الاضطهادات والغزوات. يقال إنه في العام 1850، ضاع أكثر من ألف مخطوطة بسبب فيضان اجتاح البيت الصغير الذي وُضِعت فيه تلك المخطوطات.

يلتقي الرهبان في الكنيسة مرات عديدة يومياً. كانت الساعة الرابعة صباحاً عندما رافقتهم مجتازين الملعب الرئيسي الكبير، تحت سماء بدأت تتخذ ألوان الفجر. حملت مسجّلتي على كتفي الأيسر، والكتف الآخر ينوء تحت ثقل البطارية؛ مصباح معلَّق على الزنار، يد تحمل الكاميرا واليد الأخرى تمسك بالمذياع؛ سمّاعتان على أذني، كنت أرزح تحت ثقل الـ 45 كيلو من الأدوات. وشعرت بنفسي كأني فارس أحمق مدجج بالسلاح ولا يملك جواداً.

كان الرهبان ينسلُّون بصمت، بخفِّهم الطريء، بينما تنقطع أنفاسي وأنا ألحق بهم، أتخبَّط مع هذه العدَّة الثقيلة الوزن التي تصطدم حيناً بالرهبان وتضرب أحياناً على الأبواب.

لم تكن أول حركة يقوم بها الرهبان، ونحن ندخل الكنيسة، كما كنا نعتقد، هي رسم إشارة الصليب بالماء المقدس، بل خلع أحذيتهم. والغريب في الأمر هو أن نجد في طقوس الرهبان النسطوريين الكلدانيين تحركات تعوَّدنا أن نعتبرها إسلامية، بينما هي تعود إلى التقليد المسيحي القديم. وكذلك إنهم يقفون في خط مستقيم قبالة المذبح، ثم يجلسون على مؤخراتهم على الأرض؛ يسجدون على ركبتيهم ملامسين

الأرض بجبينهم كما يفعل المسلمون تماماً في مساجدهم. إتخذ الإسلام هذه العادات من المسيحيين، وكذلك مظهر الحجاب، ورسم إشارة الصليب على الخبز، كما تفعل النساء المسلمات في سوريا و بلاد الرافدين، وهي إشارة التبريك عندما كانت هذه الأرياف مسيحية.

واللحظة المدهشة حقاً في الذبيحة الكلدانية هي لحظة تقديس الخبز والنبيذ. ينبطح الرهبان على الأرض ويطلقون صراخاً شاذاً، يرافقه ضجيج الأجراس الصغيرة والصنوج. أيقصدون بذلك الرهبة التي يحدثها مثل هذا السر الكبير؟ إذا كان هذا هو القصد فيمكن القول إنه ناجح جداً، خاصة عندما نقارن هذه الضجة بالصمت الرهيب المؤثر الذي يليها، والذي يتلاءم تماماً مع العبادة. انبطحت أنا أيضاً على الأرض مصوباً آلة التصوير على مسافة سنتيمترات فقط من وجه جميل يفوق المألوف، هادىء وسعيد. تتحرك الشفاه فقط، وتبقى الصلاة دفينة في الباطن. لم يصوِّر أحد هؤلاء الرهبان أبداً، إنهم لا يمانعون، يندهشون فقط من قوة الضوء. ربما يعتقدون أن هذه الصور ستساعدهم على قطع عزلتهم التي يغرقون فيها، في كردستان هذه التي لم يزرها أي مسافر أبداً.

بعد قداس الصباح، بدأت مع «إلياس» بتسلق الجبل. مدرَّج صخري فسيح يواجه أنظارنا. ودير «ربَّان هرموز» ليس

مبنياً على القمة، بل معلَّق على السفح، كما هي حال أغلبية أديرة الشرق الأدنى. وتخترق الجبل مغاور عديدة. إنها الملاجىء القديمة للنسَّاك، فقد عاش هنا في الزمن الغابر عدد كبير من الرهبان، لم تعد أبنية الدير تتسع لاحتوائهم. بعض المغاور متعذرة البلوغ: ينزل اليها الرهبان بواسطة الحبال، ويصل اليهم المأكل بالطريق نفسها مرة كل أسبوع، ويبقى الناسك فيها حتى موته. يثير هذا المنظر القشعريرة، ومن على سطح الدير لا يمكن أن يحلم المرء بمشهد أجمل من مرأى سهل ما بين النهرين، إذ نرى دجلة يشع تحت أشعة الشمس الساطعة.

ثلاثة رهبان عجائز راقبوا صعودنا، ثم استقبلونا بحفاوة. وحدهم يسكنون الدير مع اثنين من اليزيديين يقضيان أكثر الأوقات في تدخين الشبُّوق. هنا ترقد بقايا الراهب «هرموز»، المؤسس القديس للدير في القرن السادس. ونحن نتغلغل عبر الممرات الضيقة، وصلنا إلى حيث ما كان يسمى مغارة كان يقضي فيها وقته في التأمل، وهو معلق بسقفها بواسطة سلاسل لكي يريح جسمه من التعب. يشتهر المكان بأنه يشفي من الجنون والصرع. أسلوب الشفاء لا يزال موجوداً: السلاسل التي يقيدون المرضى بها تتدلى من الحائط. يتركون المرضى مع السلاسل في عتمة داكنة؛ وهكذا يتمكنون من الصراخ والعويل والتخبط إلى أن يتحرروا

من القيود. عندئذ يُعتبرون أصحّاء. يبدو أن الصدمة النفسية هي العلاج الشافي. . .

وما يدهش هو ملاحظة أن الأبنية تحمل آثار دمار حديث. وقد قال لي أحد الرهبان إن المقاتلين الأكراد قد تخندقوا فيها، منذ بضعة أشهر فقط كانوا يهددون السهل. وذات يوم، اجتاح الجنود العراقيون الجبل بواسطة الطائرات المروحية وفاجأوا المقاتلين الأكراد. ويعيد الرهبان الآن إصلاح الجدران التي اخترقها الرصاص، بينما ما تبقى من المباني هو مهجور كلياً.

عندما رجعنا إلى أسفل المنحدر الصخري لاحظنا على الفور شيئاً غير عادي. كان مختار القرية البعثي ينتظرنا وقد ثارت ثائرته قائلاً: «أين كنتم، وأين قضيتم الليل؟». من الواضح أنه غاضب ومشغول البال. «هل صورتم المكان؟» ولحسن الحظ أنني لم أحمل معي آلة التصوير، وليس من الصعب عليّ إقناعه أننا لسنا سوى سائحين عاديين، هواة لتسلق الجبال، وأن الدير يستحق هذا العناء؛ وبعد أن رأى أيدينا فارغة لا تحمل أية آلةٍ، تأكّد من أننا لم نأخذ معلومات عن الأماكن المدمَّرة التي زرناها، سمح لنا بالذهاب، أو بالأحرى طردنا إلى الموصل.

الفصل السادس

اللقاء الثاني مع عبدة الشيطان

جاك

إنتهت زيارتنا للأديرة الكلدانية بشكل جيد. تبقى المرحلة الأخيرة لإقامتي في العراق وهي الأكثر مجازفة: عليَّ أن أبقى وحدي في كردستان وأختلط بحذر مع جمهور اليزيديين الذين يحتفلون بعيد رأس السنة، ثم أغادر على جناح السرعة البلاد حاملاً أفلامي الثمينة. يجب أن أنجح هناك أيضاً لا محال.

«باشيكا»، بلدة شهيرة من 6 آلاف نسمة، تقع على مسافة ثلاثة كيلومترات في شمال ـ شرق الموصل، مدينة حدودية بين العالم المسيحي والمسلم وبلاد اليزيديين. تتجاوز فيها المآذن وقِبب الكنائس بانسجام مع القبب البيضاء المخروطية بشكل معابد بلاد اليزيديين.

منذ ثلاثة أيام تستعد المنطقة للاحتفال بعيد السنة الجديدة، الذي يستقطب ألوف الجبليين. جاؤوا سيراً على

الأقدام، وعلى الجياد، وفي العربات، دافعين أمامهم حيواناتهم الداجنة ليضحّوا بها، ويقيمون مع عائلاتهم في مخيمات تحيط بالمدينة. ومن غير المطلوب إثبات أصلهم الآشوري ـ السامي مع ضفائرهم الطويلة ولحاهم الكثة. أما المدهش فهو تنوع ألبستهم وعماماتهم. فالبنية الاجتماعية لليزيديين المرتكزة على مبادىء التيوقراطية، قد جزأت هذا الشعب إلى طبقات شعبية عديدة، تحتفظ كل منها بتقاليدها الخاصة وبممارساتها. وهكذا يتميز يزيديو جبل سنجار بقبعاتهم المخروطية الشكل من اللبّاد المغبرّ، تتدلى منها ضفائر من الشعر طويلة. وبقي قسم آخر محتفظاً بالمحرَّم الثابت، وقمصانهم المثلّمة تحيط بأعناقهم.

بالرغم من النزاعات التي تقسّم بعمق قبائل الجبل، وتصل أحياناً إلى أعمال ثأر عنيفة، فجميعهم في هذا العيد عيد الربيع والتجدد، يملكون نفس شعور الوحدة الإثنية والدينية. تسكت العداوات القديمة لبضعة أيام، ولا تتعدى الحوادث بعض الغارات أثناء ليلة العيد عندما يعطي العرق مفعوله.

تحمل كل عائلة الكليتشة، وهي نوع من الخفِّ الصغير مصنوع من التمر أو عجين اللوز، تقدمه هدية للزائرين. لست الزائر الوحيد، لأن الكثيرين من المسيحيين والمسلمين قد جاؤوا من الموصل و كركوك ليشاركوا في الأفراح التي تستمر بضعة أيام.

من الغريب أن نلاحظ أن بعض الممارسات قد زالت من الأديان الأخرى. فهذا التقليد مثلاً، بعد التضحية بالخراف التي تذبح على أبواب البيوت، ألا يُذكِّر بالأمر الذي أعطاه يهوه للعبريين بأن ينثروا على كل عتبة باب قليلاً من دم الخروف في عيد الفصح؟

وتشرق الشمس على مخيم مغطى بالدخان، حيث تتصاعد ضوضاء غريبة: ضجيج الحياة اليومية الممزوجة بنغم للناي وبضرب الطبول المزعجة. إنهم الموسيقيون الذين يجوبون المدينة مرافقين الحُجَّاج باتجاه ضريح الشيخ «محمد الحنفي». ويتزاحم الجمهور في المعبد وهو يرمي على القبر تبرعات من المال يتسارع الحراس إلى التقاطها. وفي الشارع، تشتبك أيدي المسيحيين والمسلمين واليزيديين، بشكل عفوي، لتقوم برقصات ريفية خشنة بدائية. ومن وقت لآخر، يجلس الموسيقيون على الأرض، إشارة إلى أنهم قد تعبوا، وأنهم سيتوقفون عن العزف إن لم تُرْمَ إليهم بعض النقود.

جمهور مخطط بكل الألوان يحتل المدينة: بدو، وعرب من الحضر، وباعة متجولون، ورواة المغامرات أيضاً؛ في هذه المناطق حيث يضع الرجال ثرواتهم بمنأى عن السارقين، تعرض أمام أعيننا الثروات على أجساد نسائهم، ولكن، الويل لمن يتجرأ ويمد يده على إحداهن! نتفرَّج على هذه

الثروات، نتأملها فقط، لأن هذه الكنوز تحت رقابة الشقيق أو الأب أو الزوج. لا توجد كلمات تستطيع أن تصف غنى الأثواب المتعددة الألوان، وجمال الجواهر الثمينة التي تتدلى فوق الجبين، وثمن العقود التي تزين الصدور، وسطوع الزنانير الثقيلة.

ينتهي العيد بالدخول الاحتفالي المهيب إلى أرض قرية الرمز المقدس، سنجق الملاك ـ طاووس. مخبّأ عن الأنظار التطفلية بواسطة دائرة من المؤمنين، فالرسم بين أيدي الجوقة المرتّلة بالقرب من الرجل الوجيه الذي قدَّم التضحية الكبرى، وبوسعه الاحتفاظ به حتى العيد المقبل.

«سنة، وأحياناً سنتان من العمل للحصول على رمز الشرف لاستضافة الشيطان. همس أحد المسيحيين في أذني، «يدمِّر هؤلاء الوثنيون أنفسهم من أجل طاووس من النحاس».

كم استمعت خلال هذه الرحلة إلى مثل هذه التأكيدات المجانية بالنسبة لمعتقدات جيرانهم! يمكن أن يغتني يزيدي أمام مزود الميلاد: «هؤلاء المسيحيون، هم كالحمار أو الثور الذي يعبدون». فلنكن متسامحين وشرفاء. فهذا الطاووس النحاسي لا يقوم بدور المعبود الصنم. إنه الشكل الذي بواسطته يظهر اليزيديون طاووس ـ ملاك، ونادرون هم الأجانب الذين استطاعوا أن يميزوا ذلك.

تركتُ محدِّثي المسيحي في تعصبه لكي أنضمَّ إلى واحد

من اليزيديين الشباب قدَّم لي نفسه كإبن للحاج «الفقير»، حارس المعبد الأقدس، معبد الشيخ «عدي» في أعلى الجبل. هنا، في «بامشيكا»، كل شيء مغلوط، قال لي، هذا نوع من الفولكلور. تشجِّع الحكومة هذه التجمعات الشعبية لتوزع العرق بسعر زهيد لكي تعطي انطباعاً عن الوفاق بين الأكراد والعرب. يأتي العرب من الموصل و كركوك وحتى من بغداد، وكأنهم يجيئون إلى أحد المعارض. يمتدحوننا وهم يكنون لنا الحقد نحن الأكراد. أما إذا أردت أن ترى تجمعاً دينياً حقيقياً، فاذهب إلى جبل شيخان، إذهب لترى الحاج «الفقير». أغرتني المغامرة فعلاً.

بعد أمطار الربيع، تزيَّن الجبل بطبقات من الاخضرار، تتناقض مع الحجاب الأصفر الذي تعرفت عليه قبل أكثر من شهر في السهل. أي فرح كبير، في رؤية الماء يتساقط شلالاً، ويختفي تحت الأوراق، ثم يخرج من الأسفل فائراً زبداً! ينساب من القمم المغطاة بالثلوج في جبال شيخان وفيها رواندوز و أماديا وهما محطتان للاصطياف، ومركزا تزلج في الشتاء أقامهما الإنجليز في زمن الانتداب(*).

مركز للشرطة ينتظرني، على الطريق شابان، أخذتهما الدهشة لعدم تعرُّض بعض الأكراد لي. كأن شيئاً ما غير

(*) راجع الملحق: (Esseniens)

متوقع أن يجتاز أجنبي هذه الحدود، وتشاورا طويلاً وهما يقلِّبان جواز سفري من فوق إلى تحت. لوَّحت من خلال النافذة بدليل أزرق اللون مردداً: «سنحريب، سنحريب»، ورسمت في الهواء خطوطاً منحنية، ومستقيمة، ثم منحنية... وهما غارقان معاً في قراءة الصفحات التي تصف آثار القناة الرائعة التي بناها سنحريب منذ 3000 سنة... طبعاً، لم يجدا أية كلمة غير مناسبة، وأنا ألح على تكرار لائحة كل أسماء الملوك الآشوريين الذين استحضرتهم في رأسي. أخيراً، فهما، وباللغة العربية، أشارا إلى الطريق الذي يجب اتباعه: كيلومتران، إلى اليسار، طريق «جروان».

«لكن انتبه إلى اليزيديين، إنهم...

ـ إنهم ماذا، قلت.

ـ إنهم شريرون».

بعد مسافة كيلومترين، لم أتجه نحو جروان بل قررت أن أضرب ضربتي. وفجأة أصبحت الطبيعة متوحشة. هنا تبدأ حقاً كردستان، كردستان المحاربين وقطاع الطرق. تكفي بضعة بنادق لكي تصد جيشاً بكامله. ما من شك أن البلاد هي أيضاً بلاد اليزيديين، فمن هنا وهناك تنبثق من داخل أجمة من الأشجار بعض الأهرام البيضاء التي تشكل هندسة معابدهم الخصوصية.

لم أدرك إلا في اللحظة التي فيها وصلت إلى معبد الشيخ

«عدي»، كم أن اليزيديين يحبون الأشجار والطبيعة. المكان فردوسي: شبكات المياه في كل مكان، وأشجار السنديان المهيبة، وصخور عالية تطل من بين بعض المدافن المغطاة بالأقمشة الملونة. إن الدهشة تتملكنا حقاً، فكيف يمكن للإنسان أن يجعل من هذا المكان مقراً للشيطان؟! هذا المكان الذي يخيم عليه جو من الصمت والمجهول.

بعض اليزيديين يرتدون جلابيب بيضاء ساطعة ويغطون رؤوسهم بالعمامة، يروحون ويجيئون بدون أي قصد، ودون أن يلاحظوا وجودي. ومع ذلك، حضور واحد يقلقني: وجود العسكريين. هل يقوم الجيش بحراسة المكان؟ دخلت، منقبض القلب، إلى إحدى الساحات حيث مجموعة من اليزيديين يجلسون على الأرض تحت شجرة كبيرة برفقة بعض الضباط. لم يعد التراجع إلى الوراء ممكناً. إتجهت نحوهم: السلام عليكم؛ ردَّ جميعهم السلام بدون دهشة: وعليكم السلام.

لن أرجع من هنا: استقبلوني بحرارة وبفضولية. وقام ضابط ذو رتبة عالية، بدور المترجم: «إنك محظوظ، قال، لأن اليوم كبار شيوخ كردستان وهم من أكبر الخبراء، يدعونك لتتقاسم معهم الولائم». وشممت فوراً رائحة لحم الغنم المشوي.

أثناء هذه الوليمة، كنت إلى يسار الرئيس، وهو عجوز

وقور ذو لحية بيضاء جميلة، له شعر معقود وضفائر رفيعة تتلوى كالأفاعي، وعن يمينه المدعو الآخر، الضابط. جلسنا على الأرض، وبدأ كل ضيف يغرف بأصابعه من الطبق المشترك.

غامرت في إخراج آلة التصوير. ما من مشكلة، فالجيش والدين يعيشان بوفاق حول الأطباق المدخّنة. وجازفت بتصوير الصبايا اللواتي يقفن على مسافة قريبة منا. لسن شرسات أبداً؛ لم يعترضن؛ ضحكة طويلة وتوارين في الطبيعة مثل الغزلان. وجد الضابط في ذلك لذة كبيرة، فهو الذي يشبِّههن بالغزلان التي يمتنع اليزيديون عن أكل لحمها، لأن عيونها «تشبه عيني القديس عدي»، قالها لي بشكل مضمَّن. أما هو فيأكل منها كثيراً، ومن هؤلاء خاصة... «أترى هذا الراهب الضخم، ذا الوجه المنذهل، مع أذنيه المشنَّفتين اللتين تتدليان بين ضفائره؟ نذر العفة، ولكي يتحاشى الثرثرة وكل الشكوك السيئة، خصى نفسه بيديه في الجبل، ها، ها، ها... أترى هذا السور؟ في شهر أيلول/سبتمبر من كل عام، يذبح له الشيخ ثوراً. يُضرب الحيوان بالعصي حتى الموت ثم يطبخونه في قدر ضخمة جداً، على أن الأول الذي يتمكن من التقاط قطعة لحم من الضحية، من بين الصلصة الساخنة، ويلتهمها، يذهب إلى الجنة بكل تأكيد، هه، هه، هه.

الشيخ «عدي» هو معبد اليزيديين الرئيسي، فهو مكّتهم. وتحت الهرم الهائل الذي تعلوه كرة من الذهب التي تتمرجح فوقها راية الحرب الخضراء اللون، يرقد «عدي بن مظفر». لقد أسس جمعية من الصوفيين، يشكل اليزيديون منها اليوم آخر المؤمنين. مع ذلك، فالألسنة السيئة من جانب النسطوريين تعتبر «عدي» كردياً في خدمة الدير. ولأنه تزوج، وكذلك أولاده، من نساء مغوليات، ثارت القبيلة ضد أسيادها. وغير راضين بجعل الرهبان حراس قطعانهم، فقتلوهم واستولوا على الدير الذي جرى فيه دفن «عدي». ويؤكد النسطوريون، برهاناً على ما يقولون، إنه تحت كلس جدران الهيكل توجد كتابات سريانية.

من المستحيل نسيان الشيطان وجو الأسرار عندما نزور معبداً يزيدياً، ومعبد الشيخ «عدي» ليس استثناءً. فقبل الدخول اليه، يستوقفك ما هو غير مألوف: إشارات سحرية محفورة على المدخل الفخم، أفعى سوداء منحوتة تمد تموجاتها على طول الباب وصولاً إلى الحارس ذي المظهر الغريب، الذي يتلاءم تماماً مع مظهر كاهن «كالي».

مذ تجتاز العتبة يشد على عنقك جو خانق، فرائحة الزيت المحروق تملأ كل أرجاء المكان؛ سواد الدخان ملتصق بالجدران، بالأعمدة وبالقناطر. الظل يغطي المكان. ويرقص انعكاس بعض المشاعل على أرض رطبة. وهناك إشارة

وحيدة للنظافة هي: مياه نبع يتدفق بأعجوبة بفضل الشيخ «عدي»، من بئر زمزم في مكة؛ إنه الماء الذي يستخدم للعمادة. عدا هذا الخزان من المياه الصافية، ومدفن القديس المحجوب عن الأنظار بواسطة ستار، فكل ما هنالك قذر يثير الاشمئزاز. عندما خرجت أخيراً من هذا المكان المشؤوم، بدا لي ضوء النهار أجمل من أي وقت آخر؛ وفي مساء هذا النهار سأكون في تركيا!...

الفصل السابع

السجن في الموصل

جاك

كم من مرة يتضرع المرء لكي يسرع الزمن؟ كم تتمنى أن تدفع بعجلة الحياة إلى الأمام ولو لساعة فقط، وأخيراً، تنظر بدون قلق وراءك، ومن الجهة الأخرى هذه الرغبة لطرف آخر من الأرض بدأت أراه، هذه الرغبة المجنونة للحظة التي أكون فيها، بعد اجتياز الجسر، تحت علم آخر.

ها قد انتهى أسبوع في كردستان. ثمانية أيام في الشك بالغد، في الشك بخطي الخاص. هل بعض الرهبان النسطوريين الفقراء، وبعض عبدة الشيطان يستحقون مثل هذا العناء وكل هذه المخاطر؟ كل مركز شرطة على الطرقات، كل استجواب محقق بعثي، كل إشارة تيقُّظ، أو بالأحرى تجنُّب الأكراد بالذات، كل ذلك كان يجعلني أشعر وكأنني أغرق في قعر قِفة.

وفجأة؛ أجد الحرية على مسافة خمسمئة متر: تحمل لون

العلم التركي. لم يبقَ سوى جسر أجتازه، وأمرُّ في مركز الجمارك، المركز الحدودي الصغير في زاخو. يبدو لي أنه في نهاية بعد الظهيرة المشمسة هذه، بالكاد ينتهي الموظفون من القيلولة. فالمسافرون نادرون هنا، والمستندات مصفرَّة اللون على المكتب. والوقت هنا يقاس بما يشرب فيه من شاي ساخن.

قدَّمت جواز سفري إلى المأمور الوحيد الذي يتهيأ بلا مبالاة ليضع عليه الختم. أخيراً! ما من شرطي، لا وجود لقادة بعثيين! هنا، عملية روتينية بسيطة لجمارك المقاطعة.

ما اسمك؟ (بالإنجليزية) ماذا يحمل إسمي من سحر أو إجرام لكي يوقظ ذاكرة هذا النائم؟ مجرد التفوه به أثار لدى رجل الجمارك غيظاً هائلاً، فأسرع إلى رزمة الأوراق وراح يقلِّبها بعصبية، دون أن يتوقف عن ترداد إسمي وكأنه يخشى بأن يسرقه أحد منه. بالكاد انتهى من تفتيش الرزمة حتى بدأ مجدداً بالتفتيش وهو يهز رأسه. بدت هذه المناورة وكأن لا نهاية لها، دُهشت بالنفور من كل شيء: هذا الرجل، وإسمي، ومركز الجمارك هذا. وتمنيت للحظة أن يختفي كل شيء، وأن أستيقظ بعيداً من هنا، ثم فجأة: إسمك هو «بول ـ جاك كاليبو» همس بصوت الجمركي المنتصر، وهو يهز بين يديه ورقة وجدها بين المستندات. فهمت: إنها مذكرة توقيف.

جندي طيب، يحمل بندقيته فوق حمَّالة بنطلونه، ويصعد إلى عربتي ويشير إليَّ بوجهة السير التي عليَّ اتخاذها، وهو يكاد يعتذر: إلى الموصل... آه هذا العلم التركي المرفرف البعيد، وهذا الجسر الذي يتمشى عليه أحد العسكريين، إنه الحرية التي تتوارى.

بدا الشرطي المناوب مرتبكاً عندما أوصلني اليه الجندي الطيب في غمرة الليل في مفوضية الموصل. خُصِّصت لي زنزانة، وبما أن ليس لرجل الميليشيا الفقير وسيلة نقل في تلك الساعة المتأخرة، جلس معي على القطعة الوحيدة من الخشب التي تُعتبر فراشي.

في الصباح التالي، قدَّم لي أحد الضباط مقعداً في مكتبه، وباشر عمله اليومي كشرطي يعالج عدة مسائل دفعة واحدة. إنها العادة في الشرق الأدنى. يبدأ بأحمد ثم بمصطفى، ثم يعود ثانية إلى مناقشة مسألة أحمد، وهي تهمة بالسرقة للمرة الثانية. ومن وقت لآخر يتدخل الضابط فيما لا يعنيه بجواز سفري مقلِّباً كل صفحاته، دون تحقق يذكر، ما من أحد يتجرأ ليزعج السكوت الذي تقتضيه هذه العملية ذات الاعتبار الكبير. ويتذكر الضابط فجأة أحمد، ويتدخل كل واحد في المناقشة الجديدة، ثم يضج رنين الهاتف الذي يحوِّل مجدداً كل هذا العالم الصغير إلى الصمت، بينما الآذان تمتد محاولة استماع ما يدور من حديث. فيتعاظم الضابط وكأنه

سيد كبير. ويحكم، من النظرة الأولى على الانعكاس الذي يثير. هكذا يمثل المسرحية كل يوم؛ إنه الممثل الأوحد فيها.

دخل فرنسيان: اختصاصيان في البترول. وبحركة من يده، طرد الضابط كل الموجودين، لأن للأجنبي الحق في نظام الأفضلية. تمكنت من وضع ورقة في يد أحدهما: «إسمي كاليبو، أعلما سفارة بلجيكا». رآني الضابط. وبشكل مسرحي دائماً، ولكن، ليس بدون دعابة، أعلن لي بأنني سأقيم على نفقات الحكومة في «فندق الشرطة».

«خذ دراهمك، فإنك ستحتاج إليها، وخذ هذا الغطاء». قال لي أحد الحراس. وعندما رآني أكدِّس بعض الكتب قال: «هذه الأشياء ممنوعة هنا، لا تستطيع القراءة ولا الكتابة».

وأُغلق الباب الحديدي الثقيل لسجن الموصل. كانت آخر نظرة للحرية منظر عربتي المهجورة، وقد التأمت تحت ظلها بعض الفلاحات المليئات بالحيوية، وكأنهن مالكها، وأفرغن خردواتهن، وبعض الأثواب والخضار والفاكهة وسط معزوفة من الصراخ والشتائم.

سجن الموصل؟ ساحة مثلثة الشكل واسعة على جوانبها زنزانات مشتركة. قضبان من الحديد متينة تفصل ما بين السجناء والأبنية الإدارية: مكتب المدير، والحراس،

والسجن. يجب على الحراس أن يظهروا بمظهر المهدِّدين؛ لكي يُبعدوا عن الشبكة الحديديَّة الأيدي والوجوه المتدافعة. وما إن فُتحت، حتى وجدت نفسي متعلقاً مزموماً تدحرجني عشرات الأجسام. كل واحد يسعى للإستئثار بي: تعال إلَى هنا. سأقدم لك أفضل مكان... سأساعدك... أنت أخي... هل معك مال؟ (بالإنجليزية). مما أثلج قلبي، إذ اعتقدت أنني وجدت بعض الأصدقاء. وجرفتني العاصفة، فوجدت نفسي في إحدى الزنزانات الكبيرة التي تتسع لثلاثين سجيناً مع حقيبة، وكيس وغطاء.

هل تريد مكاناً جيداً؟ هل تدفع خمسة دنانير فقط... ما رأيك؟ (بالإنجليزية). أدفع لأكون هنا؟ هذا ما لا يُحتمل. أليس لي الحق بمكان مجاني من المدخل المعرَّض للهواء، للممرات، ولروائح البول. فعند هبوط الليل، عندما تُغلق البوابة، لا يبقى من كل الاحتمالات سوى التبويل أو الاستفراغ من بين قضبان الحديد.

تحول الاهتمام بشخصي بشكل تلقائي إلى مصدر جهل كبير. الوداع أيها الأصدقاء! عليَّ أن أدرك بسرعة أن المال هو الشيء الثمين النادر في هذا الكون. هنا نشتري كل شيء: الصداقات والخيانات. إنه عالم يخلو من المجاملة يتكوَّن من ثلاثمئة شخص مع زعمائه وممالقيه ومستغليه.

وبمقابل المجتمع الذي أقامه السجناء، هناك مجتمع

الحراس. ينشر هؤلاء الآخرون الخوف وعدم الثقة والوشاية؛ سرقة ما، غيرة لواطية، عمل سيء النتيجة، كلها تخلق مشاجرات عنيفة، ينهالون على المتهم قبل أن يتدخل الحراس. وبحكم الواقع، لكي تستمر الأمور، يجتاز الساحة ثلاثة أو أربعة من بينهم، على مهل، ملوحين بزنانيرهم الجلدية. ثم ينطلق الصراخ، فيتغلغل الحراس في وسط المجموعة محوِّمين بزنانيرهم. لا يمسكون إلا بالضحية المدمَّاة، وعندما يهبط الليل يرجعون؛ حُزم ضوئية تجوب الزنزانات بحثاً عن وجه ما. والمسؤولون عن الشجار، أو الذين تشير اليهم الضحية يتم اعتقالهم لينالوا جزاءهم المفروض جلداً بالأحزمة.

تبقى واحدة من الزنزانات مغلقة غالب الأحيان. فيها اكتشفت رؤوس المجانين العنيدة.

ضربت العفونة أنفي وأنا على المدخل، أما في الداخل فسيطر جو نتن. ومن بين الذين يسكنون هذه الزنزانة، أحد المتخلفين عقلياً، إنه لبهيمة حقيقية. من المستحيل أن يقف، يقضي وقته جالساً أو راكعاً على ركبتيه، يفتش عن مأكله بين النفايات التي تُرمى اليه. يأكل برازه مع الأكل الذي يحمله بواسطة قبضتيه المغلقتين. أشفقت عليه في البداية، ربما مثل الكثيرين غيري، ثم تحول هذا الشعور إلى لا مبالاة. ماذا

بوسعي أن أفعل لمثل هذا الكائن العاجز الذي لا يعرف إلا أن يدمدم كإشارة ارتياح عندما نداعب رأسه؟

وهناك أيضاً، على عكسه، معتوه آخر أثار في نفسي عطفاً عميقاً. إنه شاب غريب الأطوار يقضي ساعات وساعات ينادي أمه بصراخ ممزّق: «يمّا... يمّا»، وفي سكون الليل يتخذ العويل صدى مثيراً للشفقة بين جدران زنزانته.

قالوا لي: إنه يضرب أمه، ومع ذلك لا يستطيع الاستغناء عنها. يبدو أن هذا الصبي بحاجة لعطف كبير، لكنهم يتهكمون عليه، فهو بهيمة السجن السوداء. يقضي هذا البائس وقته مختبئاً، يسير بمحاذاة الجدران لكي يتجنب المزاح والضرب بالنفايات التي يطلقونها على رأسه، إنهم يرفضونه وكأنه نذير شؤم. بالقرب مني فقط يجد بعض الشفقة؛ يمسك بيدي بصمت يركّز نظراته عليَّ طويلاً مستغيثاً وكأنه كلب بعينين متعبتين. ويوم خروجي تعلَّق بثيابي باكياً راجياً مني أن أخرجه من هذا الجحيم...

كان جيراني في الزنزانة كردياً عجوزاً مع ابنه الشاب. من المؤثر فعلاً رؤية هذا الصبي، وله من العمر 16 سنة، يساعد والده العجوز ويهتم به، وقد تملَّكه اليأس لأنه لم يعرف لماذا وضعوه هنا منذ أكثر من سنة. متربِّعان وجهاً لوجه يتآسى الأب والإبن بتمضية النهار في تلاوة القرآن الذي حفظاه عن ظهر قلب.

في إحدى الزنزانات المجاورة، تنتظر قرية يزيدية بكاملها أن يُعلَن واحد من بينهم مذنباً مسؤولاً عن جريمة مثلثة تكررت بعد إحدى الغزوات. يجلس شيوخهم الوقورون على الأرض، يحيط بهم المؤمنون، ساعات طويلة في الساحة التي تتألف من مئة متر مربع. وبعماماتهم الواسعة الموضوعة على رؤوسهم وكأنها خلايا النحل، وبمعاطفهم البيضاء الفضفاضة، بعين ثاقبة ونظرة هادئة، وعليهم مظهر الأسياد الكبار، يبدو أنهم يجعلون كل الناس الذين يحيطون بهم مندهشين. تجمع فيما بينهم في الزنزانة، كل مساء، اجتماعات مشبوهة. يشكلون حلقات تتصاعد منها أحياناً أغنيات رتيبة ذات أنغام عجيبة تجتذب اليها الفضوليين المتجمعين عند المدخل، لكن أحداً لا يفهم لغتهم، لأن اليزيديين يستخدمون لهجة خاصة بهم.

فنساؤهم هن من اللواتي جلسن، صبيحة وصولي، حول عربتي أمام مدخل السجن، ينتظرن بفارغ الصبر أن يقبل الحراس بأخذ الطعام الذي يحملنه إلى أزواجهن، فالمحرمات من المأكولات تمثل مكانة كبيرة لدى اليزيديين: ممنوع أكل لحم الديك، والفاصوليا، والسمك... أي حظ بالنسبة للحراس! البخشيش لإدخال الطعام، والبخشيش لتسليمه إلى السجناء.

لماذا بذلت الحكومة العراقية ما في وسعها لتخبىء عني

هؤلاء اليزيديين البدائيين؟!. لم أتصور للحظة واحدة أن تكون لي المناسبة بأن أكون إلى جانبهم خلال عدة أيام في السجن. لكنني لا أستطيع أن أستفيد من ذلك. فاليزيديون يشكلون عالماً صغيراً لوحدهم، منكمشاً على ذاته. لا يتحدثون أبداً إلى العرب، ويبدو أنهم لا يشعرون بهم.

ومرت الأيام هكذا في معدل اللقاءات. لكن كيف نقيم صداقات متينة في هذا الكون حيث التشويش والقلق يصنعان كائنات تهتم فقط بأفضل مكان وأفضل مأكل.

حذّرني أحد المسيحيين الشيوعيين قال: «يجب معرفة كيف تسكت هنا وأن تتدبر أمرك بحيث لا يفطن أحد لك. تجنَّب كل الناس. فكل ما تقول سيتم نقله فوراً إلى الحارس».
كيف وصل الشيوعي العجوز إلى هذا السجن؟ كان لاجئاً في ألمانيا الشرقية طوال عشرة أعوام في الوقت الذي كان يُشنق فيه الشيوعيون في بغداد. وذات يوم وصل اليه العفو العام بعد اتفاق بين الدولة العراقية والبلدان الشيوعية. أصعدوه بالقوة إلى الطائرة في برلين الشرقية. كان لديه الوقت فقط لتقبيل أهله في الموصل قبل أن تعتقله الشرطة مرَّة جديدة. لم يكن لديه الكثير من الأوهام: ضغط أو تطهير، وسيجيء دوره.

يستدعيني مدير السجن كل يوم إلى مكتبه ليقول لي بأنني سأنقل غداً إلى بغداد. كان يعاملني أفضل مما يعامل السجناء

الآخرين إذ يقدِّم لي الشاي والحلوى. لكن ضيافته ليست إلا ظاهرياً، لأنه يلفظ كلمة بغداد مع ابتسامة خفيفة، ثم يختتم بهذه العبارة فقط: شرطة أخرى (بالإنجليزية). وجدته مقرفاً وقحاً مع تلميحاته الدائمة: «هنا، جنة. بغداد، شرطة أخرى...» وتحوّل هذا النفور الذي أثاره في نفسي إلى قرف عندما استدعاني للمرة الأخيرة. وكعادته قال: غداً، بغداد... ما من شيء ظاهري يمكنه أن يخرجني من هذا المألوف الذي اعتدت عليه، لو لم ينسَ على مكتبه نص البرقية ـ نداء مستعجل بسيط ـ موجَّه إلى عائلتي وقد سلَّمته ليل أمس إلى سجين تركي محرَّر سيذهب إلى اسطنبول. من أجل أية خطوة خانوني؟ هل هو ذلك السجين الذي رآني أعطي الرسالة إلى التركي، والذي اقترب مني هذا الصباح مرتاباً قائلاً لي: «لماذا أعطيت بعض الدارهم إلى التركي»؟

عودة إلى بغداد

تخيفني بغداد، وهل بدون لذة أيضاً سأجد أغراضي سليمة وكتبي التي أحب. ثمانية أيام في السجن، ثمانية أيام مكروهة، الآن، سأفعل أي شيء للبقاء هنا، بين هذه الجدران الأربعة لكي أذوب بين هؤلاء السجناء، وكأنني في شرنقة تحميني. بالرغم من كل شيء، فوجودهم يطمئنني وقد ربط بيننا التضامن.

نعيش بشكل أفضل في الموصل، قال لي الشيوعي العجوز؛ «موصل، جنة». كما ردَّد المدير على مسمعي دائماً. هل كان صادقاً وأراد أن يحتفظ بي مدة أطول؟

والآن أجد نفسي مرة ثانية بين جنديين يرافقاني، دون طيبة ذلك الجندي الحاجب الذي قادني من الحدود: بندقيتاهما على ركبتيهما، والإصبع على الزناد، يراقبان بدقة كل تحركاتي، لا يُبعدان نظرهما عني. أحسست أن المواجهة تقترب. لا تستعجل باتجاه بغداد، كيف الهرب إذاً؟، كيف أستطيع أن ألفت إليَّ نظر أحد الأجانب؟. لا توجد إلا فكرة واحدة في رأسي: الهرب. أية سخرية، الحارسان ينامان...

في بغداد، لم نتوجَّه نحو السجن بل توجهنا إلى حي رئاسي أنيق فيه ممرات واسعة، في الحدائق المجاورة لدجلة، مليء بصراخ الصبية وألعابهم. ليس لدي بذلة رسمية ليستقبلونني في فيلا مموهة. عندما اجتزت الباب، تغيَّر المشهد: حراس مسلحون، فتيان، مراقبة الهوية، وجوه قاتمة، وجو ضاغط. نزلت في طابق تحت الأرض، أمام عدد كبير من الأبواب الحديدية؛ إنغلق أحدهما عليَّ؛ الأثاث الوحيد: فراش من قش، وصحن للطعام، ولمبة في السقف. التزيين الوحيد: آثار من الدماء على فراش القش وعلى الجدران. بالكاد وجدت نفسي وحدي حتى دوَّت بعض

الضربات قادمة من زنزانة مجاورة، لكنني لم أستطع أن أحلَّ لغز هذه الرسالة.

في اليوم التالي، نقلني شابان فتيَّان ـ لم يتجاوزا السبعة عشر عاماً ـ اقتاداني، في عربتي دائماً، باتجاه مكان آخر. ليس أكثر من خمسمئة متر فقط، فيلَّا ثانية، الحراس المدنيون أنفسهم. جرى استجوابي في غرفة وأمامي شخص يتأملني وهو يلعب بالمسدس. يخرج، يعود، ثم يستعمل الهاتف. إنتظار طويل لا يُحتمل وجهاً لوجه. وأخيراً، قرَّر، فجلس على طرف مكتبه: أنت عميل سري.

ـ إذا كنت تسمي عميلاً سرياً من يهتم بأقليات بلادكم، فأنا عميل. إبتسامة ارتياح. «لكنني لست عميلاً سرياً لكم، مع الأسف». تقطب وجهه.

ـ نعرف أنك عميل سري.

ـ حفظت جيداً أمثولتك.

ـ لدينا براهين.

ـ براهين أم لا، تعرفون أكثر مني أنني لست عميلاً سرياً.

ـ قال هذا الكلام غيرك من قبلك، لكن سنرى فيما بعد، لدينا الوقت والصبر.

أعادوني مرة أخرى إلى سيارتي حيث قادني الحارسان باتجاه مكان آخر لن أعرفه أبداً. توجَّب عليَّ بضعة ثوان لكي أتحقق من أننا نمر أمام سفارة بلجيكا. يمكن أن تبدو هذه

الصدفة كأعجوبة من قبل متشكك مثلي، ومع ذلك شعرت بقوة، أعجوبة أم لا، ـ سمِّها القدر ـ تحمل لي خشبة الخلاص التي لم أتردد ثانية واحدة بالتشبث بها. وكان الشابان اللذان تنقصهما التجربة عاجزين عن توقيف كل الطاقة التي جمَّعتها خلال بضعة لحظات لأندفع خارج السيارة وأنطلق مسرعاً في حدائق السفارة. فقدا رشدهما، فركض أحدهما يطلب النجدة. خرجت من السفارة، وأمسكت بالحارس الثاني، شاتماً إياه بكل ما لديَّ من قوة، ووجهت اليه رشقة من الكلمات لم أكن أعتقد أنني قادر على القيام بها؛ وقفزت إلى عربتي، وقدتها إلى داخل السفارة، وأصبحت بين يدي السفير الذي قلت له بغضب:

«ماذا تفعلون هنا...؟ منذ عشرة أيام وأنا تحت رحمة هؤلاء العاهرين، ولا تفعلون شيئاً»! لا، لم يكن يعرف شيئاً. لم يجازف فرنسيًا الموصل بتسليمه رسالتي المستعجلة.

كان السفير رائعاً. بعد ثلاثة أيام، حصل لي على تصريح: رافقني موظف من وزارة الخارجية العراقية حتى الحدود لقاء إمضاء يلزمني بألَّا أزعج أبداً الشرطة العراقية. إنني لست حقوداً. طلبي الوحيد أن يعيدوا إليَّ أفلامي، وتحقيقاتي وبطاقتي الصحفية.

أمام مركز جمارك زاخو، استعدَّ مبعوث الوزارة لوداعي ولكن ليس بدون بعض التأثُّر لأننا عرفنا كيف نتعرَّف إلى

بعضنا خلال ذلك النهار، فتحولت ريبة السفر تدريجياً إلى صداقة حقيقية؛ «إلى اللقاء، أتمنى لك حظاً جيداً في تركيا مع ابراهيم». في هذه اللحظة، وصلت سيارة كالإعصار. نزل منها أربعة مدنيين، وانقضّوا علينا، وانتزعوني من عربتي. وفي غضون لحظة سقطت كل الحقائب على الأرض، وهبطت عجلات السيارة أيضاً، وانقلب كل شيء ظهراً لبطن، وفتّشوا كل شيء: المحرك، هيكل السيارة؛ تدخَّل موظف الوزارة، لكنهم سرعان ما هددوه، ثم ضربوه، ورأيته يختفي، وهم يقتادونه بالقوة وهو يصرخ، «أعتذر، سيدي. لا أستطيع أن أفعل شيئاً». (بالإنجليزية).

إذا تحدثت عن هذه القصة فذلك لأنني وجدت نفسي بعد ساعة، في ظلام كامل، يؤاسيني بعض الرجال الأتراك بعد أن تمَّ تجريدي من كل وسائل عملي: المحفوظات والصور والمخطوطات وشرائط التسجيل وحتى من دراهمي، من قبل شرطة لم تحترم الإجراءات المتخذة رسمياً من وزارتها. جئت أبحث في هذه البلاد عن تراث هو ملك لكل البشرية، لكل واحد منا. ما من أحد لديه الحق في إخفائه عن العالم، لا تراث ابراهيم، ولا تراث النسطوريين ولا تراث الشيخ عدي.

أدركت أنني أجازف بخطر فظيع. وقد علمت، بدون دهشة بعد عام، بالمصير الذي لقيه «ألكسندر ليندر أورونسون»

المواطن الهولندي، الذي أوقف في كردستان، قبلي ببضعة أيام في آذار/مارس عام 1975، لأنه قام بصفته طبيباً ببعض النشاطات الإنسانية البحتة بين القبائل الكردية. اتُهم أورونسون بالتجسس وشُنق في بغداد في كانون الثاني/يناير عام 1976 دون أن يتمكَّن أحد من رؤيته.

الفصل الثامن

العبور من تركيا إلى بلاد سريان

جاك

التطابق في الرحلة التي قامت بها قافلة ابراهيم كانت موضوع فرضيات عديدة. طريقان محتملان رجَّحهما أخيراً المستشرقون: الطريق التي تحاذي الفرات، والتي جعلتها تنقيبات «ماري» الأثارية، الأكثر احتمالاً، وتلك التي تمر بآشور بمحاذاة ضفاف دجلة التي تبتعد عنه باتجاه ضواحي جزيرة بن عمر قبل أن تلتحم غرباً بالسهل الفسيح المشرف على ارتفاع ألف متر. سنتبع هذه الطريق الثانية لأنها ستسمح لنا بأن نجتاز، على طول الحدود السورية ـ التركية، منطقة جبلية وشبه قاحلة، منطقة طور عابدين، التي كانت خلال القرون الوسطى المركز الذي توجد فيه المؤسسات الرهبانية السريانية ـ اليعقوبية بوفرة[*]، إلى درجة يمكننا القول فيها بدون مبالغة إنه كان «جبل أتوس الشرقي».

(*) راجع الملحق: الانتداب.

قبل القرن التاسع عشر، كان قليل من الرحالة قد توصلوا إلى الدخول إلى قلب هذه البلاد، التي تبقى حتى أيامنا هذه أيضاً مفضَّلة بالنسبة للمكتشفين، المؤرخين منهم وعلماء الآثار. لم يجر البحث أبداً، بشكل منتظم، في دراسة الكنائس القديمة التي يعود بعضها إلى العصر ما قبل ـ القسطنطيني. ولا تزال الأديرة تخبىء كنوزاً تنتظر البحاثة الساعين وراء مخطوطات قديمة، أو الراغبين في دراسة الفن المسيحي القديم لبلاد الرافدين.

أسقف ليس كالآخرين

في وسط هذه المنطقة مديات، آخر مدينة مسيحية بكاملها في تركيا؛ تتجاور مع مدينة جديدة مسلمة تطورت منذ بضعة عقود على مسافة كيلومترين من هنا.

فتشت جيوبي لأجمع آخر القروش، بعض الليرات التركية التي ستوفر لي إرسال برقية من خمس كلمات فقط، مما يطئمن عائلتي: وصلت بصحة جيدة إلى تركيا، قبل أن أفتش عن وسائل أخرى لأتابع رحلتي. ويبدو لي أن ضيافة السكان ستموِّن موردي الأخير. لكن هنا، بخلاف ما يحدث في مكان آخر، المسيحيون لا يعرفون اللغة العربية، إنما يستخدمون التركية ويتكلمون، بصورة أساسية، لهجات محلية تُستخدم دائماً كلغة طقسية. رحت أتجول في المدينة طيلة

ساعات وأنا أفتش عن أحد أتحدث اليه. لم أجد أي صدى لأي سؤال، ما من جواب أبداً. فتشت دون جدوى عن كنيسة: لا وجود لظل قبة جرس. وبعد أن يئست رحت أتكلم بصوت عال بعض الكلمات العربية. تعبير سمعته لدى الأقباط في مصر والموارنة في لبنان كذلك لدى الروم في القدس: أنا أبونا (إنني كاهن).

تفتَّح وجه صبي فتيّ على ابتسامة عريضة. فقادني عبر متاه من الأزقَّة المقفرة، أشمُّ رائحة الغنم والخيل، ثم أشار إلى أحد الأبواب الذي يطل على ساحة مليئة بالدجاج، وفي وسطها تتأرجح ثياب مغسولة متعددة الألوان. وفي إحدى الزوايا، تنتظر عربة للقش حمولتها. نعم هذه هي الكنيسة! استعدّيت للرحيل. فشجعني الصبي الذي يقف ورائي: أبونا، أبونا. وبطبيعتي الفضولية، وبما أنني لن أخسر شيئاً، قررت أن أصعد الدرج. دفعت الباب ودخلت إلى الغرفة. يظهر أنَّ عجوزاً وقوراً ينتظرني؛ لم يفاجئه دخولي على كل حال. ثم... وصل بعض الكهنة بثيابهم الرسمية السوداء.

هذا الباب، وفناء الدجاج هذا، والغسيل المنشور والعربة، كلها، تخبىء أسقفية مديات. كنت قد مررت أكثر من مرة أمام هذا البناء البائس مثل غيره، لا أكثر ولا أقل، دون أن أكترث له. لأنه لا يوجد في مديات بناء فريد، كل الأبنية

فيها ذات تشابه حزين ورتيب، وسكانها فقراء جداً. تصوروا أسقفاً يقيم فوق خمّ للدجاج!

إستقبلني الأسقف «يعقوب إيزيك» ببساطة عادية جداً، وسوف يعتني بي، خلال أسبوعين وكأنه سامري طيب. ليس لقاعة الاستقبال بذخ قاعات مسيحيي بيروت و القدس. فالغرفة صغيرة ومعتمة، فيها فناجين صغيرة ورقيقة، وقهوة مرَّة ومعطَّرة.

تدل سماكة الجدران والنوافذ الضيقة على قساوة الشتاء. تتدلى من السقف لوحات ضخمة، مرسومة بشكل ساذج، لتمثل أساقفة الماضي غارقين في ملابسهم الطقسية، وتصفيفات شعرهم الذي يبدو، على شكل كرة واسعة، قيل لي، إنها مستوحاة من الـ «الأفود»، وهي قبعة يلبسها اللاويون اليهود وكبار كهنة الهيكل. وهذا الاختيار ليس من قبيل الصدفة، بل على العكس، لأنه على غرار الكنيسة النسطورية، وربما أكثر، تدَّعي الكنيسة السريانية أقدمية رسولية قريبة جداً من الأساس اليهودي، هي مسيحية ما قبل البوليسية بمعنى ما. يحمل رئيسها دائماً لقب بطريرك أنطاكيا وسائر المشرق. يعتبر نفسه وريث الكنيسة الأنطاكية تلك التي سُمي أعضاؤها لأول مرة بالمسيحيين. في هذه المدينة، وفقاً للتقليد السرياني، أقام القديس بطرس أول مقر أسقفي، في مغارة كانت أول كنيسة حيث أرسى فيها أسس المؤسسة

المسيحية قبل أن يبحر إلى روما. وكل كنيسة منشقَّة، تريد أن تتباهى بهذه الرسالة النبيلة، وبالتالي، تريد أن تحظى بتأييد مفهومها المسيحي عليها بمواجهة الإدانات التي كانت هدفاً لها.

بدعة الطبيعة الواحدة

ظهرت بدعة السريان في اقتفاء بدعة نسطوريوس، وأدينت عام 451 في مجمع كلدونيا. والى هذه العقيدة المنشقة، المسماة «ذات الطبيعة الواحدة»، بقيت، حتى يومنا هذا، أربع كنائس مؤمنة بها هي: السريانية، والأرمنية، والقبطية، والأبيسية وتضم ما يقارب 40 مليون مؤمن.

لم يعترف المؤمنون بالطبيعة الواحدة إلا بطبيعة واحدة للمسيح، الطبيعة الإلَهية، وهكذا تعارضوا مع العقيدة الرسمية التي اعترفت بشخص واحد في المسيح، ولكن بطبيعتين: الأولى إلَهية والثانية بشرية. هذه العقيدة في الطبيعتين سميت الطبيعة الثانية بالمعارضة مع أصحاب عقيدة الطبيعة الواحدة. بالنسبة لبعض آباء الكنيسة، كان القبول بالطبيعتين يوازي ابتلاع المسيح للضرورات البشرية (الجوع، العطش، النوم الخ...) وذهب الأكثر تطرفاً من بينهم إلى إنكار أن المسيح قد تألَّم وهو على الصليب.

«فما رأي أبونا بول ـ جاك في هذا الشأن؟» سأل

الأسقف يعقوب إيزيك، بينما نحن نناقش في هذه المذاهب مع بعض المساعدين. أبونا! اعتُبرت أكثر من مرة كاهناً أثناء مثل هذه المناقشات لأنني كنت أعرف عنها أكثر مما يعرف الرهبان أنفسهم، وهم أناس جهلة غالبَ الأحيان، هنا في ميديات وفي غير مدينة، لم يدر في ذهني أن أجعل منهم متصوفين. ويبدو أن الأسقف أيضاً قد خاب ظنه عندما اعترفت له بأنني لست سوى سينمائي. عندئذ، لكي لا يخسر شيئاً بالمقابل، ناداني باسم «الدكتور» وهو تعبير أقل التباساً ولكنه أكثر ادعاء.

خوف المسيحيين

وصل ابن شقيقته الشماس قادماً من لبنان، حاملاً أخباراً جديدة، من هذا البلد الخرافي، أخباراً سيئة. عادت المعارك عنيفة بين المدنيين اللبنانيين والفلسطينيين. عاشت المدينة أياماً عديدة من الرعب: تعذيب، وجرائم، وخطف. اغتيل إثنان من الطائفة الصغيرة في المصيطبة في وسط بيروت. في هذا الحي حيث لا يُعدُّ المسيحيون أكثر من بضعة مئات فقط، يكفي لقتيلين أن يُغرقا كل العائلات في الحزن.

تُذكِّر هذه المأساة بالأوقات الصعبة القديمة: اضطهادات عام 1915، والجوع الذي أفرغ البلاد. في عام 1924 كان على البطريرك أن يترك مقرَّه التاريخي في دير الصرفند إلى

مقر آخر أكثر أماناً في حمص في سوريا. كان عددنا 200 ألف قبل الحرب العالمية الأولى. كانت كل البلاد لنا. ونحن اليوم 20 ألف نسمة لا أكثر موزَّعين في ثلاثين قرية تحت رحمة الأكراد واليزيديين. ولم يتوقف الشماس عن التأوه والتحسُّر طوال الرحلة التي قمنا بها معاً حتى دمشق بعد خمسة عشر يوماً.

هاجر الشماس وعائلته اليوم إلى السويد حيث يعيش أكثر من عشرة آلاف من طائفته. لكنهم أكثر من خمسة ملايين في التيه، هؤلاء المسيحيون الشرقيون. بالنسبة لكلداني العراق مثلاً، تسمى مدينة ديترويت الأميركية بكل بساطة تل كيفا(*) الجديدة. وهو إسم قرية في كردستان، منذ أن هاجرت اليها أغلبية السكان المسيحيين بعد أحداث عام 1960.

تبدأ جلجلة مسيحيي الشرق منذ موت النبيّ محمد عندما فرضت عليهم جيوش الخلفاء، مع احترامها للأديان المتحدرة من الكتاب، إجراءات قاسية: كالجزية(**) مثلاً، أو وضع إشارات مميزة، كالشريحة المستديرة والعمامة أو الحزام من لون معيَّن. ويتذكر حتى اليوم قدماء رجال الموصل أنهم رأوا آباءهم يحملون في حزامهم خرقة يتنشَّف بها المارة

(*) راجع الملحق.

(**) ضريبة الأعناق.

المسلمون. وخلال عدة قرون، لم يكن أمام المسيحيين خيار إلا بين صفة أهل الذمة أو الارتداد أو النفي. يقولون اليوم في المشرق لقد «مزقوا الحزام» للدلالة على خروجهم على تلك الأنظمة حتى أن المتمرد الكردي المسلم ملّا مصطفى البرزاني الذي أعطت قبيلته أكثر من دزينة من الأساقفة، كان من الفئة النسطورية.

مع مجيء المرحلة الحديثة وشؤم أعوام 1840 ـ 1860(*)، بدأت تنمو فكرة القومية العربية خاصة عند المسيحيين الذين وجدوا فيها مناسبة للتحرر من النير الإسلامي.

وبتشجيع من الدول العظمى، راحت بعض الطوائف المسيحية تعلل نفسها بأمل إقامة قوميات مستقلة، منفذة ما قاله أحد بطاركتهم. إن مثل «روبن دي ـ بوا» أو (روبنهود) الذي يلوح بالسيف بيد ويحمل الصليب بالأخرى هو الذي يمكنهم بالنهاية أن «يعلّموا النفوس ويعتنوا بالأجساد ويحموا الناس». وقد رأينا كم دفع الأرمن ثمن ذلك، إذ تحولوا في الوقت الحاضر إلى الهجرة.

أما مأساة الشعب الآشوري فهي مستمرة دائماً: عندما هُزموا لأول مرة في جبال «هاكياري» إبان الحرب العالمية

(*) مقتل مسيحيين في لبنان ودمشق.

الأولى ،لجأ 60 ألف نسمة من بينهم إلى ما وراء الخطوط البريطانية، في مخيم باكوبا شمال الموصل. وفي عام 1933، هؤلاء النسطوريون أنفسهم، وقد أغرتهم الوعود الكاذبة البريطانية، حاولوا مرة أخرى خلق قومية آشورية. فقامت الدولة العراقية الفتية، المستقلة منذ سنة، بتحويل أملهم إلى هباء في حمَّام من الدم. ولم تنتهِ مع ذلك تجارب هذا الشعب بعد، فهم الآن أسرى أو لاجئون في كردستان، متعاونون مع المقاتلين الأكراد، يتكبدون، في كل تمرد في هذه السنوات الأخيرة، خسائر وخيبات قاسية جداً: ثلاث عمليات قمع منذ ثلاثين سنة. وقد كانت العملية الأخيرة في آذار/مارس عام 1974، ومنذ بدء العمليات الحربية، أمر البطريرك الآشوري في زاخو طائفته بدعم المتمردين.

وما إن سقط النير العثماني، ـ تلك السلطة التي تعني الإسلام ـ حتى ارتكبت القومية العربية الخطأ نفسه، وهي تدين بالكثير للمسيحيين، بتأكيدها على مساواة جديدة: العرب يعني الإسلام. وأصبحت كل أنظمة البلدان العربية إسلامية، وتستوحي قوانينها من الإسلام باستثناء لبنان، «إن هذا الأمر جعل عشرة ملايين مسيحي عربي غرباء في بلدانهم»، هذا ما كتبته عام 1961 صحيفة الطائفة الأرثوذكسية في دمشق، «الحركة»، والتي ذكَّرت في المقال نفسه بتصريح البطريرك صايغ في عظة الفصح عام 1945:

«إن كل عودة إلى الإسلام، في الدستور، تعني جعل المسيحيين لاجئين في أوطانهم».

المسيحيون ليسوا على وفاق

ولو كان المسيحيون على الأقّل متحدين، فالتقدم الساحق كان نتيجة لذلك الكره الشديد بين النسطوريين والسريان الذين غذَّوه تجاه الآخرين، من خلال النفور الذي أظهره المنشقون تجاه بيزنطية القديمة والملكية، وبعد بضعة قرون، من خلال التنافس بين الروم واللاتين. ففي ظل السلطنة العثمانية، راحت كل كنيسة تسعى للحصول على امتيازات من الباب العالي، وذلك على حساب الكنائس المتخاصمة. إذ لا وجود لأي تسامح بين النسطوريين وأصحاب الطبيعة الواحدة، والروم الأرثوذكس والموارنة.

«تأتي من الموصل»؟ لاحظ كاهن من طور عابدين، لقد التقيت إذاً بأنصار الشيطان؟ اعتقدت أنه يريد أن يحدثني عن اليزيديين. لا! إنه يعني بذلك النسطوريين. وأضاف قائلاً: «هل تعرف أن هؤلاء النسطوريين، قبل الاحتفال بسر القربان المقدس، يرشون على المذبح دماً طازجاً. وهم ينكرون حتى الخطيئة الأصلية، ويعتقدون بأن الروح لا تدخل الجسد إلا بعد أربعين يوماً من الحمل». إن ذلك صحيح بالنسبة للخطيئة الأصلية وللروح، وهذا أحد الاعتقادات النسطورية، ولكن

بالإضافة إلى بعض نقاط هذا المذهب فالكنيستان تغرقان في نفس قالب التقليد المسيحي القديم، ولهما عادات وتقاليد لا تتشابه أبداً.

بطريرك عجوز في الدير

بعد الصدمات الانفعالية القوية في العراق، كانت الأيام التي قضيتها لدى أسقف ميديات مريحة جداً. استفدت منها لدراسة الهندسة المعمارية القديمة جداً للكنائس، وتأملت بشغف كل الشعائر الدينية القديمة التي يحافظ عليها هؤلاء المسيحيون.

ذات يوم، اصطحبني الشماس لزيارة أحد الأديرة حيث يعيش بطريرك عجوز، منعزلاً في إحدى الغرف، هو «أفرام بيلسيتش التسعوني»، يقضي النهار جالساً على فراش من القش يستمع إلى قراءة يتلوها عليه صبي فتي. وعلى هذا الأخير أن يتلو النصوص بشكل خاص، وهو يرنمها، وعندما لا يعجب الصوت العجوز السريع الغضب، يزجره ويوجه إلى فخذيه العاريين بعض الضربات بواسطة شبكة الذباب. وعندما عرف أنني أملك عربة أراد القيام بجولة أخيرة لرعياته.

كان وصوله إلى القرية الأولى مفاجأة. فتراكض كل السكان: تركت النساء عملها في جلب المياه، وغادر الأولاد المدرسة مسرعين، بينما تراكض الرجال المنهكون في الزراعة

عبر الحقول للوصول إلى الكنيسة، حيث وُضع البطريرك فيها بعناية طبعاً. وفي القرى الأخرى، تم اعلام السكان بواسطة الهاتف العربي، وبدأت الاستقبالات تتخذ طابعاً رسمياً كلما تقدمنا. ينتظر الأولاد الآن على الطريق، على مدخل القرية، متعلقين كالعناقيد على مؤخرة العربة، أو لاحقين بها صارخين دون الاهتمام بغيوم الغبار التي يثيرها مرورنا. تقف النساء على السطوح وترش على الموكب ماء الورد مع إشارات صليب كبيرة، بينما القيمون على القرى، المسيحيون منهم والمسلمون، وعلى رأسهم الكاهن، ينتظرون في صف طويل في ساحة القرية تحت شمس ملهبة. وتسنى الوقت لتحضير وليمة في الكنيسة. وبعد تناول الطعام، اندفع الجميع إلى الداخل بأمل الحصول على بعض فتات وليمتنا. كان عليَّ في ذلك اليوم أن ألتهم ثلاث ولائم!

إحتفظ بي البطريرك لديه بضعة أيام. لم يكن في ديره إلا أربعة رهبان فقط. أثناء النهار، يذهب الرهبان إلى الحقول لتنظيفها من الأعشاب، وللاعتناء بدوالي العنب، وقطع الحطب؛ يستخدمون بضعة عمال زراعيين. وهؤلاء، يسكنون داخل الدير بشكل مستقل تماماً. أقاموا فيه بضعة أكواخ من الخشب ليُسكِنوا عائلاتهم فيها، مما يشكل نوعاً من قرية صغيرة بائسة للغاية.

يدير الرهبان أيضاً مدرسة داخلية تضم أربعين صبياً،

يرتدون زياً واحداً رمادياً، وكلهم حليقو الرأس. كانت الإدارة موكولة إلى عشر راهبات، نوع من راهبات المحبة يقمن في بناء منفرد، دخول الرجال اليه ممنوع. لا نراهنَّ إلّا في المطبخ، وعند آبار المياه، وفي الكنيسة في الزاوية المعتمة فيها مخبئات وجوههن وراء شالٍ أسود طويل.

كانت حياة الدير بطيئة هادئة جداً ومنتظمة؛ يشار إلى وقت الطعام بدقة جرس صغير. في هذا الوقت، يجتاز التلامذة الداخليون بالصف، الملعب الأبيض الواسع، ثم نسمع وشوشة صلاتهم يتبعها ضجيج الصحون؛ بالنسبة للبقية إنه السكوت. هكذا كنت أتناول وجبات الطعام على طاولة الرهبان الأربعة.

أما في مساء يوم الجمعة فإن الدير يرتدي نوعاً جديداً من الحياة. إذ تصل اليه بعض العائلات، سيراً على الأقدام بصورة عامة، وأحياناً بواسطة سيارات مسجلة في ألمانيا؛ إنهم شغيلة مهاجرون يرجعون، بعد عدة سنوات من الغياب، ومعهم ولد أو ولدان، لكي يعمِّدهم الرهبان. ينهمك رجال الدين، ويحضرون أسرَّة من القش على السطوح، وفي صالات النوم، حتى في الكنيسة. يوجد خمسون سريراً تحت تصرف الزائرين الذين يرافقهم أطفالهم الرضَّع. تفرِّغ كل عائلة ما تحمل من مأكل، وتطبخ؛ ومنذ يوم السبت، تتخذ ساحة الكنيسة، وحتى الكنيسة ذاتها، طابع الفندق الحقيقي.

وداخل المعبد، يبدأ الأولاد بألعاب الكاوبوي والهنود بين المرضى والأطفال.

يتوجب على البطريرك خمس دقائق لكي يجتاز، بمساعدة بعض التلامذة الداخليين، المئة متر تقريباً التي تفصل ما بين غرفته والكنيسة. ينتقل يوم الأحد فقط لحضور الذبيحة الإلّهية التي تستمر ثلاث ساعات. ما من شيء يختلف عن الطقس النسطوري أو الكلداني: إفراط في الضجيج، وترانيم متنافرة النغم وسط غيوم من البخور، كل ذلك في ظل تخترقه فقط أضواء بعض الشموع. بعد الذبيحة، يبدأ الرهبان بتعميد بعض الأطفال، بتغطيسهم عراة في أجران العمادة، بينما تبدي النساء فرحتها بأطلاقها الزغاريد الثاقبة.

عودة إلى بيروت

كان الشماس اللبناني يعقوب الخوري ينتظرني أمام أسقفية مديات. يهيىء لي مفاجأة: كانت حمولته بعض أكياس القمح، وجراراً من الجبن الأبيض، وحزماً متنوعة وبعض الحقائب. بدأ بتحميل السيارة دون أن يسألني رأيي. ولأنه كان يدفع ثمن البنزين والطعام، لم أتمكّن من أن أعارضه.

مفاجأة ثانية: توقف في ديريسي، آخر قرية مسيحية على محور «مديات ـ ماردين». عشرون شخصاً ينتظرون على حافة الطريق: أكياس جديدة، حقائب أخرى، بالإضافة إلى مسافرة

واحدة. لم تخرج أبداً من قريتها، وكانت تبكي وتنهمر دموعها الحرَّى، ويشاركها في النحيب كل تلك المجموعة الباكية. بعد ساعة من العناق الذي تجدَّد مئة مرة، وتردد في السفر عشر مرات، تمكنوا من وضع المرأة الشابة فوق كومة الحقائب. واستطعت عندئذٍ أن أنطلق في طريق الغرب؛ رحلة بطيئة، ورتيبة، مسافتها أكثر من ألف كيلومتر، وذات بضعة مراحل: قضينا الليلة الأولى في دير الصرفند الكبير، بالقرب من ماردين؛ ومحطة أخرى عند مسيحيي «أورفه»(*)، وثالثة عند أسقف حمص، وفي نهاية الطريق في دمشق في الحي السرياني المزدحم الرائع.

وكان السوريون يخبئون لي مفاجأة أخرى. على الحدود، استقبلني رئيس الجمارك بمراعاة كبيرة. ودعاني إلى صالون مخصص للضيوف وقدم لي القهوة منحنياً «أهلاً وسهلاً بك في سوريا، نحن بانتظارك». لم يعد أمامي إلا أن أتقدم من وزارة الإعلام مشيراً إلى ما أرغب في تصويره. لم ينسني السوريون! اخترت المنطقة التي يسكنها الدروز. وخصصوا لي مترجماً فوق العادة وهو ابن الحفيد الصغير للأمير عبد القادر(**).

(*) أورفه: راجع الملحق.

(**) أمير عربي جزائري حارب فرنسا من عام 1837 حتى عام 1847، ونفي إلى دمشق من قبل نابليون الثالث.

بعد أسبوعين، رجعت إلى بيروت لكي ألتقي بكل عائلتي لقضاء العطلة. وبرفقتهم طفت في كل المنطقة المارونية، واكتشفت الدراويش البكتاشيين، لكني أيضاً، منذ شهر أيلول/سبتمبر، سأعيش عن قرب الحرب الأهلية اللبنانية، وأخسر بعض الأصدقاء أمثال الصحافي البلجيكي «مارك تيريون»، واختبر مرة أخرى حياة السجون، السجون الفلسطينية هذه المرة. لكن هذه قصة أخرى.

الفصل التاسع

على خطى الموارنة

نيكول

رفّ من النورس يلامس المراكب الوردية اللون، الزرقاء، والخضراء، التي تتموج على مهل على طرف مرساتها. في بداية هذه الصبيحة الهادئة، كنا مستلقين على بسط قطنية، نحترق تحت أشعة شمس جونيه. الرمال لاهبة؛ وعلى رصيف الميناء المبعثر الصخور، ينتظر صياد سمك بصبر.

بعد أن غادرنا مطار بيروت، واجتزنا غابة الصنوبر التي تحاذي المدينة، انطلقنا مباشرة تجاه خليج جونيه لكي نتجنب المدينة اللبنانية العملاقة. وبيروت، في شهر تموز/يوليو هذا، مثل قدر ملتهب فوق مسطّحها الصخري على شاطىء البحر؛ بيروت الزاحفة التي تجمع 50% من السكان العاملين في البلاد ومليون نسمة، و50% من الصناعات وما يقارب المئة بنك، مع بحرها المتوسط الجميل، وحدائقها الحالمة، وهذا الثراء الفاحش المهين الظاهر بشكل مثير.

مع حزام مخيمات اللاجئين أيضاً: أولاً، الكرنتينا، مدينة أكواخ خشبية قديمة تعود إلى الحرب في أعوام 1914 ـ 1918، تعيش فيها أغلبية من الأكراد والشيعة والسوريين، ثم وخاصة المخيمات الفلسطينية الثلاثة، مخيمات محصنَّة المداخل لا يمكن أن تُحصى فيها طلقات النار والأحداث الدامية؛ يقارب عدد سكانها 250 ألف مقتلع من أرضه مصابون بسوء التغذية ويفتقدون إلى العناية الصحية، وعملياً بدون مدارس: مخزن متفجرات حقيقي!

في الربيع، كانت بداية حرب أهلية جعلت المدينة في وضع ميؤوس منه.

اليوم، يخيم على البلاد هدوء ثقيل، هدنة بدون أمل، لأن التوازن الهش لـ 18 طائفة دينية، وعدم التوازن الصارخ في توزيع الثروات لم تتم تسويته في بضعة مجالس وزارية نشطة. بضعة مجموعات من السواح اللامبالين بالوضع ما زالت تملأ الفنادق البيروتية الكبيرة، وتبدو المدينة بكاملها تنعم بجنون، بسلامها المشرف على الموت.

لكي نحتفل بلقائنا كما يجب بعد ثلاثة أشهر من الانفصال والقلق، نفضل خليجنا الصغير حيث يستهتر الوقت، وتغفو المياه بين أرصفته الصخرية القديمة. أولادنا الثلاثة، أوليفيه، وبرباره، ورينو، انضموا الينا لقضاء عطلة الصيف. وأمام

حماستهم النسبيَّة بالتأكيد لفكرة تمضية هذه البضعة أيام في طراوة الجبل اللبناني، اخترنا إذاً مكاناً منعزلاً على الشاطىء.

جونيه، تلك التي كانت ضيعة مرحة بشوارعها الصغيرة الضيقة المتموجة كمثل اليسروع، وبمرفأها الصغير القديم، وأناقتها المهملة، تنامت كما الفطر بشكل مذهل. محصورة بين العصرية البشعة للحديد والباطون، بقيت فيها بعض البيوت القديمة ذات الأناقة التي تعود إلى الطراز البندقي الإيطالي، بشبابيكها القديمة، وشرفاتها المفرَّغة وسطوحها الحمراء العالية المكسورة الزوايا.

عندما نجتاز أول خاصرة جبل لبنان، نجد المنحدرات المشجَّرة التي تحيط بنا، تحت سيطرة التمثال الضخم لعذراء حريصا، أو سيدة لبنان. نحن إذاً في قلب منطقة مارونية؟ وهؤلاء المسيحيون، أولاد ابراهيم، وقد قرَّرت «قبيلة كاليبو»(*) اكتشافهم، أو بالأحرى إعادة اكتشافهم، لم تكن المرة الأولى التي نقيم فيها فيما بينهم. لقد سبق لنا في عام 1970 لضرورات تصوير فيلم عن لبنان أن استأجرنا بيتاً صغيراً، مدَّة أربعة أشهر، في برمانا على المرتفعات المشرفة على بيروت. في هذا الجبل إذاً صنعت هذه الطائفة روحها وتاريخها.

(*) عائلة الكاتبة.

للتعرف على الموارنة، يجب العودة إلى الينابيع، ومحاولة الكشف عن نشأة الانشقاقات المضطربة وكنائس الشرق.

يعود إسمهم إلى قديس ناسك هو «الراهب مارون» الذي عاش في نهاية القرن الرابع في شمال سوريا. وحسب الأخبار القديمة، «حوليات تيودوريت دي سير» في القرن الخامس، وكذلك المؤرخ العربي المسعودي في القرن العاشر، والشهادة الأخيرة لـ«أبو الفدا» في القرن الثالث عشر، أقيم دير كرِّس للقديس مارون في عام 452 بالقرب من أفاميا بأمر من الإمبراطور مارسيان بعد مجمع كلدونيا.

لنحاول رؤية ذلك بوضوح.

اللوحة الأولى: حتى نهاية القرن الثالث، عاشت الكنيسة القديمة سر شخص المسيح وفقاً للخطَّين اللذين رأيناهما لدى السريان والنسطوريين بالنسبة للأول، المسيح هو الله الذي اتخذ مظهراً بشرياً (نظرية لاهوتية موحدة(*) يؤمن بها بصورة خاصة الصوفيون ورهبان مصر والإسكندرية)، وبالنسبة للآخرين، فالمسيح هو قبل كل شيء إنسان حامل ـ الله (نظرية ثنائية، تدافع عنها بطريركيات أنطاكية والقسطنطينية).

حتى هنا، كلٌّ يؤمن بما يريد، وكلهم على حق.

ولكن واقعاً جديداً سوف يحدث.

(*) راجع الملحق: التوحيدية.

اللوحة الثانية: بعد موت الإمبراطور الروماني، تيودور الأكبر في عام 395، تقاسم ولداه الإمبراطورية: الشرق لأركاديوس، والغرب لهونوريوس. لم يلق أبداً تقاسم إرث بأكبر قدرٍ من هذا الضغط في ميزان التاريخ. على الصعيد الديني كما على الصعيد السياسي، رأت بيزنطية هيبتها تتعاظم بشكل هائل، فالإسكندرية التي تعود إلى أيام الرسل، والتي تسيطر بدون منازع على فكرة الكنيسة ومصيرها، استقبحت هذا التنافس. وكان «مجمع أفسس» عام 431 حيث حضره ألف من رجال الدين المسلحين بالعصي والسيوف، وقد نجحوا في فرض وجهة نظرهم، بشكل غير صحيح، وحرموا نسطوريوس بطريرك بيزنطية. إنتهى الأمر: في الأديرة كان الرهبان في غليان وكذلك النفوس؛ والبابا غير موافق.

اللوحة الثالثة: تدخَّل في ذلك الإمبراطور «مارسيان» بتنظيمه مجمعاً ثانياً عام 451 في خلقيدونيا، غير البعيدة عن بيزنطية، وحاول رأب الصدع في هذه الكنيسة غير الموحدة، وأعاد تشكيل إصلاحيات رهبانية مضطربة جداً. وبمرسوم إذاً، أقيم أول دير ماروني للدفاع عن الأرثوذكسية الخلقيدونية.

العيش على رأس عمود

قبل الانتقال إلى اللوحة الأخيرة، لوحة الملحمة

المارونية، يجب أن أتحدث عن هذه الشخصية الطريفة التي هي الراهب مارون والعمودية، وهي نوع لحياة غريبة كان هو مخترعها. فمارون، لم يكن بوسعه تصور المسيح إلا مصلوباً، ففرض على ذاته حياة تقشفية قاسية للغاية: الحياة في العراء، تحت صقيع الشتاء أو شمس الصيف اللاهبة. فانسحب أول الأمر إلى قمة أحد الجبال متنسكاً، ولكن، بسبب تدفق الحجاج الذين جذبتهم قداسته، يقول التاريخ إنه أقام عموداً لكي يستطيع أن يتأمل بسلام وهو على رأسه. ويشير بعض المعلقين إلى أنه عاش في أعلى شجرة، وينسبون أصل العمودية إلى القديس سمعان العامودي، تلميذ مارون. مهما يكن من أمر، فالمثل يتوسع دائماً، وشمال سوريا امتلأ شيئاً فشيئاً بالأعمدة المسكونة.

يمكن التساؤل ما إذا كان هذا النوع من الحياة استعرائياً نوعاً ما. ويجيب العامودي أنه نفَّذ كلمة المسيح:

«لا نشعل الضوء لكي نخفي الحقيقة. أنتم نور العالم، ويجب على نوركم أن يسطع في عيون الناس». (متى 50: 14، 15).

على كل حال، كان نوعاً من الحياة ثابتاً، نُذراً دائماً، لأن الأغلبية من بينهم أقاموا عليه ما يتراوح بين عشرين وأربعين سنة.

كلمة أخرى حول هذا الشكل من العيش طريفة جداً: لا

يترك العامودي أبداً عموده إلا إذا وهبه أحد المحسنين عموداً أعلى ليمجّد قداسته. يبلغ طول العمود ارتفاعاً وسطياً يتراوح ما بين 8 و12 متراً، وهو مجهَّز بقسطل لتسريب المياه القذرة، وتعلوه خشبة مسطحة مساحتها أربعة أمتار مربعة، ومزوَّد بحاجز.

يرى بعض المؤرخين في عمود العامودي سلف المئذنة. هناك على كل حال تشابه في الوظيفة: إذ كان المؤذن يدعو المؤمنين إلى الصلاة، فالعامودي يعظ الحجاج الذين يتدفقون حول عموده. ليس لحياته أية رفاهية: صلاة وتأمل من الفجر حتى آخر الظهيرة، ثم تبشير، ثم صلوات جديدة حتى ساعة متأخرة من الليل. لا ينام إلا بضع ساعات ولا يأكل إلا مرة في اليوم، طعام بسيط يوصله إليه أحد أتباعه. ولهذا الأخير المسؤولية للسلَّم الذي يمكن أن يتسلقه من حين إلى آخر بعض أصحاب الرتب العالية، والإمبراطور، واللاهوتيون، والأساقفة، ليتحدثوا مع الناسك.

فجر شعب

أنشئت حول هذه الأعمدة أديرة هامة بلغ عدد أعضائها ثمانمئة راهب. وخلال القرون الثلاثة التالية، تكوَّن تاريخ الموارنة حول هذه الأديرة، مشكلاً مجموعة من السكان تتكلم السريانية والآرامية، تميل إلى الاستقلال الذاتي الديني

والمدني تجاه بيزنطية. فاتهمتهم هذه الأخيرة بالانحرافيين بالاعتقاد بأوحدية إرادة المسيح، وحاربتهم بردع دموي.

بعد الاضطهادات البيزنطية، أبادت مذبحة عنيفة قام بها الفرس كل الأديرة. ثم جاء العرب. وكانوا في باديء الأمر يحترمون أهل الكتاب في ظل حكم معاوية، ثم أصبحوا معادين شيئاً فشيئاً. وفي نهاية القرن السابع هذه، نجد الموارنة الأوائل ينسحبون في مجموعات صغيرة تحت رعاية «يوحنا مارون» باتجاه منطقة أرز لبنان.

اللوحة الأخيرة: هنا، في هذا الجبل الذي يعزلهم، صنع الموارنة هويتهم، كما نحتوا الحجارة فجعلوا منها أرضاً تعطي الخبز والزيت. وكان وجود هذا الشعب مجهولاً من العالم حتى أن الصليبيين، بعد ثلاثة قرون، فوجئوا عندما رأوا عصابات من الجبليين المتوحشين يرحبون بهم، ويقولون إنهم من المسيحيين التابعين لروما. فتسارع بعض المبشرين المخلصين ليعلنوا ولاءهم للبابا، والتخلي عن أخطائهم السابقة، إذا كانت هناك أخطاء. اعتُبر الموارنة إذاً، رغماً عنهم، كهراطقة طوال كل تلك القرون، حيث قاتلوا بضراوة، منعزلين في الجبل، ليدافعوا عن إيمان اعتقدوا أنه الإيمان الصحيح عن حق.

ومن الحق التساؤل، عندما نرى كل هذه المجازر وهذه النقاشات والمجامع الدينية العديمة الفائدة، أين هو الله؟ ألم

يضيّعوه بسهولة على الطريق؟ ولكثرة استخدامه لمآرب خاصة ومصالح شخصية، وزجّه في تحزبات محلية، ألا يبدو أنه قد تبخّر؟

لكن لنرجع إلى الموارنة. فإنهم بعد فشل الحملات الصليبية، رجعوا إلى أعالي جبالهم والى أوديتهم الوعرة، ومن بينها الوادي المقدس وادي قاديشا(*) الأكثر احتراماً، المليئة بالمغاور، تخترقها ألوف فجوات النسّاك، هذا الشرخ الطبيعي الضيق العميق كان بمثابة عرين، خلال عدة قرون، لمطارنة ذوي العصا الأسقفية الخشبية، لكنهم حسب «فارس دارفيو»، «أساقفة من ذهب» طالما أن حكمتهم كبيرة.

هنا في هذا الوادي سيكون لقاؤنا الأول مع التاريخ الماروني.

قبيلة كاليبو تنطلق. ربطت أمتعتها بمتانة على سطح سيارتها القديمة وانطلقت في الصباح الباكر باتجاه الجبل. كان هواء تموز/يوليو عذباً عليلاً. وتطل من عمق أشجار الزيتون والصنوبر المظلل، بيوت متألقة، مرصّعة بالدوالي، تعلوها سطوح من القرميد ذي الأربع زوايا. وعلى خاصرة منحدر وعر، فلاح يدفع عربته الخشبية على حافة جلٍّ ضيق إلى درجة أن المرء يتساءل كيف يمكنه الوصول إلى آخر

(*) الوادي المقدس باللغة العبرية.

الثلم؟ وقد نجح في تغيير وجهة الحيوانين. ومن حين لآخر، ترتفع آثار هيكل روماني، وجدران معبد بيزنطي، في وسط كرم من العنب أو على رأس تلة. والسينمائي العابث يتأثر بعمق أمام الآثار القديمة في مقر الأودية البنفسجية، يفتش عن أفضل زاوية ليقتطف خط الأفق المكفَّن بالثلوج حيث ينعكس عليه عمود محطَّم. إخترنا تمضية هذه الليلة في الجبل، في أفقا، النبع المقدس لأدونيس.

يتدفق النهر من مغارة ضخمة، يتثاءب على خاصرتي مرتفع صخري يقارب علوه 200 متر. وعلى نتوء صخري عند أسفل المغارة ينتصب هيكل روماني. موقع رائع واحد من أجمل ما في العالم، كما قال «رينان». في الصباح التالي انطلقنا لاكتشاف الهيكل الشهير في الأزمنة القديمة المكرَّس لفينوس.

نرى في الأسس المتبقية مدخل النفق الذي يوصل مياه النبع إلى حوض إراقة الخمر الذي يرمي فيه المؤمنون تبرعاتهم. وتحت القنطرة تشتعل لهب مصابيح الزيت باستمرار، وقد وضعها هناك سكان الوادي تمجيداً للسيدة التي تلازم هذه الأماكن: وفي خليط غريب من الطقوس المسيحية والشيعية يمجدون فيها معاً «زهرا» التي خلفت فينوس في لبنان. وتتمرجح خرق من الثياب على شجرة تين تغسل جذورها في المياه الحية. لا تزال الخرافات الوثنية

قائمة دائماً في هذه الأودية اللبنانية العميقة: فتعليقهم الثياب على الشجرة القديمة المقدسة يعني شفاء المرضى الذين يطلبونه من «زهرا». لا تمييز أبداً في هذه الأماكن بين السر والمقدس.

يقال إنه في ليالي الصيف يأتي العشاق ويجلسون على الحجر الحار في المعبد، تذكاراً لأدونيس وللإلّهة، اللذين تبادلا أول وآخر قبلة لهما. ليس غضب الإمبراطور قسطنطين هو الذي بتدميره للمعبد الشهير نجح بمحو العبادة الإباحية التي كانت الآلهة تمارسها.

هنا، كان يحدد التقليد مكان غراميات الإلّه الشاب مع فينوس. كان أدونيس الذي ولد من معاشرة محرَّمة بين سينيرياس ملك قبرص وابنته ميرا، ذا جمال استثنائي. وأصبح عشيق أفروديت وهو مراهق. عندما كان يصطاد ذات يوم في غابات لبنان هاجمه خنزير بري أرسله له مارس الغيور من الصياد وجرحه حتى الموت. عرفت الإلّهة بالمصيبة فاجتازت الجبل وهي باكية فوجدت حبيبها، لكنها لم تستطع إنقاذه، فولدت شقائق النعمان من دم الإلّه الشاب. وفي شهر شباط/ فبراير جرفت الأمطار الغزيرة الأراضي الحديدية في الوديان القريبة من العاقورة وصبغت باللون الأحمر مياه النهر، فقيل يومذاك إن النهر يجرف مرة أخرى دم أدونيس.

واليوم، لا يزالون يحتفلون بأعياد أدونيس الشهيرة التي كانت احتفالات مقدسة في السابق، والتي تغذِّي مخيلات المراهقين في كتب التاريخ. يحتفل بهذه الذكرى مسيحيون ومسلمون خلال ثلاثة أيام وفي ولائم شعبية ملؤها الفرح، يشربون النبيذ الطازج ويسكرون بالعرق ويرقصون الدبكة.

لبنان، إسمك محفور في قلبي

لكي نصل إلى قاديشا، يجب أن ننزل إلى طرابلس أولاً، ثم نصعد طريقاً ضيِّقة جميلة جداً. تعرفنا قرب الديمان، وهو المقر الصيفي للبطريرك الماروني، إلى كاهن، قدم لنا حقله لننصب خيمتنا. بيته الصغير لطيف الشكل مع الجرن الكبير الذي وضع بالمقلوب وسط حائط الدار. أخبرنا الكاهن باعتزاز أنه صنعه بيديه، وذلك واضح للعيان: فمسكنه معرض لأشياء قديمة جميلة تعطي حياة للبيوت كما للأوجه. تساعده زوجته في شؤون الرعية. وتبيَّن أن أولاده هم مرشدون ممتازون لفريقنا في الجبل. وبعد عدة أيام اكتسب بحاثتنا خبرة في الطريق.

نسجنا في المساء، تحت العريشة نقاشات طويلة حول لبنان هذا، أرض مرور الأفكار والأشياء، بثقافاته وأنماط الحياة فيه ودياناته المتنوعة. حول المارونية، الأب بولس.

«هل تعرفون أنه عندما يموت الخوري في الجبل يجري اختيار الأجدر من بين رجال القرية لخلافته؟ فيذهب لمدة شهرين إلى المدرسة الإكليريكية لكي يعتاد على طقوس وواجبات مهمته الجديدة. ثم يعود فيما بعد إلى زوجته ويتابع حراثة أرضه بالإضافة إلى وظائفه الجديدة»؟ يُسبِّح الأب بولس بهدوء بسبحة من حجر العنبر، تماماً كما يفعل المسلم. وتصل لطافته بحيث يفضِّل أن يمزِّق إرباً على أن يعطينا حقائق مزعجة.

وصلنا إلى الغرب، إلى فرنسا، إلى الحلف بين أمير لبنان الماروني و القديس لويس في عكا، الذي لم يعلن عنه أبداً. نهض الأب بولس وجاء من خزانته بكتاب قديم: فتحه وقرأ رسالة ملك فرنسا إلى الأمير الماروني في لبنان:

«إننا مقتنعون أن هذه الأمة التي أقيمت على إسم القديس مارون، هي جزء من الأمة الفرنسية، لأن صداقتها للفرنسيين تشبه الصداقة القائمة بين الفرنسيين أنفسهم. فمن العدل بالتالي أن تحظوا مع كل الموارنة بنفس الحماية التي يحظى بها الفرنسيون عندنا، وأن تُقبلوا في الوظائف كما يُقبلون هم. إننا ندعوكم أيها الأمير الشهير أن تعملوا بتفانٍ من أجل سعادة سكان لبنان، وأن تهتموا بخلق نبلاء من بين من هم الأكثر احتراماً بينكم كما هي العادة في فرنسا. وأنتم سيدي البطريرك، والسادة الأساقفة وكل الأكليروس، وأنتم أيها الشعب الماروني، وكذلك أميركم النبيل، إننا ننظر بارتياح كبير إلى تعلقكم

> الحازم بالديانة الكاثوليكية والى احترامكم لرئيس الكنيسة خليفة القديس بطرس في روما؛ نلزمكم بالمحافظة على هذا الاحترام وبالبقاء دائماً ثابتين في إيمانكم. أما نحن والذين سيخلفونا على عرش فرنسا، نتعهد بمنحكم أنتم وشعبكم الحماية، كما نمنحها للفرنسيين أنفسهم وأن نقوم باستمرار بما هو ضروري لسعادتكم».

وضع الأب بولس الكتاب على ركبتيه وقد بلَّل عينيه الانفعال. وجلس هذا الفلاح المربوع القامة مستقيماً وأضاف: «جاءت فرنسا لمساعدتنا عام 1860 و1917. وغداً، إذا ما وقعت الحرب لن تنسانا فرنسا أيضاً. لكن كيف يمكن أن نتصور الحرب في حين نملك نفس الأراضي نحن والدروز ورسالتنا الجغرافية هي الوحدة في التنوع؟ أنظر إلى الأمراء الدروز في الشوف، الجنبلاطيين و الأرسلانيين الذين يستقبلون منذ القرن الثامن عشر في أوديتهم قرى مسيحية عديدة. فالشهابيون و اللمعيون، هؤلاء الأمراء المسيحيون فعلوا نفس الشيء تجاه المسلمين. فبفضل إقطاعيي القرن الثامن عشر الكبار هؤلاء يسود أمن نسبي في الجبل اللبناني، سلم لا شبيه له ـ على كل حال ـ في أي بلد مجاور».

مسكين الأب بولس! بعد شهرين اجتاح لبنانه العزيز إعصار من النار والدم، و تحولت قرى الجبل إلى ساحات حرب بين المسيحيين والمسلمين، وحتى بين المسيحيين

أنفسهم. فهنا الشمعونيون ضد الحزب السوري القومي، وهناك الكتائب ضد أنصار سليمان فرنجية.

عندما رجع جاك وحده إلى الجبل بعد بضعة أشهر، وجد الأب بولس وقد تحول إلى قائد عسكري، أصبحت كنيسته مخزناً للأسلحة فهو في كل مكان على الجبهة مع محامين ومهندسين وصرّافين، تحولوا إلى محاربين. وفي الجبل، يشارك في تدريب المجندين الشباب ذكوراً وإناثاً، أو في العناية بالجرحى ونقلهم إلى المستشفيات.

قد يروي جاك يوماً ما، الأحداث التي شهدها خلال هذه الأشهر المأساوية، في حين يتوجب عليه من أجل حاجات فيلمه أن ينتقل من معسكر إلى آخر، من الموارنة إلى الدروز، وقد يعرّض ذلك أحياناً حياته للخطر. إلا أن لبنان منذ عام 1917 يبدو مثالاً للتوازن وللتوافق بين الطوائف. فسَّر لنا الأب بولس ذلك للمرة المئة عندما أخذنا ذات يوم في سيارته الفورد القديمة إلى طرابلس. رحلة مجنونة. أطول رحلة في حياتي لأن الأب بولس كان يترك المقود على كل منعطف، بطاقة رهيبة، ليرسم بسرعة إشارة الصليب ثم يعود ويلتقطه بسرعة على حافة الوادي.

بما أنني لم أفهم جيداً فائدة هذه الألعاب البهلوانية، فقد دلّني على السبحات الصغيرة المخصصة للعذراء التي تشير إلى

المنعطفات المزعجة: «بفضل هذا لا أخاف لا الوادي... ولا الإسلام!».

فالعذراء التي أخذت بالدهشة دون شك ببهلواننا وبمظاهره الدينية، أوصلتنا بأمان إلى نهاية الطريق.

نسي الأب بولس مع الأسف أن يقول لنا، ـ إلا إذا كان لم يتذكر أبداً ـ، بأن تأسيس الدولة اللبنانية تمَّ ضد إرادة البعض من أبنائها. وبالفعل، عندما وضع، في آب/أغسطس عام 1920، الجنرال غورو بصفته مفوضاً سامياً في سوريا وكيليكيا، وبحضور الأساقفة الموارنة والأرثوذكس والملكيين، المرسوم الذي يمنح الاستقلال إلى أرض تسمى لبنان الكبير، فهو لم يخبر مسبقاً الطوائف الإسلامية. حصل ذلك ببساطة في مكتب ممثل فرنسا بواسطة ورقة عادية كانت تستخدم لوضع أي مرسوم آخر.

في اليوم التالي، احتجَّ السوريون المسلمون في الأراضي المعنية ـ وكانوا حوالى 350 ألف ـ إلى جمعية الأمم ورفضوا إلحاقهم بدولة مسيحية. حتى المسيحيين، وهم 400 ألف، لم يفكروا أبداً بمثل هذا التوسع لجبلهم، ترددوا خوفاً من ردَّات فعل المسلمين. لماذا إذاً هذا السخاء من قبل الفرنسيين؟ كانت فرنسا تهدف بذلك إلى غاية سياسية: المحافظة بواسطة المسيحيين على نفوذها في الشرق، ذلك النفوذ الذي كان يهدد الإنجليز والأمير فيصل ملك سوريا.

عندما تقرَّر، عام 1926، وضع دستور للبنان الكبير هذا، اجتمع مجلس تمثيلي من ثلاثين عضواً للتصويت عليه. وولدت الجمهورية اللبنانية نتيجة أكثرية ضئيلة من 14 مسيحياً مقابل 11 مسلماً يعترضون على لبنان وثلاثة نواب غائبين! من يعرف ذلك إذاً في الغرب؟

بالطبع، إن الزمن قد رتَّب الأمور. وعندما منح الجنرال ديغول عام 1943 السيادة التامة للبنان، كان المسلمون مع المسيحيين بكل إخلاص لأنهم قاتلوا سوية في الشارع من أجل الاعتراف بهذا الحق. إلا أنه يجب الخضوع للأمر الواقع: لا يزال المسيحيون يتجهون بأنظارهم نحو الغرب بينما يبقى المسلمون قبل كل شيء متضامنين مع البلدان العربية. على أن أقل أزمة تعزز هذين الاتجاهين.

حصلت أول أزمة للدولة اللبنانية عام 1958. فاستمالت عروبة ناصر المسلمين وبعض المسيحيين. والأزمة الثانية، تتعلق بالمسألة الفلسطينية، والخلاف هو نفسه بين مسيحيين قوميين ومسلمين عرب.

وقبل المجابهة الكبيرة في بيروت بعدة أسابيع بدا التوازن بين الطوائف وكأنه قد استقر. إنني أذكر تظاهرة وطنية كبيرة حقاً في الجبل الدرزي صيف عام 1975. كان ذلك بمناسبة رفع الستار عن النصب الفروسي للأمير فخر الدين بحضور رئيس الدولة، ماروني، ورئيس الوزارة، سني، وتشكيلة من

الشخصيات والأساقفة ومشايخ الدروز والنواب من كل الطوائف.

وليمة غداء ـ نصف عيد ريفي ونصف استقبال مديني ـ جمعت مئات الضيوف لدى أحد الوجهاء على ضفة نهر صغير. المكان ريفي، والكوكا، والبيرة تثلَّج في نهر بارد حيث تغسل الأواني في مكان غير بعيد. ترتدي النساء أثواباً من صنع سان ـ لوران وبيار كاردان؛ كان الحضور من مسلمين ومسيحيين يعرفون بعضهم ويبدأون الحديث بجملة فرنسية لينهوه بجملة عربية.

رافقنا الأب بولس ذات يوم إلى دير في قنّوبين. وهي منحدر قاس يوصلك بعد ساعتين إلى مقر عميق. ويجتاز قاديشا جسر جميل بالقرب من طاحونة حجرية قديمة. ونندهش بالوصول إلى الدير في الجانب الآخر الصخري. إن هذا الأخير هو أهم معبد في الوادي كلّه، يقال إن تيودوس الكبير هو الذي بناه. يحتوي في إحدى كنائسه على قبور البطاركة الموارنة. فالرفات موضوعة في توابيت وضعت عمودياً، مغطاة بمعظمها بالزجاج. وقد حافظ المناخ الناشف نسبياً على الأجساد. ويبدو الدير ذاته وكأنه قلعة كبيرة مطعَّمة بالصخر، والكنيسة الرهبانية مغارة واسعة مرتبة. ولا تسمح الكتابات السريانية والرسوم الغامضة على طريقة الأيقونات البيزنطية في تحديد تاريخ بنائها بدقة.

إنتهت إقامتنا عند آل بولس مثل كل المغامرات المحبَّبة، بتبادل العناوين، وأرقام الهاتف، ووعود باللقاء مجدداً. فجأة شعر جاك وهو على عجلة من أمره أننا أطلنا كثيراً خلال هذه الأسابيع الأولى الثلاثة، وبقي علينا أشياء كثيرة لنصوِّرها.

بضعة أمتار من الصور لمدينة بشري، لكرومها وشجر التوت فيها. وداعاً قاديشا. فالمناطق المرتفعة تدعونا إليها.

على ارتفاع 2000 متر، تنتصب متجهمة ومؤلَّفة شجرات الأرز الشهيرة التي سحرت العصور القديمة كما تسحرنا نحن. إرتفاعها يساوي علو بناء من عشر طبقات ويزيد محيط جذعها على 12 متراً. بالنسبة للموارنة فأرز الرب هو موضع احترام منذ أن منع علناً أحد بطاركتهم عام 1843 قطعها وتشويه المنظر. كما أمر حتى بإقامة كنيسة هناك. وفي كل سنة في شهر آب/أغسطس، يقام بحضور البطريرك عيد كبير تكريماً للأشجار، عيد العناية بالبيئة الذي يمجد هؤلاء «الشيوخ الأجلاء» في عالم النبات.

على طريق حمص في سوريا تسعل سيارتنا القديمة المصابة بالسل وتبصق. وبما أن مصيرنا مرتبط بصحتها توقفنا بسرعة في أحد المرائب. يطير صوابي عندما أفكر بعدد أصحاب المرائب الذين أقمت علاقات معهم في الشرق الأدنى! فإذا كانوا كلهم، عامة، كفوءين فإن الطبيعة وهبتهم عزة نفس سريعة الانفعال فيما يتعلق بكفاءاتهم. وكطبيب عام

جيد، بدا صاحب الكاراج أنه عرف ما يزعج عربتنا القديمة، وقبل أن نغادر فرض علينا بتهذيب كأساً من العصير شربناه في غرفته الصغيرة المدفأة.

تبادلنا بلطف عدة عبارات، وما لبث أن دعانا لنقيم عنده. إن كرم السوريين قد أربكني دائماً. لا يمكننا أن نوافق لأننا مثل الغزال نريد أن نكون في مكان آخر: على أرض العموديين المحروقة تلك، على أجران العماد المارونية، في الشرق الغربي من حلب في جبل باريشا وجبل الله حيث تنتظرنا مئات المدن البائدة.

لن أتوقف طويلاً عند روائع حلب، إحدى أكثر مدن العالم وقاراً طالما أن عمرها 4000 سنة. فأسواقها وقلعتها التي لم تُقهر، ومدرستها القديمة القرآنية التي ليست سوى الكاتدرائية البيزنطية القديمة التي بنتها «الإمبراطورة هيلين»، لا تستطيع أن تأخذ الكثير من وقتنا ـ على حد قول السينمائيين.

المدن البائدة

بعد الخروج من المدينة، على طريق دمشق، سلكنا في «دير تازي»، قرية إسلامية كبيرة مبنية على أنقاض بيزنطية، طريق قلعة سمعان، أو «دير القديس سمعان»، وفي وسط

السهل المشمس تنتصب تلة صغيرة، ويتحول المسرح إلى طلعةٍ قاسية رفضت سيارتنا التعبة التقدم عليها. فتسلَّقنا إذاً كسواح حقيقيين الأمتار الأخيرة التي تفصلنا عن حائط السور.

منظر الآثار مدهش جداً: كاتدرائية رائعة شُيِّدت في القرن الخامس في المكان الذي يرتفع فيه عمود القديس سمعان. إحدى أجمل روائع الفن المسيحي. هكذا يقول الموارنة، وربما الأكثر فرادة بمثمَّن الأضلاع الوسطي الذي تتجمَّع حوله أربع كاتدرائيات، ذات ثلاثة أجنحة كنائس. والغريب أن أروقتها، زخرفاتها الداخلية وأعمدتها تحوي كل العناصر التي تؤلف روعة الفن الروماني القديم. أعجبنا أحد المناظر: أوراق من حجر تلتف على بعض تيجان الأعمدة، وتتطاير وكأن الريح قد حملتها. في الجنوب الغربي من الكاتدرائية تذكِّر الأبنية الكهنوتية الضخمة بأروقتها الجليلة، بأهمية الدير. سلكنا طريق الزياحات، فوصلنا أمام سجل المعمودية: مشهد جميل جداً، فمن شكل مربع من الخارج، يتحول إلى مثمَّن الأضلاع في الداخل، بفضل لعبة توزيع علمي للكوى والأعمدة والقناطر والأقواس.

منحدر صغير يهبط بسرعة إلى «دير سمعان»، كان يسمى «جبل النساء»؛ يعود ذلك إلى السياحة التي نشطت في أيام

سمعان واستمرت حتى الفتح العربي. مجموعة مدهشة غريبة من دور الضيافة والمآوي، وسوق، وأديرة، وكنائس، كل ذلك في وسط الصحراء. يذكِّرني هذا التشابك بين الجدران حيث تتتابع خمسة طوابق من الشبابيك المتثائبة، وتلك الساحات المبلطة وصفوف الأعمدة والأروقة، ببناء فخم من الكرتون كالذي يُصنع في هوليوود لتصوير فيلم لـ «سيسيل ب. دي ميل».

نصبنا هناك خيمتنا على غرار السواح الذين سبقونا. في اليوم التالي تعلَّم «رينو» ذو الروح الأقل توراتية من باقي أفراد القبيلة، من قبل راع شاب، فنَّ شيّ أكواز الصنوبر ليتذوق الثمر. إستفدنا من هذه الصداقة ليرشدنا إلى المدن البائدة الأخرى، لأنه إذا كان الوصول إلى قلعة سمعان سهلاً، فإن طرق البغال الصعبة في الجبل توحي لنا بأمان نسبي.

تسلَّقنا ـ وتصبَّب منا العرق ـ وراء مرشدنا اللطيف بعد أن وزعنا الأغراض الثمينة على ظهور بعضنا بعضاً.

مرحلة قصيرة: القرية التي يسكن فيها مرشدنا، بيوت كخبز السكر الأبيض المغبر، والمصفر، والوردي مزوَّدة بفتحة صغيرة واحدة لا تستطيع الدخول منها إلا وأنت محني الظهر. والغريب أن القرويين الذين بنوا بيوتهم على مدينة

مسيحية قديمة يستخدمون مساكن القرن الخامس كزرائب لقطعانهم. مع ذلك، لا تزال هذه البيوت سليمة بجدرانها الحجرية السميكة، وفتحاتها الجميلة المصوَّنة، وأبوابها التي تعلوها زخرفات أنيقة: لا ينقصها سوى السقف.

ربما بسبب وجود الأولاد لم يُبدِ القرويون أي حذر تجاهنا. غضبت لأني كنت كسولة جداً في دراسة اللغة العربية، لأنَّ النقاش بقي فاتراً رغم رغبتنا المشتركة.

بدأنا، في الأيام التالية، نتجول بشجاعة وراء سينمائي متحمس على التلال وبين الآثار. ليست أنقاضاً معزولة بل بقايا تفرض ذاتها؛ مدن حقيقية بجدرانها وأبراج حراسها وأسواقها وأبنيتها الضخمة وكنائسها ومدافنها التي لا تزال محفوظة لدرجة أن المرء يتساءل بأي ظاهرة غريبة، وأي سخافة تاريخية هجرها سكانها، طالما أنها لم تتعرض إلى حرب دمرتها على ما يبدو. يقترح «تشالينكو»(*) حلاً لهذا اللغز: كان المسيحيون تحت حكم بيزنطية ينقلون الأساسي من إنتاج الزيتون إلى بيزنطية والغرب؛ وفي ظل الحكم العربي توقفت التجارة مع الغرب، ونزل السكان الذين لم يعد باستطاعتهم أن يعيشوا من إنتاج الزراعة الوحيدة الممكنة

(*) جورج تشالينكو: «قرى قديمة في شمال سوريا»، باريس، 1953.

في الجبل إلى السهل، تاركين تدريجياً مدنهم للريح والتآكل والزمن وهكذا تُقدِّمها الأجيال لنا شهوداً صادقة على فن سوري حقيقي أوحى به إيمان حرفييه القوي فقط.

إن هذه المدن البائدة التي تمتد على مدى نظرك تحت الشمس المحرقة، أثَّرت فينا إلى درجة أنها ستبقى دائماً في ذاكرتنا.

الفصل العاشر

اكتشاف البكتاشيين

نيكول

في مساءٍ جميل من صيف عام 1973 أو عام 1974، قبل سنة أو سنتين على الحرب اللبنانية، حدثنا كمال جنبلاط في قصر المختارة عن ملّة غريبة تعيش في تركيا.

كانت الأمسية لطيفة. نسيم عليل يتسلل عبر الرواق المحاط من جهاته الثلاث بواجهات أنيقة للبيت القديم الذي يشرف على المنحدر القاسي في الشوف، في الجهة المقابلة تتألق أضواء القرى الدرزية بتجمعات صغيرة مندمجة بالليل. على بعد أمتار معدودة منا، يرسل نبع رقراق أنشودته المائية؛ وتفوح رائحة قوية من المزهريات الفخارية المزروعة بالورد والزنبق.

شربنا القهوة منذ زمن طويل؛ بقينا جالسين نتمتع بهذه اللحظة بعد تعب النهار، تلك الساعات الثمينة حيث يتبادل

الأصدقاء أفكاراً عامة عن معنى الحياة، وحيث يأخذ المرء مسافة من الأحداث ومن نفسه.

جوزف دوناتو والدكتور سعد، اثنان من أفضل أصدقاء كمال، كانا عنده تلك الليلة. رجلان رغم خلافهما في المهنة والمعتقد، يشاركان كمال نفس التذوق للفلسفة والموسيقى، ونفس الشغف بالعدالة الإجتماعية. أناس لا مثيل لهم إلا في الشرق يجمعون في فكر غريب الأطوار بين عقلانية ديكارت ومخيلة الشرقي الغنية.

على عكس ما لاحظت في بيوت لبنانية أخرى حيث تأخذ لهجة النقاش بسرعة وتيرة الحماسة الشديدة لدى المتوسطيين، فالنقاش في المختارة بقي هادئاً تخللته فترات من السكوت. بدا كل واحد فيها وكأنه يتمتع بحضور الآخرين وبمسيرة أفكاره الخاصة. فبعد تبادل الذكريات المشتركة حول «الدكتور غوديل» الذي يكن له الثلاثة إعجاباً كبيراً، تطرق كمال إلى موضوع يهمه هو كما يهم جاك: الفكرة الدينية والتلاقي القائم بين بدع يبدو أن كل شيء يباعد فيما بينها: «هناك، قال لنا في منطقة في وسط تركيا، أناس يشبهون الدروز. فهم يعتقدون مثلهم بالتقمص، ومثلهم يحترمون الديانات الأخرى؛ إنهم «البكتاشيون». وبما أن جاك أراد باهتمام كبير أن يعرف الكثير عنهم، نهض كمال ودخل إلى القصر يتبعه كلبه العجوز، وعاد من مكتبته حاملاً كتاباً ضخماً

مقطّع الزوايا. إنه كتاب عن الصوفية باللغة العربية راح يترجم بعض مقاطعه ولنحاول هنا تلخيص ما تعلمناه خلاصة قراءاتنا السابقة.

إن مؤسس الجمعية البكتاشية، التي هي مثل معظم الجمعيات الدرويشية، يتحدر من المقلع الذي لا ينضب للقيسيين الصوفيين الذي شكلته بلاد الفرس البعيدة. جاء «بكتاش الخراساني» إلى الأناضول، وقد جذبته شهرة جلال الدين الرومي(*). لفت نظر السلطان أورخان الذي عيَّنه مرشداً سياسياً للإنكشارية. وهكذا أصبح البكتاشيون في نفس الوقت تنظيماً صوفياً وتنظيماً عسكرياً مدافعاً عن الإسلام ومسانداً للسلالة العثمانية. كان قوة سياسية يُحسب لها حساب، يقودها معلم كبير؛ كان يعيِّن ويعزل السلاطين على هواه. أصبحت هذه المهمة وراثية مؤكدة بذلك التراتبية الملكية للجمعية ومشكّلة دولة ضمن دولة.

يمكن التأكيد بأن البكتاشيين بالنسبة للأتراك هم مثل فرسان الهيكل بالنسبة للفرنجة. وكذلك فإن سقوطهم كان مثل سقوط فرسان الهيكل قاسياً ودموياً عندما ضرب السلطان محمود الثاني عام 1826 سلطة الإنكشارية ومعها السلطة التي

(*) مؤسس جمعية الدراويش المتجولين.

كان يُحييها، تنظيم البكتاشيين. دُمرت أماكن العبادة وقُتل سكانها.

نجد اليوم البكتاشيين في ألبانيا، وهم في السلطة. فقد خرجوا تباعاً بعد سقوط السلطنة العثمانية من سرِّيتهم، وشكَّلوا في الوقت الحاضر قوة سياسية يصعب تجاهلها من حوالى مليون مؤيد. كان الحاج بكتاش مشرِّعاً كبيراً، ويُعتبر بذلك «ماركس تركيا» من قبل المؤمنين به. ولا نستغرب إذاً أن تعود أفضليات البكتاشيين السياسية في تركيا المعاصرة للأحزاب اليسارية.

من وجهة النظر الدينية، يمارس البكتاشيون عبادة حقيقية تجاه الإمام عليّ صهر النبي (ص). فهو بالنسبة لهم روح الله. وإذا كان النبيّ محمد قد قال: «أنا وعلي نفس النور الواحد» فإن النبيّ (ص) يحتل مكاناً ثانوياً عند البكتاشيين؛ وعلى العكس من ذلك، عليّ هو الأكبر أهمية، وبما أنه الإمام الأول، فهو كاتم سر المرسل من الله. في الإسلام محمد هو «خاتمة الأنبياء» وقد انتهى الوحي عنده (قبله كان آدم ونوح وابراهيم وموسى ويسوع). لكن نهاية النبوة بالنسبة للبكتاشيين هي بداية دورة جديدة، دورة المسارَّة (أو التدريب على الدين)، أما الشخص الذي يفتتح هذه الدورة الثانية فهو الإمام عليّ، وريث التعاليم الباطنية للنبي (ص). وباعتبارها ديانة جديدة، فالبكتاشية هي ديانة الإمام عليّ.

ماذا يبقى إذاً من الإسلام الأرثوذكسي عند البكتاشيين؟ هل يذهبون إلى الجامع يوم الجمعة؟ بالطبع، لا. فهم يفضلون البقاء في حميمية منازلهم. هل يحترمون صيام رمضان؟ ليس أكثر، لأنهم اختاروا المحرَّم، مرحلة تتوافق مع عاشوراء لكي يمارسوا تقشفاً خاصاً بهم. ونرى أن البكتاشيين لم يفرضوا أبداً الحجاب على نسائهم رغم أن بعضهم يمارس التبتل. إن هذه الممارسات هي مثل صوفيتهم بالنسبة للأعداد. كذلك فإن معموديتهم هي دون الوضوء بالماء، واعتقادهم بتناسخ الأرواح يفترض بوضوح أصلاً غير مسلم للملَّة.

إلا أنَّ هناك نقطة أخرى تدعو إلى التفكير. إننا نجد في تعليمهم أن البكتاشيين هم «أخوة شموليون». فهم بذلك يشبهون الدروز الذين كان مؤسسوهم كما سنرى في الفصل التالي، يرغبون في جمع كل الديانات ضمن ديانة واحدة. هناك على كل حال، بين الطائفتين مجال توفيقية كبيرة: ممارسة سر الديانة، والاعتقاد بالتقمص، والتعليم بالطريقة المسارية، والتعلق بالحرية الفردية، والحس بالديموقراطية، وروح التسامح، وحب الطبيعة.

هؤلاء الناس المدهشون، هم الذين يجب اكتشافهم. لكن أين؟ فالسرِّية النسبية التي لا يزالون يختبئون وراءها، لا تجعل الاقتراب منهم سهلاً. إلا أن هناك مقياساً هاماً: نعرف أنهم يذهبون كل سنة إلى الحج في منتصف شهر آب/

أغسطس إلى قبر الحاج بكتاش في منطقة القيسارية في وسط الأناضول.

توجهنا إلى سهل الأناضول بعد جولاتنا في الجبل الماروني وزياراتنا للأديرة في شمال سوريا حيث تقع حرَّان التي تتكلم عنها التوراة وحيث دفن ابراهيم والده على الحدود ما بين تركيا و سوريا. فالمشهد الصحراوي الحزين يصيبنا بالخيبة، رغم المنظر الجميل الذي يضفيه الجبل بجنائنه وكرومه الممدَّدة على الأرض.

مع ذلك، تبدو القرية وكأنها خارجة لتوها من توراة الأولاد بمنازلها المصنوعة من خبز السكر، ونسائها اللواتي تتجولن بجلال، وقد وضعت كل واحدة على رأسها إبريقاً أو إناء، ثم يشجيك منظر رجالها على طريق بيوتهم بهيبتهم الوقورة بجلالة البطاركة. ويكمل اللوحة أربعة أو خمسة حمير أو بعض الجمال على حافة البئر، فإذا حرَّان لا تزال تحتفظ بحصونها القديمة، رغم أنها لم تعد سوى أكوام من التراب المثلَّم، تلك الحصون التي لا تزال تحيط بها كما تحيط الشفاه بالإبريق.

الى هذه المدينة، أرسل ابراهيم خادماً يجلب لإسحق إمرأة من جنسه، وفي هذا السهل الذي يطل علينا الآن قرب «عين العروس» يحدد الفولكلور المحلي لقاء الخادم مع الفتاة التي ستصبح «رفقه»، ربيكا التوراتية. تقول التوراة إن الرسول

لم يدخل المدينة عندما بلغها، لكنه أناخ جِماله قرب بئر، وانتظر إشارة: المرأة التي توافق على إرواء حيواناته تكون هي المختارة. وتصل فتاة من البلاد والإناء على كتفها! فلا تقدِّم الماء للمجهول فقط بل تقترح أيضاً تقديم الماء لجماله. وما يزيد رسول ابراهيم دهشة أن بادرة جديدة أضيفت إلى الحركة الموعود بها: الصبية هي قريبة سيدة؛ إسمها «رفقه» (سفر التكوين 23).

إن لمدينة حرَّان خصوصية أخرى أقل شهرة. إلا أن علم الآثار الحديث لم يبرزها إذ كانت في العصور القديمة وحتى القرن السابع عشر المركز الرئيسي لعبادة قديمة في الشرق؛ هي الديانة الصابئية؛ والتي لا تزال موجودة في العراق في منطقة «أور» و بابل. لم يبقَ سوى خطوة نجتازها، وقد قام البعض بذلك حين زعموا أن ابراهيم كان من أنصار هذه الديانة. إنه زعم نزوي إذا ما وجد، لأنه جاء متأخراً عن ملحمة البطريرك. فاعتماداً على ثمرة لقاء العالم السامي بالفكرة اليونانية، كان بإمكانه أن يوفق بين علم الفلك البابلي القديم وبين فلسفة الأفلاطونيين الجدد في الإسكندرية، فإن هذه الحضارة أعطت العرب علماء فلك ورياضيات ذوي شهرة، أشهر هؤلاء العلماء هو «الجبر» الذي يحتفظ علم الجبر باسمه.

أوتو ـ ستوب مفاجأة

اجتزنا «الكابادوس» من حرَّان إلى القيسارية، منطقة واسعة في الأناضول كانت حتى عام 1071 مسيحية بكاملها تحت حكم بيزنطية. أي سائح لم يُعجب بالمعابد المسيحية العديدة المكوَّنة من الرواسب البركانية والتي تضفي بأشكالها المخروطية على منطقة أورغوب و غوريم طابعاً قمرياً لا يمكن نسيانه؟ لم تكن قرية سولوكا كاهويوك التي أصبحت مؤخراً «الحاج بكتاش»، بعيدة عن غوريم. فخريطة الطريق التي بحوزتنا لا تشير اليها مع أنه لا يلزمنا جهد كبير لاكتشافها. يحسن القول إنه نادراً ما تكون الأمور كما نتصورها؛ فحين تساءلنا عن أفضل طريقة للاقتراب من البكتاشيين، وجدنا أنهم هم الذين اقتربوا منا. بالأحرى، إن ذلك الرجل الذي أشار الينا على حافة الطريق هو رجل تركي، يوقف سيارتنا بعمامته الموضوعة على قمة رأسه، وبشاربيه الكبيرين اللذين يحجبان وجهه، عينان ضاحكتان وقامة فارعة. يتكلم الألمانية لحسن الحظ؛ لأن معرفتنا بالتركية لا تتعدى بعض الكلمات. بدأ النقاش، وها هو صاحبنا «البكتاشي» يدعونا إلى منزله؛ ليس لشرب فنجان من الشاي فحسب، لكنه قدَّم لنا ضيافة في منزله أكثر مما كنا نأمل.

منزل حجري متين، يحمي سكانه من قساوة السهب في الشتاء، فيه بضعة غرف للسكن، قدَّم لنا أوسع غرفة فيه. ونظراً لكثرة عددنا رفضنا بتهذيب، لكن مضيفنا اللطيف بدا منزعجاً فوافقنا؛ وأخيراً قضينا سبعة أيام في بيته مع الغذاء وغسيل الثياب. أخيراً، عندما أقول غسيل الثياب يجب أن أعترف بنزاهة أن جاك وحده هو الذي حصل على هذا الامتياز. ففتاة البيت أخذت الثياب دون تردد، وأبدت حماساً للسينمائي بكثير من العفوية. وعندما تقرر أن قميص جاك وسخة فانتزعتها عنه برشاقة، وذهبت لتغسلها في نبع القرية.

أما الأولاد فيلعبون لعبة المغاور ويكتشفون بدوننا ثروات الأرض الأناضولية التي لا تتميز الطبيعة منها عن الآثارية. ولا تزال حتى أيامنا هذه عدة مقالع من الأونيكس، تُستثمر وتؤمن العمل لبعض الحرفيين المسنين.

شاركنا مع ضيوفنا في كل حفلات الحج. ذهبنا للتأمل إلى قبر الحاج بكتاش والتدحرج على أرض غرفته. هكذا يجري التوسل اليه، والتعبير عن الأمل به فيسمعنا من عمق قبره، ويعطينا البركة التي لا ينكر أحد أنها العلاج الشافي للعجز والعقم. لقد شاركنا الدراويش مائدتهم الطقسية؛ إنها حفلة مقدَّسة تقام في كل مكان منعزل؛ في غابة صغيرة

بالقرب من النبع. لقد تأخرنا؛ فالدراويش ـ من الرجال والنساء ـ قد جلسوا على شكل دائرة حول البساط.

إقترب جاك. استقبله درويش بعبارة شوَّشتني: باسم الأب والإبن والروح القدس، ثم أخذ كأساً من النبيذ ودعاه ليشرب ثلاث مرات مردداً مع كل جرعة الصيغة الثالوثية ثم أعطاه كسرة خبز. هل هذا تذكار للعشاء السري القرباني الذي أقامه المسيح؟ أعرف أن البكتاشيين يعلقون أهمية كبيرة على رمزية الأعداد: فالرقم 3 والرقم 12 مثلاً، هما رقمان رمزيان. الرقم 12 مؤلف من أربع صور ثالوثية وهو متطابق مع عدد الأئمة. لكن الثالوثية المسيحية محترمة من قبل المسلمين. إنها لمفاجأة! وأمام دهشتي، صوَّر لي على الأرض «بابا»، وهو واحد من ذوي أرفع المراتب في الهرمية البكتاشية، النظام الثالوثي الذي يمجدونه: مثلَّث: تتطابق زواياه الثلاث بالتتابع مع الله والأب، محمد والإبن، علي والروح القدس، وتتطابق أضلاعه الثلاثة مع العهد القديم والعهد الجديد والقرآن. رسم البابا داخل المثلث، مثلثاً آخر مقلوباً تلتصق زواياه في منتصف أضلاع المثلث الأول. تتطابق زوايا المثلث الجديد مع ثالوثية جديدة: مريم، فاطمة، خديجة، كما مع شعار: «حرية، مساواة، أخوة».

من أين تأتي هذه التوفيقية؟ هل تنطلق من الإسلام لتنضم إلى المسيحية؟ أم أنها جاءت من القبائل النسطورية التركية

التي أسلمت فيما بعد؟ من الصعب افتراض ذلك، لأن البكتاشيين يشكلون شيعة ماسريَّة، وتعليمهم المسيحي يقول إنه يجب أن يبقى الدين في القلب وألا يكتب في أي مكان.

إن البكتاشيين يشكلون بين تنظيمات الدراويش مجموعة مستقلة، فإذا اعتُبروا من السنَّة فإن معتقداتهم تقربهم أكثر من الشيعة. وإذا كانوا مسلمين فيمكن اعتبارهم بسهولة مسيحيين منشقين.

تجوَّل الأولاد في الغابة مع أصدقاء جدد، كمال، ومهبار ـ نصف القمر ـ الجميلة، فيما جلسنا نحن مع الدراويش الذين وضعوا على الحصيرة الخبز والنبيذ والملح، والنساء تشارك على قدم المساواة مع الرجال في الشعائر الدينية، مما حملني على القول إني لم أصادف أبداً بين المسلمات، وحتى بين المسيحيات في الشرق نساءً بمثل هذه العفوية والحرية والتحرر.

بدأت الحفلة الدينية.

يبدأ الصلاة أكبر الدراويش سناً: يداه على طرف الحصيرة، وأصابع اليد اليمنى تغطي أصابع اليسرى. يسبق الوليمة لحظة من التأمل، صمت داخلي يزيد ضجَّة الطبيعة المحيطة إلى ما لا نهاية. يصل إلينا ضحك «نصف ـ القمر» الفرحة دون شك بتهريجات رينو، ثم يمتص كل واحد قليلاً من الملح. هناك ثلاثة رموز في هذه الحركة: تطهير ومساواة

الرجال أمام الله، ومساواة الناس فيما بينهم. ثم يقوم البابا بتقديم النبيذ. يقدِّم كأساً ويده اليمنى على قلبه؛ وبالدور لكلٍّ من المشاركين. يمسك الدرويش بالكأس بملء يديه وإبهامه مرفوع عمودياً ويقدمه إلى مؤمن يمسكه بالطريقة نفسها ويشرب. كل من المشاركين يلفظ عندئذٍ كلمة: أسكوشوم «بصحتك» ويكرر المشهد ثلاث مرات ثم يجري تقاسم الخبز. يحتفظ «البابا» خلال الوليمة بالنبيذ إلى جانبه، ويوزعه من وقت إلى آخر بالطريقة نفسها. عندما يرفع الرجال الكأس إلى شفاههم يُبقون إبهامهم مستقيماً في الهواء، كما لو أنهم يستعملونه لرفع طرف شاربهم. يقولون إنها كانت إشارة اعتراف بالجميل عندما كان الدراويش يعيشون في السرّية.

بعد التبادل الديني، تبدأ الوليمة الحقيقية: الخضار النيئة، الجبن الأبيض المسبَّح بالزيت، الزيتون، ولحم الضأن المشوي... يتخلل ذلك نقاشات واعترافات وأغاني وصلوات. أمامي امرأة ذات عينين زرقاوين، تبدو رغم لونها القبيح إنجليزية أكثر مما هي شرقية، والى جانبي درويش ذو لحية شقراء. فكرت بالإنكشاريين الذين كان البكتاشيون على صلة روحية بهم، الذين كانوا يجندون من بين الأولاد المسيحيين المسروقين خلال الغزوات. هل أن أمامي الآن

أحد المتحدرين من هؤلاء الأولاد الملتقطين على أبواب فيينا و بودابست؟

«البابا» من أصل ألباني، لجأ إلى اسطنبول عام 1945، عندما اضطُهد البكتاشيون. إنه يرتدي جلباباً مقلَّماً أبيض وأخضر، مشدوداً بزنار من الجلد على الخصر يتدلى حجر التعويذة على رقبته، وهو قطعة مستديرة كالدولاب محزَّزة اثنتي عشرة مرة أي على عدد الأئمة، وهي شارة التنظيم ورمزه. غطت رأسه قلنسوة بيضاء من اثنتي عشرة طيَّة محاطة بشريط عريض أخضر يشير إلى مركزه «كبابا»، أما أقراط أذنيه الفضية التي على شكل هلال فتُظهِر أنه اعتنق التبتل.

الله (أب) العهد القديم، العهد الجديد، علي (الروح القدس) محمد (الإبن) والقرآن، حرية، مساواة، أخوة، فاطمة، مريم، خديجة.

فسَّر لي الدرويش بالإيطالية مغزى هذه الوليمة: إنها مشاركة رمزية في جسد الإمام عليّ مثل سر القربان المقدس المسيحي لجسد المسيح: إن الأكل والصلاة والغناء بشكل مشترك هي أفعال حب وتعاطف كوني.

حج غريب

لكن الحج إلى «الحاج بكتاش» لم ينتهِ، فالباعة في ساحة القرية ـ على الرغم من أن الإسلام يمنع أيَّ تشويه بشري ـ

يوزعون مقابل بعض القروش، ملصقات كبيرة لصورة الإمام عليّ بنظره الثاقب والواثق كفارس مدافع عن الضعفاء والمضطهدين تكلل رأسه هالة من النور، كما أن ملصقات أخرى تمثل حصان الحسين الأبيض عائداً وحده إلى مقر العائلة وقد اخترقته الأسهم. ويصوِّر الفنان بواقعية يأس النساء والأولاد بحضور الفرَس الوحيد، عندما يدركون أن الحسين لن يعود، تظهر في البعيد جيوش «يزيد». وأخيراً ولكي لا يُنسى أحد، فإن صور «الحاج بكتاش» تظهره شخصياً جامد التقاطيع يضم إليه غزالاً، ويداعب لبدة أسد وكأنه «القديس فرنسيس الأسيزي» المسلم الذي يذكِّر بالحب الذي يكنه البكتاشيون للطبيعة.

من المستغرب أن يصادف المرء اليوم عند البكتاشيين هذا التذوق للطبيعة وهذه البساطة العجيبة وحسن الضيافة هذا، فيما هم متحدرون من بيئة محاربة. فإن جيلاً من الاضطهاد والنفي اللذين تعرضوا لهما، قد طورا عندهم دون شك هذه الحساسية الكبيرة تجاه الناس والأشياء.

يحتوي الدير الذي تحول إلى متحف في وسط القرية على مجموعة من الأشياء التي تعود إلى التنظيم؛ ومن بينها جذع على شكل صليب يُستخدم لإلقاء الرأس خلال السهرات الطويلة، وأخيراً قطعة محترمة كثيراً وهي كتابة على جلد ماعز منسوبة إلى الإمام عليّ.

يتوجه الحجاج بعد زيارة القبر أو الدير، سيراً على الأقدام، أو بالسيارة إلى التلال المحيطة، إلى الأمكنة التي عمل فيها القديس الدرويش لكي يعبِّروا، بممارسات غريبة، عن تمجيدهم الوهمي.

أربعة صخور تنتصب على ربوة تشرف على سهل يمتد على مدى النظر تحت أشعة شمس آب/أغسطس اللاهبة. كل صخرة تحتفظ بذكرى للقديس: تمثل إحداها الشيطان، إذاً نحن بعيدون عن بلاد عبدة الشيطان! يرمي الحجاج الحجارة على هذه الصخرة لكي يرجموا الشيطان؛ ويتمتع صخر آخر بفضائل علاجية: يشفي أمراض الظهر للذين يتمددون على حافته. ولا يحرم الأولاد أنفسهم من النعمة ويكثرون بمآثرهم على الحجر الذي أصبح أملس كالرخام، حمايات الرجل القديس. يضع الحجاج على الصخرة الثالثة أجزاء الجسم التي يريدون شفاءها. إنه لمشهد غريب أن ترى هؤلاء الرجال والنساء والأولاد يتخذون أوضاعاً سخيفة تافهة خلال عدة دقائق، مثل تماثيل الملح. أما الصخرة الأخيرة فتحتوي على أثر حافر حصان القديس، وقد أصبح الثقب بالياً من كثرة اللمس بحيث يستطيع أن يستوعب أربعة حوافر بسهولة. هناك يقوم الحجاج بلعبة مثيرة: يملأون أيديهم بالحصى ويرمونها أزواجاً في الحفرة الصخرية. إذا كانت الحجارة المتبقية في أيديهم مزدوجة، تكون السنة المباركة. تتكرر اللعبة بالطبع

إلى أن يحصلوا على زوج الحصى المطلوب، ويروق لهم من حين لآخر أن يغشّوا لكي يساعدوا الحظ قليلاً. . .

هناك نبع، «السيليهان»، الذي فجَّره القديس بأعجوبة على سفح ربوة أخرى. تشبه مياهه مياه بئر زمزم في مكة. اعتقاد يُذكِّر باعتقاد عبدة الشيطان في معبد الشيخ عديّ في كردستان. يملأ الحجاج هذه الماء المقدسة بقناني الكوكا كولا كما يأخذون قليلاً من تراب ذلك المكان في أكياس من البلاستيك. وتتجمع عائلات بكاملها في القبو، حيث عاش الحاج بكتاش. ويحاول هؤلاء المؤمنون بتشجيع من نغم كمان أحد الغجر أن يخرجوا من فتحة صغيرة أقامها القديس الدرويش بشكل عجائبي، ويرى الذين ينجحون بذلك أن أمانيهم ستتحقق قبل موسم الحج المقبل.

في مكان أبعد قليلاً، توجد الشجرة المنعزلة التي اعتاد الحاج بكتاش أن يتأمل في ظلها. تتدلى من أغصانها الواطئة مئات قطع القماش وهي أشكال من الإشارات التي يتركها الحجاج لتسجيل مرورهم.

هناك عمل أخير يكمن في إبقاء الحصى على جدار صخري، عموديّ تقريباً، أو في وضع حجارة على بعضها البعض بشكل متوازن، مما يجعلني أشاهد فجأة على مدى نظري أهرام الصلاة الصغيرة هذه، مرتفعة على مستوى الأعشاب التي تتلاعب بها الريح الهوجاء. إنه حقل فسيح من

الصلوات، حقل من الغناء لمحبة الله. وحده، مثل رمز مثير، يجلس هذا الرجل أمام هرمه الصغير، ويداه مرفوعتان نحو السماء دون حراك. إنها صورة هذا الرجل ذاتها تلك التي رأيتها مجدداً عندما استسلمت لشرودي مغمض العينين في الطائرة التي نقلتنا بعد عدة أيام إلى أوروبا.



الفصل الحادي عشر

أسرار الدرزية

«تقول شريعة الكمال الأزلي إن كل شعب في كل مرحلة يعتبر أن ظهور أشكال الوحي ضرورية له، وأن على كل فرد أن يجد أخلاقية وطقوساً وآلهة خاصة به».

جاك

يقول أصدقاء الدروز إنهم شرفاء وشجعان ومخلصون. ويصفهم أعداؤهم بالمخادعين المنافقين والخبثاء والأذلاء. ولكن، من يعرف إذاً، حقيقة هذا الشعب الذي ظهر فجأة في القرن الحادي عشر في أعماق الأودية اللبنانية، هذه الأمة التي تمكّن أحد أمراؤها في القرن السادس عشر أن يدَّعي أنه يحكم إمبراطورية باتساع إمبراطورية سليمان(*). هذا المذهب ـ أخيراً ـ الذي يعتنق حكمة تعود إلى الأزمان الغابرة؟ أهو شعب أم أمّة؟ أهو مذهب أم دين جديد أو مجرد حكمة

(*) تمتد من البحر الأحمر حتى الفرات.

قديمة جـداً؟ لا تزال الدرزية غير معروفة، لذا فإنها تشكل دائماً اللغز الكبير في جبل لبنان.

أول صلة أقمتها مع الدروز كانت في صالونات بيروت الاجتماعية. فمن دواعي الاعتزاز أن يكون لك صديق درزي حتى ولو لـم تظهـر ذلك. وأن تسمـع القـول: «أي أيـهـا الصديق، الـدروز، أعـرفـهـم! دعني أخبرك... لكـن، هـل صحيح إذاً أنهـم يعبدون الثور؟ هل سمعتهم يشتمون النبيّ محمد ويسوع؟ وهـل صحيح أن احتفالاتهم المساريّة هي حفلات مجون جنسية؟»

أخبروني عنهم كثيراً بحيث قرَّرت، لكي تتوضح عندي الأمور، أن أذهب بنفسي إلى جبلهم الذي يقال إنه يستحيل الدخول اليه، وبالقرب من مساريّهم الذين يقال عنهم إنهم من الباطنيين.

«لا يمكنك أن تتصور! الذهاب وحدك إلى مناطق الدروز! إنـهم خطرون. قد تصاب بأذى». ثـم يقصّون عليَّ رواية جديدة: دخل ذات يوم ابن مبشر بروتستانتي كالفيني خطأ إلى خلوة أحد بيوت التأمل الدرزية، وأخذ منها كتاباً. وعندما عرف والد الصبي أصل الكتاب سارع إلى إرجاعه لأصحابه.

شكر الشيخ حارس الخلوة المبشِّر بتهذيب، ودغدغ رأس الصبي الصغير، وبدا أن كل شيء على ما يرام. لكنهم اكتشفوا صباح اليوم التالي أن المبشِّر وزوجته وابنهما قد

ذبحوا في أسرَّتهم. هذه هي العادة للمحافظة على سر المعتقد.

حصل هذا في القرن الماضي، أما اليوم فالدروز هم أقل تصلباً؛ لكنهم لا يزالون يحيطون أنفسهم بحجاب من الأسرار. يجب الاعتراف بأنهم هم مسؤولون إلى حد كبير عن عدم فهمهم من قبل الآخرين. بالفعل، إن حب السرّ عندهم كان محرِّكاً ممتازاً لمخيلة أعدائهم السيئة خاصة الإسلام الذي تحدروا منه. كيف يمكنهم تجنُّب النوايا السيئة تجاه أخ أنكر إيمانه بعد الإفراط في الاختفاء وراء السرّ، وإخفاء المعتقدات الجديدة؟ كيف لا يشكّوا بفجورهم سراً؟ هذا ما حصل للدروز.

لكن السرّ أثار الفضول أيضاً. فقد تكلم الكثير من الرحالة الغربيين عن الدروز، خاصة في القرن الأخير ومنهم فولني[1]، ولامارتين[2]، ونرفال[3]، وفلوبير[4]، وبارتيس[5]... وتشارلز تشرشل[6]. وهؤلاء جميعاً طرحوا

---

(1) ڤولني: رحلة إلى مصر وسوريا 1798.

(2) لامارتين: مذكرات رحالة.

(3) نرڤال: رحلة في الشرق 1851.

(4) فلوبير: رحلات 1951.

(5) بارتيس: تحقيق في بلاد المشرق باريس 1924.

(6) تشرشل: جبل لبنان، عشر سنوات إقامة «صدرت الترجمة العربية عن دار المروج، بيروت».

الأسئلة نفسها: من أين جاء هؤلاء الدروز، وما هي معتقداتهم؟ وطرح جميعهم أكثر الافتراضات نزويّة حول أصولهم. لا أتمالك رغبتي عن ذكر تلك الافتراضات التي بدت لي غريبة جداً.

إن أول من تكلم عن الدروز هو رحَّالة يهودي مشهور، هو «بنيامين دي توليد» الذي انطلق حوالى عام 1160 باتجاه الشرق بحثاً عن أبناء ديانته في التيه. أعتقد للوهلة الأولى أنه تعرَّف إليهم عند «الدوغزيين»، كلمة درزية وقد كُتبت خطأ في كتاباته، القبائل العشر المفقودة من إسرائيل. وأقرَّ مع ذلك، أن طبعهم العربي الواضح يفرض أن يجعل منهم متحدرين من الإيتوريين، وهي قبيلة عربية قديمة أصبحت آراميَّة تسللت إلى الهلال الخصيب. وكتب «بوجيه دي سان بيار» عام 1763 تاريخ الدروز، فقال إن شعب لبنان قد تكوَّن من جالية القديس فرنسيس متأثراً بالذين اعتبروا ـ منذ قرنين ـ أحفاداً للصليبيين: اعتبروهم مجموعة من الفارين على رأسهم «الكونت دي درو»، وقد لجأوا بعد معركة حطين عام 1187 إلى جبال لبنان. ويقول بعض الكتَّاب إن ذلك ما دفع الأمير فخر الدين إلى الإدعاء أنه من سلالة آل لورين، وهي سلالة اخترعها الأمير الشهير زوراً يوم كان يسعى للتحالف مع الملكيات الإيطالية.

إعتقد لامارتين أنه رأى في الدروز أحفاد السامريين.

واعتبرهم الكابتن هنري لايت(*) من بقايا الإسرائيليين الذين هربوا من غضب موسى بعد تدمير الثور الذهبي. كما يعتبرهم كتّاب آخرون مثل «السيدة وورسلي» و »البروفسور فيليكس فون لوشان»، من أصل حثّي. ولم ينجُ حتى فرسان الهيكل من محاولة إقامة قرابة روحية مع الدروز من خلال التأكيد أنهم من أحفاد أتباع أحيرام ملك صور وباني هيكل سليمان. لكن أكثر النظريات نزويَّة تبدو نظرية مدام «بلافاتسكي»(**) التي تؤكد أن الدروز يتحدرون من اللاماوية التيبيتية!

لكن، لنتوقف هنا ونستمع بالأحرى إلى حكاية ولادة الدرزية الغريبة التي خلَّفها المؤرخ العربي المقيم. ولنشر إلى أن هذه الرواية لا تخلو من التحيز تجاه مرتد عن الإسلام، الخليفة الحاكم بأمر الله: في عام 386هـ (الموافق عام 966م) وصل إلى عرش مصر، خليفة في الحادية عشرة من عمره، هو الثالث من سلالة الفاطميين، إسمه الحاكم بأمر الله. كان هذا الأمير واحداً من أكثر الأمراء الذين حفظتهم ذاكرة البشرية شذوذاً وغرابة، فقد أمر بلعن الخلفاء ـ أصحاب النبيّ محمد ـ في الجوامع. ثم ألغى المحرمات:

(*) هنري لايت: رحلات إلى مصر ونوبيا وهوليلاند وجبل لبنان وقبرص عام 1814، لندن، 1818.

(**) راجع الملحق.

أجبر اليهود والمسيحيين على التخلي عن دياناتهم. ثم سمح لهم باسترجاعها. منع صناعة أحذية النساء كي لا يخرجن من بيوتهن. ولكي يروِّح عن نفسه أمر بحرق نصف القاهرة، فيما راح جنوده ينهبون النصف الآخر. ولما لم يكتفِ بهذه الفظاعات منع الحج إلى مكة والصيام والصلوات الخمس. حتى أن الجنون قد وصل به أخيراً إلى حد التفكير بالإعلان عن نفسه أنه إلّه، وقد وضع سجلاً بأسماء الذين اعترفوا به إلّهاً، فوصل العدد إلى 16 ألف: ساند هذه الفكرة نبي مزيَّف سبق وجاء من بلاد الفرس إلى مصر. كان هذا الدجَّال المدعو «محمد بن اسماعيل» يعلن أنه من غير المفيد ممارسة الصوم والصلاة والتطهير والحج والأعياد؛ وأن منع لحم الخنزير والخمر هو خرافة؛ وأنّ زواج الأخوة والأخوات والآباء والأولاد هو مباح. ولكي يرحب به الحاكم ساند فكرة أن هذا الخليفة هو «الله» بذاته مجسَّداً.

نشوء الدرزية

هل أن الحاكم بأمر الله كان حقاً ذلك الطاغية المجنون والدموي كما يصفه «المقيم» وكل المؤرخين الآخرين؟

يرفض الدروز الإجابة عن ذلك. لا أهمية لما يُروى طالما أنه كان تجسيداً لله. وإذا ما تصرَّف أحياناً بشكل غير مفهوم إلا أن تصرفه كان في صالح البشرية.

ما هو إذاً مفتاح سر حياة الحاكم؟

ليس هناك أقل شك عند الدروز بالرسالة الإلَهية للخليفة التي تكمن في إعطاء البشرية مفهوماً جديداً هو مفهوم الوحدة بالله، أي التوحيد. حان الوقت لصهر كل الديانات بروحانية شمولية واحدة؛ هذا ما فكَّر به الحاكم بأمر الله، وقد سمِّي أنصاره بالموحدين الإسم الذي يستخدمونه دائماً فيما بينهم. ربما يفسِّر هذا اندفاع الخليفة لإزالة كل أثر للدين حتى دينه. وقد أراد بإزالة آثار الماضي إعادة صنع وحدة العالم الروحية؛ فهاجم كل العوامل التي تفصل بين الديانات، هي الطقوس والعبادات والتقاليد والعادات، فالوحدة تُصنع في القلوب. لذا فإن الدرزية اليوم تتميز بغياب تام لأي طقس ولأية شعائر.

شعر الحاكم بعد عشرين سنة من الحكم، أن اللحظة قد أتت لتدشين «العهد الجديد»، عهد «عقيدة روحية دون أي إرغام طقسي»؛ كما هو معلن في رسالة حمزة الثالثة عشرة، تلميذه الرئيسي.

إختفى مؤسس الديانة التوحيدية بعد ثلاث سنوات عام 1021. واعتاد، بسبب (تروبصه)، أن يقضي الليل على تلال المقطّم حيث كان يناجي الملائكة كما يقول المؤلفون العرب. ذات صباح، عادت الدابة الغبراء وحدها إلى القصر، ولم يجدوا عليها سوى جلابيب الحاكم السبعة

مفكوكة الأزرار. بالنسبة إلى أنصاره: إن من يعتبر عاشر وآخر تجسيد لله على الأرض، لا يمكن أن يموت بل إنهم يؤكدون أنه انتقل إلى السماء، وسيعود في نهاية الأزمان. أرسل عندئذ حمزة رسلاً من القاهرة إلى أقطار الإسلام الأربعة وصولاً إلى بيزنطية في ظل الإمبراطور قسطنطين الثامن. تبع موجات الاعتناق الأولى قمع قاس، فاضطر أنصار العقيدة التوحيدية للتشتت. فلجأ واحدهم إسمه الدَّرَزي إلى وادٍ لبنانية، وادي التيم، فولد «الدروز» من نواة أنصاره. في الوقت الذي تمت فيه تصفية الموحدين فيما بعد في جميع البلدان الأخرى.

بعد عشر سنوات على اختفاء الحاكم أعلن الذين نجوا من الاضطهادات إقفال باب العقيدة التوحيدية. لم يعد يُسمح لأحد أن ينضم أو يترك الجمعية. وليتحمل المسؤولية هؤلاء الذين لم يستفيدوا من «يوم النعمة» الذي قدَّمه الحاكم الإلَهي ورسوله حمزة للعالم غير المؤمن. إجراء حكيم لأن عدد الأنصار الصغير المختار كان ضمانة للحفاظ على الطائفة. أصبح بعده حق الانتماء إلى الدرزية وراثياً وامتيازاً مقدساً يُحافظ عليه. هكذا اتضحت المعالم الرئيسية الدرزية: تقليص طوعي للعدد، سرّ لا يُكشف، رفض لهيمنة أي دين، وانسجام كبير للطائفة مستمر منذ تسعة أجيال؛ إنه أمر لا مثيل له في أية ديانة.

ممارسة التكتم

إن هذا الوادي اللبناني الغامض في سفح جبل حرمون، هو الذي شكَّل مهد الدرزية. فهناك اكتشف بنيامين دي توليد بعد قرن ونصف أن المجموعة الصغيرة المتحدرة من الموحدين ما زالت محافظة على تقليد مثير، هو التقيَّة التي قام بتعليمها المبشرون الأوائل، والتي تدعو إلى التقيد بالممارسات الصعبة مع الاحتفاظ بالإيمان في القلب. فبسبب غياب الحاكم، دخل الموحدون في مرحلة التكتم منتظرين أياماً أفضل، وسيتيح هذا المبدأ الثمين للدروز اجتياز كل تقلبات التاريخ بهدوء، مترددين إلى الجوامع في الأوساط الإسلامية، وخاضعين للمعمودية لدى المسيحيين.

وباستخدامه لهذا المبدأ، دخل الأمير فخر الدين الثاني الكبير عام 1614، إلى بلاط «آل مدسيس» في فلورانس. «من أي أمة أنت»؟ هذا السؤال الذي طرحه الدوق توسكان كوسمي الثاني على فخر الدين الذي راح يطلب مساعدة المسيحيين ضد الأتراك. «أنا أمير الدروز في فينيقيا وجبل لبنان» كان جواب الأمير. وعندما دخل دوق توسكانا في موضوع الدين، عرف الأمير كيف يحتفظ بالغموض، بدهاء، حول أصوله ومعتقداته. فبإسم «التقيّة» المقدسة التي تعلِّم ليس الحذر فحسب، بل التضليل قصداً في كل مرة تستلزم

المصلحة العليا للطائفة، فتحدث الأمير عن بعض الأجداد اللورينيين محدثاً عن أحد الصليبيين المفترضين، «فارس دي درو». وقد قيل إن كبار أمراء فخر الدين ولدوا دروزاً وعاشوا مسيحيين وماتوا مسلمين.

ليست ممارسة التكتم في الحقيقة غريبة عن المنافقين والمراوغين والمتزلفين، الملتصقة بالدروز، التي سبق وتكلمتُ عنها في بداية هذا الفصل. مع ذلك، وللتعرُّف إليهم بشكل أفضل، فهؤلاء الدروز هم مختلفون جداً عن سواهم وجذابون، وإنني لأجد نفسي على وفاق مع رأي «الجنرال ويغان» الذي سبق وكتب أن «هذا الشعب له من اللياقة والفضائل ما تحسده عليها الأمم الأكثر تحضراً»، ولو أنني أرفض ما أضاف: «لكنهم ابتلوا بمساوىء وعيوب الشعوب البدائية»(*).

أن تكون درزياً

يمكن معرفة الدرزي دائماً. فخلقه الاجتماعي والجسدي يميزه على الفور. فالتاريخ لم يشوِّه عرقه، لأن التقليد يمنع الزواج من خارج الطائفة. فهم أناس نشطون وحذرون

(*) الكابتن بوربون: «الدروز تاريخ لبنان وجبل حوران»، برجيه، لوفرون، باريس، 1930.

لكنهم، في الوقت نفسه من المنكمشين على الذات وأصحاب تحفظ. يتصرفون في المجتمع، بكثير من التهذيب واللياقة. وفي أعمالهم، هم أصحاب ضمير حي. ويحمل مظهرهم الوقار؛ أما مزيَّتهم الكبرى فهي التواضع.

عندما تجتاز بلاد الدروز، يمكنك أن ترى تحت أشجار الزيتون، أشكالاً سوداء على رأسها طاقية بيضاء وحمراء، تعمل بصبر على أرض الرصيف، أو تقود بهدوء بعض قطعان الماعز. وعند المساء، ترى مجدداً هؤلاء الأشخاص أنفسهم يسندون ظهورهم إلى جدار صغير في القرية، أو يجلسون على عتبة المنزل. وإذا ما أزعج حضورك تأمل هؤلاء الفلاحين، وإذا ما وجهت إليهم الكلام، يجيبونك قدر ما تبتغي عن زراعة الزيتون، لكن يمكنهم أيضاً أن يحدثوك عن أفلاطون و أرسطو و فيتاغور وحتى عن الديانة الهندوسية. وعديدون من بينهم، مطلعون على أسرار الديانة (العقّال). لا يرتكز دينهم على الإيمان، كما هو الحال في المسيحية، أو على الطاعة كما هو في الإسلام. فالمهم هو الاعتقاد الداخلي الراسخ، أنه تحقيق الحقيقة الباطنية، ومعرفة الذات، والتزهد الفكري لمعرفة المطلق. إنه دين المتزهدين الروحيين وذوي النزعة الإدراكية الغنوصية المتممة للحياة؛ دين أخلاقي أكثر مما هو دين معرفة. وأكثر من ذلك: إنه الحكمة. فتعبير «إعرف نفسك» الذي منه تنطلق روح الحقيقة، هو أحد

أسسهم، مما يعني أن البحث الأساسي المتَّبع لدى الدروز هو الأصالة الكاملة.

هذا البحث، يتلقنه الدرزي وهو فتى من خلال تعليم مُسارِّي، هو دورة من تسع درجات، بفضلها يتوصل إلى مرتبة العقَّال لكن هذه المسارَّة تفترض وقتاً طويلاً ومثابرة. وتكتفي أغلبية الدروز باتباع المبادىء السبعة للإيمان الموحِّد(*) دون التوصل إلى الحكمة، ويبقى هؤلاء من الجهلة.

فالمسارَّة إذاً منوطة بالنخبة. وغالباً ما يختار الدرزي، بعد بلوغه الأربعين من العمر وليس في عمر لا يستطيع فيه الجسد تحمل المصاعب، الطريق الروحية، وهذا هو أحد البراهين عن حكمتهم التي تفترض احتراماً معيناً للذات: يمتنع العاقل عن شرب الكحول، والتدخين، وينظم تغذيته، ويحدّ من ملذاته، ويعيش بتواضع، ويهتم بالعمل الحرفي أو بالأعمال الزراعية، ويتغلَّب على مشاعره حتى ممارسة العفّة.

فلا تأخذك الدهشة إذا ما التقيت في الجبل بمثل هؤلاء

(*) عدم الكذب ـ ممارسة المساعدة الجماعية ـ عدم الاعتقاد بالديانات الأخرى ـ عدم الكشف عن سر الله ـ التخلي عن العدو ـ الخضوع إلى الإرادة الإلّهية ـ أن يكون المرء قويّاً ومستسلماً أمام السعادة كما المحنة.

العقال، وقد بلغوا المئة سنة من عمرهم. يقولون لك إنهم عاشوا شبابهم كما ينبغي، متصلبين في مهمتهم، يحاربون منذ كان الجبل في خطر، عارفين كيف يرقصون ويشربون في مناسبات الفرح. لكن، حوالى الأربعين من العمر، يتراجعون تجاه رغبات الجسد والمادة مكرسين القسم الثاني من حياتهم للبحث عن المعرفة. لا. لم يخطىء «ويغان» عندما أكد أن هذا الشعب يملك بعض المزايا التي تحسده عليها الأمم الأكثر تحضراً.

سر العقيدة

إن المطلعين وحدهم على سر الديانة يصلون إلى معرفة سر العقيدة المحتفظ بها في عدد معيَّن من الكتب المقدسة التي يسمونها «كتب الحكمة». والخطأ الكبير الذي يمكن أن يقترفه أحد العقال هو أن يفشي أسرار هذه الكتب. إنها جريمة كان عقابها الموت غالباً في الماضي. فالالتزام بالاحتفاظ بالوحي الديني السري يسمى «الكتم». وإذا كانت أكثرية مخطوطاتهم(*) معروفة اليوم، فالدروز لا يأبهون

(*) وصلت إحدى أقدم المخطوطات إلى الغرب، وجرى تقديمها عام 1700 إلى لويس الرابع عشر، من قبل عالم كيماوي سوري، وهي موجودة اليوم في المكتبة الوطنية في باريس.

لذلك، لأن النصوص، كما يؤكدون، هي غير مفهومة بالنسبة للجاهلين؛ فلغتها باطنية ومعناها خفي ولا يفهمها إلا العقال وحدهم.

يزعم الدروز أنهم يمتلكون مخطوطات قديمة جداً. وصل بعضها إليهم بطرق غريبة وعجيبة. ويعتقد الدروز أنهم المكملون للتنظيمات الغنوصيَّة(*) القديمة، تلك التنظيمات الهرمسية(**) التي تهدف إلى معرفة الله. ومنذ بداية الأزمان، تتداول سلسلة من العقال المؤتمنين على الوحي الأسمى، هذه المعرفة التي أكَّد أفلاطون أنها لا يمكن أن تُمنح إلا للذين هم مهيأون لها. اليوم، انتقلت أمانة هذا الوحي إلى تنظيم الدروز الذي يحتفظ ببعض المؤلفات المقدسة العائدة إلى مصر القديمة، وبصورة خاصة، مؤلفات هرمس السرية، وخاصة كتابة للحكيم المصري «أمحوتب» الذي يحتفظ بها كمال جنبلاط وقد رأيتها عنده.

هذا ما يفسِّر الأهمية التي يكنها الدروز لمصر القديمة. وقد قال لي كمال جنبلاط ذات مساء ـ وهو ما لم يفصح عنه إلا لبعض المحظوظين ـ: «نحن شعب قديم يعود تاريخه إلى خمسة آلاف سنة؛ إن «هرمس تريسمجست» المعروف

(*) راجع الملحق: الغنوصية.

(**) راجع الملحق: الهرمسية.

عندنا باسم «إيمكوبيه»، هو أب الطائفة؛ وهو الذي شيَّد الهرم الأول في صقارى حيث كان المركز الكبير المسارِّي للعصور القديمة. وزاره فيتاغور وهناك تلقَّن أصول الفلسفة. والمعرفة التي تلقاها واتُبعت في زمنه وفي بلاده هي التي أعطت ولادة النظام الفيتاغوري. لكن هناك غيره أيضاً جاء قبله وبعده. كان أحد أهم السريين في الحلقة من تلك السلسلة الملك الكاهن، ملكيصادق، موجِّه ابراهيم، وقد أصبحت الحلقة بالنسبة للقديس بولس نظام ملكيصادق. وكان، من بينهم أيضاً، «جيثرو»(*) مدرِّب موسى؛ وهو ممجَّد عندنا بصورة خاصة. وكيف لا نلحق أيضاً بمدارس الأسرار في مصر القديس يوحنا المعمدان، والإيسنيين، وهو جزء منها؟

يشكل الدروز في الوقت الحاضر واحدة من حلقات السلسلة المسارِّية الكبيرة التي هي أيضاً الأخوة الحقيقية الشاملة. فالمسارَّة واحدة في جبل لبنان، وفي الهيملايا، وفي جبال اسكتلندا، وفي الآند، كما كانت في صقارى على ضفة النيل، وفي قمران على البحر الميت، وفي بابل فيتاغور، وبين فرسان الهيكل في القدس، واليوم عند الدروز.

(*) جيثرو: بالعربية النبي شعيب، كان أيضاً كاهن ماديان وصهر موسى.

وهكذا قضيت سهرات شتاء طويلة أتحاور فيها مع كمال جنبلاط، أمام موقد بسيط كان يضع فيه الحطب بنفسه. وخلال تلك اللقاءات المنفردة كان يغيِّر فجأة الموضوع أو يقطعه بصمت طويل لكي أشارك في معلومات، وكأنه يريد أن يلفت انتباهي حول نقطة هامة. وتعود مصر غالباً في حديثه. كان يرى أنه من مصر سيولد حكيم يتوافق مع التقليد القديم. وحدثني، ذات يوم، عن الإسكندرية في القرنين الخامس والرابع، وعن زوال شيعة كانت تساندها الدرزية. وكان يصنِّف من بين المساريين أيضاً الخليفة «عمر»(*) الذي احترم قبر السيد المسيح، وكذلك فردريك، ملك الإمبراطورية ـ المقدسة، وصلاح الدين، وقد فشل فيما بينهم اتفاق بصدد الأماكن المقدسة بسبب تصلب البابا وعناده.

الرسالة الدرزية

حدد كمال جنبلاط بنفسه الرؤيا المتعلقة بنسَب الآلهة لدى الدروز بشكل واضح: يظهر الله من خلال دورات وحي واستلهام ليملي على البشر إرادته، وقد خلق الله العقل الأسمى، وفيه وضع جزءاً من جوهره الإلّهي. إن حمزة، مع النبي شعيب وفيتاغور، واحد من التجسيدات السبعة للعقل

(*) راجع الملحق.

الأسمى الذي سيظهر على الأرض لتحديد الحقائق في كل مرة تكون فيها البشرية في حاجة لأن تسير في خط مصيرها الحقيقي. وتسمَّى لحظة هذا الظهور لدى الدروز ثورة. تلتقي أحياناً مع دورة كبيرة للبشرية، سندخل في إحدى هذه الدورات بعد ألف سنة على ظهور الحاكم.

الدروز إذاً هم بالانتظار، وهم مهيأون لاستقبال الرسالة الإلّهية الجديدة. ولكن كيف التعرُّف إليه؟ بالنسبة لكمال جنبلاط، لا وجود للشك في ذلك: سيحدث مجيئه كما حدث في السابق، في لحظة تجتمع فيها كل الكواكب السيارة المعروفة من الأقدمين في علامة بروجية معينة. وقد حدث ذلك في 5 شباط/فبراير عام 1962. في ذلك اليوم، اجتمعت كل الكواكب السيارة في علامة برج الدلو، مشيرة إلى مرور البشرية من عصر برج الحوت إلى عصر برج الدلو. ويلاحظ كمال جنبلاط أن هذا التأريخ يتوافق مع رؤيا العرّافة الأميركية الكبيرة جين ديكسون: في 5 شباط/فبراير عام 1962، كانت للعرّافة رؤيا؛ إلتقى فيها ـ رمزياً ـ أخناتون و نفرتيتي. وهكذا عرفت في ذلك اليوم أنه ولد في الشرق الأدنى من سيصبح حكيم زمنه، وستبدأ مهمته الكبيرة حوالى عام 1980. سيجمع بين مختلف الديانات. وهكذا ستتحقق الأمنية التي صاغها مؤسس الدرزية قبل عشرة أجيال.

بما أن الكائن الذي تحدَّثت عنه العرّافة سيولد في الشرق

الأدنى، فلماذا لا يكون مجيئه عند الدروز؟ فهؤلاء بالتالي، هم مقبولون ومحترمون حيثما وجدوا. وممارسة التقية جعلتهم مؤهلين للعيش في كل الأوساط، وتسامحهم تجاه الديانات الأخرى معترف به كونياً. ألم يحققوا التوفيقية بين كل الديانات وكل الفلسفات السابقة؟ ويمكن أن يطمح ربع البشرية إلى الدرزية كما يتوزع مؤيدو الوحدة بتعابير أخرى في كل ديانات العالم، هكذا يعتبر جنبلاط الذي أضاف يقول: «ليست الدرزية ديناً إنها حكمة، إنها نظام أخلاقي. تصوَّر الكائن المنتظر يتحدَّر من ديانة مسيطرة: يهودي، سيتهمه العرب بالصهيوني؛ مسلم، سيتَّهم الإسلام بالتعصب؛ مسيحي، سيكون فرض اعتقاد الغرب. فالذي يجب أن يظهر، حسب الرؤيا قد ظهر، وعما قريب سيكون فيما بيننا».

في مهمة من أجل الدروز

في أوج الحرب الأهلية، كان جنبلاط يغادر بعض الأحيان مركزه الرئيسي في الجبل ليلتحق ببعض النسَّاخ والعقَّال في الخلوة. يعيد هؤلاء نقل آخر الكتابات السرية التي وجدوها، وقد كانت مخبأة منذ قرون عديدة في جبل الشوف. فالدروز يفتشون دائماً عن الكتب التي تنقصهم. يعرفون بوجودها، وينتظرون الوقت المناسب للحصول عليها. وعندما يعرفون من يمتلكها، يذهب إليه أحد العقَّال الكبار الذي ربما يكون

رسولاً أو مبعوثاً، ليحصل على الإرث. وجنبلاط من بين هؤلاء. وقد جمع لديه العديد منها.

ذات يوم، في السنة الأولى للحرب الأهلية، كنت أستعد لمغادرة لبنان عن طريق قبرص، إلى إسرائيل، حيث سألتقي بآخر أبناء العائلة الابراهيمية، السامريين و الهاسيديم. استدعاني كمال جنبلاط؛ وأوكل إليَّ مهمة شرَّفتني وتدل عن مدى الثقة التي أولاني إياها:

«هذا كتاب قيِّم جداً. ستسلمه من قبلي إلى الدروز الإسرائيليين. وقل لهم إن هذه المخطوطة قد وجدت في أحد البيوت القديمة في الشوف، كشفت عليها بنفسي وقام بنسخها الشيخ «صالح عبد الخالق».

ـ لماذا كتاب منسوخ؟ قلت.

ـ ما هو مكتوب باليد، أوضح جنبلاط، له تأثير نفسي أكبر بكثير من مخطوطة مطبوعة. فالجهد، والحصر الثقافي، اللذان يقدمهما الناسخ يعطيان للكلمات قوة إيحائية هائلة. ينعكس فيها كل عقل الإنسان بشكل يشبه السحر. وبالإضافة إلى التأمل؛ فإن إدراك من ينسخ يؤثر في الورقة؛ إنه نوع غير مباشر في نقل الفكرة، لا بل إنه أكثر من ذلك.

وبصدفة غريبة، اكتشفت بعد ذلك بوقت قصير، عند النساخ «الهاسيديم» والكهنة السامريين المنهمكين في إعادة نقل التوراة، الاهتمام نفسه.

بعد بضعة أيام، غادرت لبنان. رافقني كمال شخصياً من شوارع بيروت حتى المطار، وهكذا يمكن لمسافر إلى تل أبيب أن يجتاز الحواجز، بدون حادث، وكذلك نقاط المراقبة، تحيّيه إشارات نصر المقاتلين الفلسطينيين الموجَّهة لأحد قادتهم.

أن أنقل شيئاً لشخص أجهله ليس عملاً صعباً أبداً، ولكن عندما يتعلق الأمر بمخطوطة مقدسة لتسليمها إلى رئيس إحدى الطوائف الأكثر حذراً في الشرق الأدنى، يمكن أن تطرح بعض المشاكل. وغير جائز طلب موعد بواسطة الهاتف: لا يمكن أن نتفاهم أبداً. أن أطرق بابه وأسلِّمه كتاباً قيِّماً من قبل جنبلاط!!؛ غير معقول. كيف يمكن بالتالي ضمانة مبعوث غربي مكلَّف بمهمة دينية، يحمل كتاباً لا يقرأه العقَّال أنفسهم على الجهَّال؟ أضف إلى الحذر الديني لدى المشايخ، الشبهة المشروعة من قبل سلطات البلاد، ويمكنك أن تتصور عندئذ الارتباك الذي وجدت نفسي غارقاً فيه عندما وصلت إلى الأراضي الإسرائيلية.

حصلت على المساعدة من أحد الزملاء الدروز الذي عرف كيف يقنع ثلاثة من أهم المشايخ في الجليل للقيام بالانتقال حتى حيفا، وأن يتم هناك استقبالي. كان اللقاء متوقعاً في أحد أمكنة المحكمة الدرزية. وفكرت أن أعطي هذا اللقاء الطابع الرسمي الممكن وأن أجعل منه احتفالاً صغيراً.

جاء الاستقبال بارداً للأسف. ومع ما يناسب من التعابير، سلَّمت المخطوطة النادرة إلى أحد المشايخ. ما كاد يفتحها حتى سلَّمها إلى جاره الذي ألقى عليها نظرة خاطفة وسلَّمها بدوره إلى الثالث. وبسرعة، رسا الكتاب على الطاولة. تشاور المشايخ الأجلاء فيما بينهم، ثم نظروا إليَّ، وتظاهروا بأنهم سيغادرون المكان. «من المستحيل أن تتكهَّن بماذا يفكر درزي حتى بالنسبة لدرزي آخر، هكذا يقول المثل». كان عليَّ أن ألفت انتباه المشايخ إلى الكتاب المتروك على الطاولة قبل أن يخرجوا، لكي يتفضَّل أحدهم ويهتم بالمخطوطة النادرة، ويخفيها بين طيَّات عباءته.

إذا رويت لكم هذه القصة، التي لا قيمة لها في سياق هذا الكتاب، فذلك لأنها تدل على موقف درزي بحت، موقف يعتبره البعض أنه خطأ، والبعض الآخر ميزة، وقد أعجبت بذلك بصورة خاصة. فالدرزي حذر بالطبع، ولا يخون أبداً مشاعره. حذرون، هكذا بدا المشايخ تجاهي، ومع ذلك، أظن بأن ثلاثتهم يلتهبون رغبة لمعرفة ماذا تخبىء صفحات هذا الكتاب السري، لكن من غير اللائق عند الدروز أظهار المشاعر: يجب أن يبقى مظهرهم وقوراً. وهذا الوقار تجاه الأجنبي أولاً ثم تجاه بعضهم بعضاً. ما من أحد يزاحم الآخر؛ وهذا نوع من التواضع لديهم، صفة تعطيهم معنى الوحدة والمساعدة. إنني متأكد أنه بعد اجتياز عتبة الباب،

سيغرق المشايخ الثلاثة كلهم في قراءة الصفحات، وسيقضون أكثر من ليلة بيضاء في إعادة قراءتها. أما بالنسبة لي فقد قمت بمهمتي بدون ضجيج.

استقبال عند العقَّال

بعد بضعة أسابيع، تلفن لي صديقي الصحافي: «شيخ العقل يريد أن يراك؛ ولا يتكلمون إلا عنك عند الدروز».

كان الليل قد هبط عندما توقفت سيارتي أمام منزل «آل طريف»، عائلة شيخ عقل الجليل: بناء متين، تزينه نوافذ عالية، فتلطف من ضخامة الهندسة الخاصة بأبنية المنطقة. وعندما هبط الليل؛ كان كل شيء غريباً. في الخارج، وسط العتمة، تمر بعض النسوة من وقت لآخر مرور الأشباح، وعلى رؤوسهن منديل أبيض يتدلى على ظهورهن، يتطلعن بي دون الظهور بأنهن يرونني ثم يختفين في الليل. باب يصفق، كلب ينبح، وشكل جديد أبيض يرتسم جانبياً بدون ضجيج، باب آخر يصفق، وولد يبكي: ضجيج دقيق جداً في ذلك السكون، حياة بكاملها تُكتشف وراء الجدران في عمق الساحات. ومن خلال الكوى العريضة المضيئة بتواضع ترتسم أشكال قاتمة، إثنان إثنان، ينحني واحدهما تجاه الآخر. وكأن اجتماع المشايخ هذا في منزل شيخ العقل تجمُّع لبعض

المتآمرين. متآمرون أم لا، فهؤلاء المشايخ يستعدون لاستقبالي.

كان المشايخ الثلاثة الذين التقيت بهم في حيفا هنا، من بين عشرين آخرين مبتسمين ودودين. وفي وسطهم الشيخ أمين طريف يعتمر «الطرحة»(*) بشكلها المنتفخ، مما يدل على معرفة دينية كبرى، استقبلني بعبارة يستخدمها الدروز فقط فيما بينهم: «الله يرحم بيَّك وأمَّك». ثم أضاف: «إنشالله بقدر كافيك». إن الدروز لا ينسون أبداً من يقدِّم لهم خدمة ما.

«كيف حالك عالفضل»؟، قال لي صديقي الصحافي فيما بعد، إن المشايخ شكوا في صحة المخطوطة بالرغم من كلمة إهداء كمال جنبلاط! كتاب مقدَّس بين يدي رجل غير درزي، هذا غير معقول. وعند قراءة المخطوطة، رضخوا للأمر الواقع إنها كتابة درزية حقاً. ولا يلزم أكثر من ذلك لكي أكون مقبولاً في الطائفة، لا بل أكثر من ذلك، أن أعتبر واحداً منهم. فصديق كمال جنبلاط، الأكثر تمثيلاً للدروز، لا يمكن أن يحظى بأفضل من هذا الاحترام؛ وذلك المساء، كانت الوليمة التي نظَّمها المشايخ فعل تقليد في قلب الطائفة.

كانت سهرة غريبة استمرت حتى آخر الليل. أولاً،

(*) قبعة ذات لون أبيض وأحمر يلبسها العقال.

المأدبة: أطباق من اللحم والخضار مطهية مع الصلصة وضعت على الأرض. وبدأ المشايخ باتخاذ أماكنهم بالدور، تربعوا على الأرائك، حول الصينية المدخِّنة. لا توجد صحون ولا شراشف. كل واحد يغرف من الطبق بواسطة قطعة من الخبز يمزقها وكأنها ورقة. يتناولون قطع اليخنة بين طرفي قطعة الخبز؛ أما بالنسبة للسوائل فقد حضَّروا نوعاً من الملعقة يناسبها.

وما كدنا ننتهي وننتقل إلى غرفة أخرى لتناول التحلية ـ فاكهة ـ حلوى وقهوة ـ حتى وثب الأولاد والنساء من المطبخ ليلتهموا ما تبقى من الطعام. بعد ذلك، رافقني الشيخ إلى القرية المجاورة، إلى ضريح القادر، حيث سيصلون قسماً من الليل. كانت مسيرة صامتة في العتمة عبر الحقول. أثناء تأملاتهم، سمحوا لي بالتصوير ولكن بدون إحداث أية ضجة: همُّهم دائماً هو عدم الكشف عن سر العقيدة.

إستقبلني الدروز في كلٍ من إسرائيل ولبنان وفي سوريا بدون حرج؛ في خلواتهم وأمام مقابر أنبيائهم. وأثناء أحد التجمعات التي حدثت سمحوا لي بالتقاط الصور الفوتوغرافية وبالتصوير السينمائي؛ لكنهم لم يسمحوا لي بتسجيل أحاديثهم. وسأسرد طُرفة في هذا الموضوع: ذات يوم في إحدى الخلوات، بمناسبة الحج الكبير للنبي شعيب، تجمَّع 15 ألف درزي داخل المقام وعلى سفوح المنحدرات

المجاورة. خبأت المذياع وراء بساط وتركت آلة التسجيل تدور. بعد ربع ساعة، اختفت آلة التسجيل، وبعد انتهاء الاجتماع جاء الدروز وسلّموني إياها معتذرين. لكن، لم يكن أي شيء مسجلاً على الشريط.

إن المهمة التي أديتها للدروز الإسرائيليين ستطول أكثر. كنت في الفندق في تل أبيب، عندما أعلمني مكتب الاستقبال بواسطة الهاتف أن سيدين يرغبان بالتحدث إليَّ. وبشكل غريزي، اكتشفت أنهم من الشرطة. بكل لطافة وبلغة فرنسية لا تضاهى، ـ الأول قادم من المغرب والثاني من تونس ـ دعياني لاتباعهما مع حقائبي. إنشغل بال الإسرائيليين، من جهة ذهابي وإيابي عند الدروز، ومن جهة ثانية، من الكتاب السري الذي اهتمَّ به المشايخ إلى هذا الحد. وبما أنه قادم من بيروت، أراد الإسرائيليون معرفة ما يحتوي هذا الكتاب، لكن المشايخ رفضوا ذلك، بحجة أنه يتضمَّن كتابة دينية. احترم الإسرائيليون وجهة النظر هذه، وبقي عليَّ أن أبرر نشاطاتي. بقيت نصف نهار لكي أقنع الإسرائيليين بالطابع السلمي لمهمتي. ويجب أن أضيف أنه، بالرغم من التدابير الأمنية التي تفرضها البلاد، لم ألقَ أية صعوبة للتصوير أو لممارسة مهنتي فيما طلب مني الإسرائيليون شيئاً واحداً خطياً: عدم إزعاج البلاد والخضوع إلى قوانينها.

النظرية الدرزية في تناسخ الأرواح

الاعتقاد الأكثر غرابة عند الدروز، هو التقمُّص، وهو مفهوم وضعه أفلاطون وطبَّقه على الديانة المصرية بصورة خاصة. فالحناشيون، الفيتاغوريون، و المانويون، مروراً بالغنوصيين وبعض الأفلاطونيين الجدد، كانوا جميعهم من أنصاره. واليوم، فالاعتقاد بالتقمص هو أساسي بالنسبة للديانتين البوذية والهندوسية، وليس مدهشاً أن نلاحظ أن الكثير من الدروز تجذبهم الهند. كما أنني لاحظت في سوريا، لدى أحد أطباء السويداء، مذبحاً يشبه مذابح الخصوصيين في الهند؛ وقد كان كمال جنبلاط يسافر دائماً إلى الهند ليتزوَّد بالجديد من المعرفة من أحد الحكماء.

تقول الكتب الدرزية إن الله حدد منذ بدء الأزمان عدد الكائنات في كل العالم، فكل موت يُستبدل بولادة. في كل مرة تغادر الروح الجسد تكون مدعوَّة بشكل مغناطيسي لمجاورة جسد قيد التكوين، ويحدد التأثير الكوكبي التبادل. فالدرزي، إذاً، لا يقول أبداً إنه يموت، يقول إنه يتقمَّص. إنها المرحلة الأكثر أهمية في حياته. يسميها التقمُّص. وهو انتقال الروح إلى جسد جديد. لهذا السبب، تبدأ الصلاة التي يتلوها الشيخ أمام جسد الميت بالعبارات التالية: «تركت لي الحياة. . .».

يعتقد الدروز أيضاً أن الأرواح ذاتها تتقمَّص دائماً فيما بينهم، إذاً من درزي إلى درزي، وليس مستغرباً أو نادراً، أن تصادف أولاداً صغاراً يتحدثون عن أمور سبقت ولادتهم، أو يعرفون فجأة بعض الأشخاص أو الأماكن التي عرفوها في حياتهم السابقة. وقد اكتشفت شخصياً عدداً من هذه الحالات، سيطول التحدث عنها في هذا الكتاب. مع ذلك، تستحق إحداها أن تُذكر فيه.

إليكم ما أخبرني أحد الدروز من سكان بيروت، ويدعى حسن الحلبي وعمره اليوم خمسون عاماً: «أتذكر أنه، في حياتي السابقة، كنت أسكن في السويداء في جبل الدروز. كان ذلك عام 1925، والدروز يحتفلون بآخر ذكرى للاستقلال الوطني. كنت في الخامسة عشرة، عندما دهسني جواد ومتُّ بين ذراعي والدي. وقبل أن ألفظ أنفاسي، تسنى لي الوقت لأرى صبية تحمل جرَّة على كتفها وتقدِّم الماء إلى والدي. يهتم الدروز بهذه الذكريات والتحقيقات، لكننا لا نتحدث عنها باعتبار أن مثل هذه الوقائع هي طبيعية بالنسبة لنا. وهكذا، وأنا ولد صغير بعد، استطعت أن أقود والدي عبر كل الشوارع الصغيرة في السويداء، دون أن أعرفها أبداً سابقاً حتى مكان وقوع الحادث. أستطيع أن أروي بالتفاصيل كل ظروف المأساة أمام شهود عيان من ذلك الزمان. كانت مجموعة كبيرة تتفرَّج على المشهد، وعندما ذكرت الفتاة

الصبية ذات الجرَّة، اندفعت نحوي امرأة وعرفت أنها كانت هي تلك الفتاة. وأكثر من ذلك، كنت قد وعدت بأنني سأقدِّم إلى امرأة كانت تساعد عائلتي في الشغل، ثوباً ووزرة. لكنني لم أستطع تحقيق وعدي قبل أن فاجأني الموت. لكنني رجعت لرؤية تلك المرأة ووفيت ما عليَّ «بقميصي الحاضرة» لوعد أخليت به في القميص القديمة.

هكذا، انتهت هذه الدراسة القصيرة، بطريقة ناقصة، عن الدروز ومعتقداتهم.

يجب ألَّا ننسى أن ليس للدروز مؤرخين في قلب طائفتهم. وقد هاجمهم كل أعدائهم في مؤلفات يعرفها كتَّابهم لكنهم يستخفون بالدفاع عن أنفسهم. وهذه القصة ذات السياق الأوحد، يمكن أن تكون مشبوهة، لكثرة المبالغات على الأقل، والأحكام التي تناولتها لم تُنشر بالموضوعية اللازمة، بينما الذين يهتمون بصدق الدروز، غالباً ما ضلَّلهم الدروز أنفسهم. وتحركت اهتمامات كثيرة حولهم لكي لا تجري المحاولة يوماً من الأيام في إعادة النظر بالأحكام التي غالباً ما سمَّرتهم على عمود التشهير.

عرف كمال جنبلاط أن الوقت قد حان للتعريف بالدروز، وهذا هو السبب الذي من أجله وضع ثقته بي بقبوله تصوير أول فيلم سينمائي عن هذا الشعب. فيلم من أربعين دقيقة، تمَّ إنجازه قبل اغتياله بوقت قصير، لكنه، وللأسف، لن يراه

أبداً. لماذا اختاروني؟ قال لي كمال جنبلاط ذات يوم، إن بعض الدروز يتقمصون خارج طائفتهم ليكونوا صلة الوصل بينها وبين سائر العالم. وأضاف قائلاً: «بوسعك أنْ تكون واحداً من بين هؤلاء».

الفصل الثاني عشر

المتصوّفون في الإسلام: الدراويش

جاك

تصوروا كليمانصو يغلق الرهبانيات والأديرة والصوامع ومدارس الراهبات ويزيل الأنظمة الرهبانية (البندكتيين، والدومينيكيين، واللاترابيين وغيرها)، مشتِّتاً رهبانهم في أربعة أقطار العالم ومحوِّلاً أديرتهم الجميلة إلى متاحف.

هذا ما فعله، عام 1925، مصطفى كمال مع الدراويش. هذا المصلح التركي الكبير الذي اتخذ لقب أتاتورك (أب الأتراك) كان همه إلحاق السلطنة العثمانية بأوروبا، وجعل تركيا دولة حديثة علمانية. فقد أقدم على تحريم وضع الحجاب ولبس الطربوش، من دون أن يسيء إلى القيم الأساسية للحضارة الإسلامية. فقد وجَّه ضربة قاتلة، من خلال قراره للعلمانية وفصل الدين عن الدولة، إلى أحد أهم الأشكال الروحانية اعتباراً في الإسلام، إلى جماعة الدراويش التي ظهرت ثلاثون جمعية منها في تركيا ما قبل الحكم

العثماني. ووفقاً لأوامره الصارمة، أصبحت الشعائر المقدسة للدراويش نوعاً من الفولكلور مخصصاً لجذب السواح. تصوروا أن قداس نصف الليل، يصرح به، بشكل استثنائي، خلفاء كليمانصو، فتؤديه مجموعة فولكلورية محلية أمام ردهة مسرح من اليابانيين والعرب...

هكذا كان انطباعي المضني بعد أن شهدت «السما»، الرقص الطقسي للدراويش الدوَّارين الذي يُحتفل به كل سنة في شهر كانون الأول/ديسمبر، في صالة للرياضة في مدينة قونية تكريماً للذكرى السنوية لوفاة جلال الدين الرومي، المسمى مولانا (معلمنا)، أحد أشهر الشعراء الصوفيين في كل الأزمنة. ومع ذلك، يجيء الناس من أمكنة بعيدة للحج إلى قبره في التكيَّة القديمة للدراويش. وغير مبالين بالسواح الذين يزورون هذا المتحف، يجيء مسلمون أتقياء يستغرقون في التأمل هناك، يتحدون السلطات، يصلون وأيديهم مفتوحة بشكل كأس على الصدر، والدموع في العيون، لمن كان مؤسس نظام الدراويش المولويين، المعروف في الغرب بتسمية الدراويش الدوّارين.

يصنِّف مولانا في سلالة كبار معلمي الصوفية، وهي نظام يكمن في استبطان الرسالة القرآنية.

نشأت الصوفية من تلاقي الإسلام مع الإرث الفلسفي والديني لبلاد الفرس القديمة، مع الأفكار الأفلاطونية

الجديدة ومبادىء الرهبنة المسيحية، وهي تسعى قبل أي شيء للوصول إلى المعرفة التامة للّه، وتحقيق الاتحاد به في هذه الحياة. وللوصول إلى ذلك، يتخيَّل المعلمون تزهّدات شخصية، هي الطريقة، أو الدرب الروحاني. إلى جانب هؤلاء المعلمين، نوع من الحكماء المسلمين، يخضع تلامذتهم إلى تمارين روحية مختلفة للتركيز والتأمل والتطهير.

في بداية القرن الثاني عشر ظهرت في تركيا إحدى المظاهر الأكثر خصوصية بالصوفية، هي الدرويشية التركية التي كانت جمعياتها المختلفة في البلدان الإسلامية على مثال ما كانت الأنظمة الرهبانية عليه في الغرب. ومثل الرهبنة المسيحية التي نابت عن الحياة النسكية لمتزهدي الصحراء، أعلنت الدرويشية نهاية التجارب التزهدية المنفصلة عن الصوفيين. ربما بتأثير من مثال الرهبان المسيحيين، اختار الصوفيون الأتراك إظهار تدينهم المشترك. ورفع شيوخهم، الذين كانوا مجرد مرشدين روحيين إلى مرتبة القديسين، وسطاء بين الله والبشر، وانتهوا بأن أصبحوا موضع تبجيل من قبل المؤمنين: تُبنى التكايا حول قبورهم. تبع ذلك تفتح حقيقي لتنظيم الدراويش.

لم تُنقِص التعليمات اللاذعة والقليلة الاحترام للسخرية من هذا التكاثر المفاجىء للقديسين، مؤسسي شيع الدراويش والأديرة، مثل قصة الحمار وحفيده، مؤسسان، ثم قديسان

محترمان، لديرين أناضوليين كبيرين: رهبان، قلقون من الفقر المتزايد لديرهم. قرروا أن يرسلوا راهباً مبتدئاً ليجمع الصدقة. فأعطوه بعد تعليمات علنية وقدسية أثمن ما في الدير وهو الحمار الفحل. لكن للأسف! مات الحيوان في الطريق، فدفنه الراهب الصغير، وراح يبكي على قبره، وهو لا يعرف ماذا سيحل به عند عودته. مرَّ من هناك باشا، حاكم مقاطعة بعيدة استدعاه السلطان ليقدم حساب ابتزازاته وإدارته السيئة، فشاهد الباشا الدرويش المسكين، فأمره دون أن يصغي إلى تفسيراته، أن يضفي بالصلوات نعمة القديس الذي يبكيه. مرَّ الوقت، وعاد الحاكم من القسطنطينية حيث سارت الأمور على ما يرام. ولكي يكرِّم الباشا، ذلك القديس الذي اعتقد أن الأمور سارت بفضله على ما يرام، شيَّد حول القبر ديراً غنياً. تعددت العجائب وتكاثرت، وأمَّه المؤمنون، مهملين الدير القديم الذي لا يزال يغرق في البؤس والنسيان فيما قرر الرهبان زيارة أخيهم الأوفر حظاً... تحيات...، عناق، وزيارات للقبر المقدس.. بدا مضطرباً ومنزعجاً، لم يقبل الدرويش الصغير أن يحمِّل ضميره مسألة غش رفاقه القدماء. انخرط في تفسيرات مزعجة عن طبيعة القديس الذي يرقد هناك، لكن أحد الرهبان قاطعه قائلاً: «لا تقلق، إنه حفيد القديس مؤسس ديرنا».

إلى جانب الدراويش الذين اختاروا حياة الدير، هناك

دراويش متسولون وتائهون يلتقون بتواريخ محددة، وكذلك دراويش متزوجون مجبرون على المساهمة في الممارسات الجماعية. وهم يتابعون في نفس الوقت القيام بمهنتهم والعيش مع عائلاتهم. هذا النوع الأخير من الدروشة هو الذي لا يزال قائماً حتى اليوم.

تستخدم كل جمعية صيغها الخاصة بها لممارسة تقواها التي تتراوح بين مجرى الفكر وبين ممارسات عنيفة أو سحرية إلى هذا الحد أو ذاك، التي تُقدَّم للمؤمنين كتجليات إلّهية. وهكذا وضعت بعض الجمعيات وسائل تؤدي إلى الغيبوبة عن طريق التنويم المغناطيسي: رقص، صراخ، بهلوانيات، مع الاستعانة أحياناً بالمخدرات. اتبعت معظم الجمعيات تقنية وسطية بين الفكر والمبالغات السيئة تسمى الذكر أي «ذِكر الله». إنها طريقة تركيز داخلي قائمة على تكرار دائم لإسم «الله» أو للصيغة الأساسية للإسلام أي «لا إله إلا الله».

مولانا والرقص الصوفي

إن أشهر الممارسات التي يطبقها الدراويش، وأكثرها معرفة من قبل الغربيين هي التي اخترعها مولانا في القرن الثامن عشر: «السما»، بالمقارنة مع التمارين الأخرى، ألطف بكثير وأكثر فناً. تتوافق هذه الحساسية مع المناخ الروحي للجمعية، وكذلك مع سمعتها. فهي تعتبر أكثر جمعيات

الدراويش رقياً في الإسلام: أعضاؤها من العثمانيين النبلاء، وقد احتفظت لفترة طويلة بثقافة ومعرفة رائعتين. هناك إعجاب في الغرب بتسامحها وإنسانيتها. حتى قصائد مولانا، المكتوبة على مدخل التكيَّة تدعو الذي يمر لاحترام قريبه:

«تعال، كائناً من كنت: تعال أيضاً سواء كنت ملحداً أم وثنياً أم مشركاً تعال أيضاً إن ديرنا ليس مكاناً لليأس حتى ولو كنت حرقت قسَماً مئة مرَّة تعال أيضاً...».

ألهذا السبب أعجب رقص الدراويش الدوارين كثيراً مشاعرنا الغربية، فلم تقصِّر الأقلام الرومنسية الشهيرة بالتعريف به؟ فإن أحداً لا يجهل الصفحات الملونة الرفيعة التي وجدها كل من غوتييه و لامارتين و نرفال.

ذات يوم، مرَّ مولانا بالقرب من محل للصياغة فسمع صوتاً منتظماً للمعدن الذي كانوا يصنعونه؛ فتخيل أنه يوجد في وتيرة الضرب قوة خارقة قادرة على أن تهز نفساً صوفية بعمق. فراح يدور، يدور ويرقص من الفرح...

«عدة طرق تؤدي إلى الله، أما أنا فقد اخترت طريقة الرقص والموسيقى». وقال عندئذ لأنصاره: «إن دور الموسيقى أساسي جداً في «السما». اكتشف مولانا الوظيفة التطهيرية للموسيقى، تلك التي تصر عليها «الأورفيّة» و الفيتاغورية. أما الرقص فهو أحد أقدم التعابير المقدسة الموجودة في كل المجتمعات البدائية: كان داوود يرقص

حول التابوت. المسيحيون الأوائل كانوا أيضاً يرقصون؛ لا يزال الهاسيديم يبحثون في دوراتهم عن فرح محبة الله عن طريق الغيبوبة الصوفية. إن مولانا، القادم من بعيد من خراسان. الموجودة على حدود إيران ومن أفغانستان و الهند، لا يزال يحمل، ربما، ذكرى أجداده الشمانيين(*) (عبدة الطبيعة)، الذين كان للرقص حتى الغيبوبة مغزى كبيراً جداً عندهم. فلفظة «سما» تعني حرفياً السماء. لكن، ألا يمكن أن تتماثل مع لفظة «سرامانا» باللغة السنسكريتية، أو «سمانا» التي تعني الرجل الموحى إليه من الملائكة؟

بقي صوت الناي مسيطراً عليّ لفترة غير وجيزة. تأوهات طويلة عذبة ومحزنة أعدَّني لها مسبقاً سيد دراويش قونية الشيخ «سليمان لوراس»: «شوق عميق في النفس التي تتذكر أصلها السماوي» كان يردد هذا على مسمعي دائماً. يا لهذه القدرة الرائعة للأصوات! كنت في القاعة كتلك النفس التي تتأوه مستعدة للانطلاق نحو عالم هذا الفرح والانسجام.

حسبما علَّمني الشيخ الجليل سليمان، وحسبما شعرت به بعدما تدربت طويلاً على يده، أن «السما»، هي قداس محمَّدي حقيقي، ولكي ندرك طابعها المقدَّس، لا يمكن أن نجهل رمز كل من حركاتها وكل من عناصرها.

(*) الشامانيون: راجع الملحق.

رسالة «السما»

فيما يحضر الإيقاع الرتيب والمعذب للفرقة الموسيقية، للتأمل، يدخل الدراويش واحداً واحداً إلى «السماهان» أي إلى المكان حيث يرقصون. يحيّون بعضهم بحرارة، ويأخذون أمكنتهم على أطراف المسرح. إنهم يلبسون رداءً أسود طويلاً وعلى رؤوسهم طاقية مخروطية عالية، «السكة»، صورة لحجر القبر. ينحنون جميعهم إلى الأرض يقبلونها، ثم يجلسون مكتوفي الأيدي على قلبهم، ويرتاحون في وضع من الخشوع الصامت، مأخوذين بالخالق. أخيراً، يأتي الشيخ، ممثل الحقيقة المحمدية، يتربع على جلد خروف أرجواني، وهو لون الاتحاد، إنه مكان الصلاة، متجهاً نحو مكة ويشكل مع مدينة الإسلام المقدَّسة خطاً مستقيماً يُقسِّم امتداده الخيالي المسرح إلى قسمين: خطّ وهمي يسمى خط الاستواء. يشكل الشيخ أثناء الاحتفال القطب، نقطة الالتقاء الزمني والروحاني.

يرتفع عندئذ غناء رتيب بطيء واحتفالي، مزمور لمديح النبي، حيث يذكر مولانا، صديق الله:

> «يا مولانا، صديق الأعلى الحقيقي أنت القائد بالروح للضعيف والمتواضع أنت الياقوتة والندى في بستان الأنبياء أنت يا طبيب القلوب، صديق الله».

ثم يعزف حاملو الناي مقطوعة مرتجلة، فيصغي الراقصون

من قلوبهم إلى نغم الناي، ورأسهم ينحني ببطءٍ إلى كتف اليمين، كأن الصوت يهدهدهم، مغمضي العينين، غائبين عن الوجود، مغلقين على أنفسهم، والتأوهات الخارجة من هذه الآلة الإلَهية هي تفجعات الرجل المفصول عن الله حتى الموت. تأمُّل تذمُّري، مقنع بحيث لم يبقَ أحدٌ منا، مهما كان قلبه قاسياً لم يشعر بنفسه مضطرباً وقد اقشعرَّ جسده.

يخرج الدراويش فجأة من تأملاتهم، بانطلاقة من قبل الفرقة الموسيقية. فيضربون الأرض بجبهتهم وينهضون. إنه القدوم غير المنتظر ليوم الدينونة الأخيرة.

يقوم الدراويش ببطءٍ بسير طويل، موقع على نغم الموسيقى، يدورون ثلاث مرات حول «السماهان»، رامزين بذلك إلى المراحل الثلاث التي تقرِّب من الله: الشريعة أو صوت العلم، الطريقة أو الطريق التي تؤدي إلى الرؤيا، والنجيعة الطريق التي تؤدي إلى الاتحاد. مسيرة مثيرة، بطيئة جداً! يحيِّي الدراويش فيها بعضهم بعضاً أثناء مرورهم أمام مكان الصلاة وعندما ينهضون، يدهشنا نظرهم الثابت الذي يتبادلونه، تماماً، على مستوى الحاجبين. وهكذا يعبِّرون عن أخوَّتهم.

مرة جديدة، توحي تأوهات ناي حزينة بالألم البشري. يختار الدراويش هذه اللحظة ليخلعوا معطفهم الأسود، معبِّرين بذلك عن أنهم تخلصوا من أنانيتهم. ويتدفقون غارقين

باللون الأبيض، خارج غشاء اللحم. يتقدم «السمازينباشي»، معلم الرقص، عندئذ باتجاه مكان الصلاة، وينحني أمام الشيخ ويتلقّى القبلة التي تسمح له ببدء الرقص، فيقلده كل من الراقصين. احتفال مثير للتواضع، حيث يقبِّل الشيخ قبعة كل درويش، ويعترف من خلال هذه الحركة بمساواة ووحدة كل المشاركين.

ينطلق الدراويش، الواحد تلو الآخر، على الحلبة، والأذرع متصالبة على الصدر، والأيدي متشبثة بالكتفين. والقدم اليسرى مشدودة بقوة على الأرض لكي تمثِّل المحور الجامد. ويبدأون بالدوران حول الحلبة متنقلين على القدم اليمنى. يبدأون تدريجياً، يفتحون ذراعيهم ورأسهم منخفض على الكتف الأيمن، ويرفعون الذراع اليمنى ـ إنها الذراع التي ترتبط بالوعي ـ لتلقي الفيض الإلّهي، بينما يخفضون الذراع اليسرى لكي يحظوا بهذه الهبة على الأرض، معتبرين إقامة هذه العلاقة بجعلهم الروح تنخفض حتى الأرض، من خلال أجسادهم بالذات، بينما يبقى محورهم الخاص وكذلك قلبهم بدون حراك إطلاقاً، وتنطلق الروح نحو مصدرها الإلهي. وعندما يضيعون في التأمل بالله، يضاعفون من سرعة الدوران أكثر فأكثر، فترسم تنانيرهم المتموجة، وهي تتسع، أشكالاً لولبية مضيئة. وبقدر ما تتعاظم النشوة، والانتشار والسرعة بقدر ما تتسع أثوابهم.

يميل الراقصون المنقسمون إلى قسمين بواسطة خط الاعتدال، قوسُ وهبوط أو اتحاد الأرواح بالمادة من جهة، وقوس صعود الأرواح إلى الله من جهة ثانية. وينضم الشيخ إلى الراقصين. وهو يصعد على مهل إلى خط الاعتدال يتخذ موقعه في وسط «السماهان»؛ إنها المرحلة الأخيرة لـ«السما». يدور الشيخ حول ذاته ببطء، والراقصون حوله، دوران الكواكب حول الشمس، ودوران الأرواح حول الله. وتكون الحركة الأخيرة عندما يدور الراقصون كل في مكانه، وعندما يفتح الشيخ ذراعيه باتجاه السماء، كما لو أن الاتحاد في قلوبهم، ذلك الذي عبَّروا عنه بالاندماج مع أذرعهم المتصالبة (الروح في المادة)، وقد بلغ انتشاره الكامل (المادة في الروح) بواسطة الحركات المتناقضة للأذرع والأثواب: التعبير المجسَّد لغبطة الاتحاد الإلّهي في جمود قلوبهم.

ينتهي الرقص الشعائري فجأة مثل الحلم. استمرت «السما» بضع ساعات، لكن النشوة كانت قصيرة. وللمرة الأخيرة تُعبِّر زفرات الناي عن آلام الإنسان المنفصل عن الله. هكذا، وبهدوء، يستعيد الدراويش وعي طبيعتهم. وعلى صدى التأوهات المعبَّر عنها بالنايات يدوّي جواب الله، قاطعاً لكن مطمئناً، من خلال السُوَر التي يتلوها «الحافظ».

وقبل أن ينفصل الدراويش بعضهم عن بعض يطلقون كلهم

نداءهم الأخير: استحضار إسم الله: هو... فإليه هو وحده ارتقت الصلاة.

أن تكون درويشاً اليوم

من الصعب وصف شعور إنسان غربي يشاهد احتفال «السما». هل هو مسحور بالغرابة الشرقية التي تصدر عنها؟ أم أنه ملتهب بالغموض العميق والتناقض اللذين تثيرهما مشاهد الرقص، مثل ما كان عليه، ربما، رومنطقيو القرن الأخير؟ يشعر، على كل حال، أن هناك، وراء خفَّة الدوامة واللازمة الموسيقية، شيئاً آخر يتعدى اللذة العادية للنظر والسمع، لكنه من الصعب عليه استيعاب المعنى العميق إن لم يكن مهيئاً لفهم الرسالة الإسلامية ودراسة الصوفية بالذات.

عندما يكون لنا الحظ أن نشارك لبعض الوقت في حياة وتعاليم الصوفيين والدراويش، ندرك أن ظمأ الله لا يروي الذي يستهلكهم. ومثلما تحترق الفراشة المتعطشة إلى الضوء، في الشعلة، يجذب النور الإلّهي هؤلاء المجانين بالله: فيتحلقون حول هذه النار لا يسعون إلى الدفء، بل إلى استهلاك ذاتهم فيها كلياً.

في هذا المجال، تتناقض الصوفية مع العقلانية والصورية القانونية للأرثوذكسية الإسلامية التي تهدف تعاليمها إلى تثقيف

روحانيتها الخاصة، أو تحمّل آلام الآخرين بدل نشر رسالة موضوعية، أو السعي إلى تنظيم طائفة. لا لم يكن النبيّ محمد متزهداً. ولم تكن رسالته باطنية، هذا ما يؤكده العلماء. وهذا هو السبب الذي من أجله رفضوا دائماً الجمعيات، واتهموها بأنها تثير الأحاسيس فقط، وتحافظ على الخرافات، وتنتهك سرعة تصديق مؤيديهم. وهكذا تستمر الصوفية في القرن العشرين في طرح السؤال: هل من الجائز لمؤمن أن يسعى إلى الارتقاء الجسدي من خلال صلوات خاصة أو ممارسات زهدية خاصة؟

هل أن الصوفي أو الدرويش اليوم، هو أن يعيش دائماً وأبداً كل لحظة في النهار، وكل لحظة فرح أو كدر، في الاتحاد الصوفي مع الله، على غرار الصوفيين الهاسيديم الذين يؤمنون بمذهب «ديفيكوت»، وهو الالتصاق الدائم بالله؟ توجد، بين هذين التعليمين الدينيين نقطة مشتركة أخرى، ففي القبلانية التي هي ذوق الله، لاستعادة صورة تقليدية، رؤية كونية شمولية. كما أن رقص الدراويش الدوَّارين يكشف أيضاً عن رؤية كونية: «إذا جزَّأت ذرَّة، تجد فيها شمساً وكواكب تدور حولها». ليس عالماً فيزيائياً نووياً ما يؤكد هذا، بل نص لمولانا في زمن القديس لويس.

«استيقظ أيها اليوم من سباتك! فالذرات ترقص، والأرواح المولعة بالنشوة ترقص. سأسر في مسمعك أين

يدفع بهم رقصهم. كل الذرات الموجودة في الهواء أو في الصحراء، كن على يقين أنها منتشية مثلنا، وأن كل ذرة، سعيدة أم بائسة، هي مسحورة بشمس الروح الكونية».

بالرغم من قوانين أتاتورك، فإن آخر درويش من دراويش قونية يحرص بحب كبير على ألا تقطع سلسلة سبعة قرون من التعليم المولوي. وأكثر من ذلك، فالإرث الروحي لمولانا هو على وشك أن ينتقل إلى حفنة من الغربيين الذين اختاروا قونية للعيش مع بقايا آخر أتباع «السما»؛ إنهم من الشباب الذين ولدوا في مجتمعنا الاستهلاكي في لندن و مونتريال، أو في سان فرنسيسكو، والذين يجيئون إلى هنا كالفراشات، يستهلكون ذواتهم في شعلة التصوف المولوي بأمل رؤية ما يسمونه «جنة مولانا المسحورة»، جنة تفتح أبوابها، حسب ظنّهم، في كانون الأول/ ديسمبر في قونية.

هذا أجمل ما يقدمه الإسلام، حسب رأيي، إلى الغرب: مجتمع التسامح والحب الذي أسسه مولانا. إنهم الشبان الغربيون الذين لهم غالباً مظهر الهيبيين هم الذين يقومون بهذه الصلة لأنهم: يعتبرون ـ بشكل ساذج نوعاً ما ـ أن مولانا هو أول من دعا إلى الشعار الشهير: «اصنعوا الحب، وليس الحرب».

والآن، في نيويورك وفي لندن، يدور هؤلاء الشبان

بشعرهم الأشقر والأسود أو الأحمر في المرائب أو المخازن التي يستعملونها مثل تكايا. حتى أن احتفالات «السما» التي يقومون بها هي بدون أي شك أكثر صدقاً من تلك التي تجري، بصورة استثنائية كل سنة في قونية، فقد أعلموني أنه: في شهر كانون الأول/ديسمبر، تكون قونية عاصمة المكر والتضليل. لا تجد فيها سوى الحيل والصور الساخرة عن النشوة والتصوف المزيف. إنه فولكلور مبتذل للتصدير. وفي وزارة السياحة في أنقرة، جرى تحذيري بأن «لا تذهب، خاصة، لتبحث هناك عن أي شيء ديني، فالقانون يمنع ذلك. وقد عانينا الكثير للقبول بذلك كفولكلور».

إنه مع الأسف. لم يبقَ غير الشيخ سليمان لوراس وبعض الراقصين فقط من الصوفيين الدراويش الحقيقيين؛ معهم، تعيش قونية في السر تنعشها حياة داخلية قوية، بينما الراقصون الآخرون ليسوا سوى عازفين عاديين يسعون لكسب المال.

عندما ترى قونية بمصانعها وجماهيرها الرتيبة في إحدى مراحل السنة، حيث قساوة الشتاء تغرق المدينة والسهب في الاكفهرار القاتم، بالكاد تعرف أن هذا مكاناً مقدساً حيث تُنفخ الروح، حسب تعبير «موريس باريس».

أصبح مولانا فيها نوعاً من «بابا نويل» يتباهون به من خلال كمية كبيرة من الملصقات المضيئة في الساحات

العامة. وقبعات الدراويش هي من الأثريات التي تعرض للبيع في مخازن السواح. كم ابتعد ذلك الزمن حيث الأفراح والأحزان تخرج الدراويش من خلاياهم لكي يرقصوا في الأسواق! والدور الرائعة التي صقلتها قرون من الرقص، أصبحت مغطاة بالغبار، وقبب الرصاص المتزهدة لـ«السماهان»، التي شيدها سليمان العظيم، لا تئن فيها آهة النايات ولا نقر الدفوف. وعندما تقام في صالة قديمة للرياضة، لا يمكن للسما أن تتخذ ذلك الطابع المقدس والمحترم للذين طالما سحروا المؤمنين في الجو الساكن عند الدراويش العثمانيين. فالجمهور مقيت، ينقاد وكأنه ذاهب إلى السيرك يأكل، يشرب، يدخن أثناء الاحتفال، تاركاً الأولاد والقناني الفارغة تملأ الحدائق... انتهى التأمل، وضاعت الحماسة الصوفية! الدراويش الحقيقيون، يجب أن تبحث عنهم في البعيد البعيد، على حدة، في عزلة قاتمة، حيث تستمر المسارَّة، بدون علم السلطات، ينقلها المعلمون بسرية تامة. بعد آخر مربَّع في قونية مع الشيخ سليمان لوراس، استطعت أن أكتشف في اسطنبول مؤمنين صوفيين حقيقيين. كم من الحوادث والمسيرات الطويلة والبحث والتعب عبر الشوارع المتعرجة في غالاتا القديمة للوصول إليهم، للإلتقاء أخيراً بالمعلمين!

إن الشيخ مظفَّر هو مرشد روحي لطائفة من الدراويش

الهلفيتيين المتحدين في أخوَّة الحب. اكتشفته بين كتبه في المكتبة الصغيرة التي يديرها في أحد شوارع إسطنبول الرئيسة. إنه رجل عطوف، غامض، ومتقزِّز للوهلة الأولى. أما عند المساء، عندما يجمع مؤمنيه حول منشدٍ وعازفٍ على الناي أو الرباب، فيبدو عندئذ أنه المعلم.

بعد اجتياز المدخل، نسير بمحاذاة غرفة تُحتفظ فيها بقايا محترمة تعود إلى الدراويش: عمامات، وبسط للصلاة، وكتب القرآن المزخرفة، وآلات للموسيقى وبعض الأثاث. يوجد فيها أيضاً بعض الآثار الجنائزية الصغيرة. نجتاز حديقة مظلمة نكتشف فيها نبعاً من حـجر الرخام مغطى بسقف يستند إلى أعمدة صغيرة رشيقة، فيها كشك صغير أيضاً. وتمر امرأة محتمشة، خفيَّة، محجَّبة ترتدي سروالاً فضفاضاً. إنها تركيا العثمانية نلتقي بها مجدداً. نحن هنا بعيدون عن اللافتات الإعلانية المتبجحة بالأشكال العارية للشقراوات الغربيات، ما زلنا نراها على مدخل المبنى.

واحد خلف الآخر، يمر الرجال في العتمة مثل المتآمرين، يقومون بوقفة تأمل قصيرة أمام البقايا الجنائزية، ثم يجتازون الحديقة بسرعة، ويخلعون أحذيتهم قبل الدخول إلى غرفة ينتظرون فيها الشيخ. أخيراً يُطل عليهم. إنه يختلف عن الحانوتي الذي عرفته وسط كتبه. هنا، يشع، فهو حاضر في قلب وروح كل شخص. وبطرفة نظر بسيطة يُقبِّل كل الحضور

الذي ينتظر في صمت مهيب أولى كلماته. كم يعرف كيف يجعلهم ينتظرون!!، كيف يجعلهم يرغبون به! ما من أحد يقطع الصمت قبل أن يبدأ هو بالكلام. يتقدم البعض منه ليبوح له ببعض أسراره؛ يستمع، ويطمئن وهو يربّت بأبوة على ظهر التلميذ؛ ويحضر قادمون جدد ويقبلون راحتي يديه.

هذا المساء، تم قبول شاب أميركي في الأخوَّة. تلقى الشيخ فعل إيمانه، وراح يتلو باللغة العربية الصلاة الشعائرية التي يرددها المهتدي من بعده. يمكن أن نقرأ السعادة على وجهه، وأن نرى حماسة الحاضرين. يعلنه الشيخ مظفَّراً مسلماً، فيتقدَّم الجميع لتهنئته، يصافحونه، ويقبلونه. إنه الإنفعال العام، وتنهمر الدموع من أعين البعض منهم.

خلال هذه السهرات، من عادة الدراويش أن يمارسوا الذكر في غرفة صغيرة مجاورة يستخدمونها كالجامع. قسم منها مخصَّص للنساء؛ منعزلات وراء قضبان الحديد، بوسعهن حضور الاحتفال والمشاركة فيه أيضاً.

وبما أن عدد أعضائهم غير كافٍ، جاءت جمعيات أخرى تنضم إلى الهلفيتيين. هناك درويش دوّار عجوز، تزين صدره مداليات أحرزها في ساحات القتال، وكذلك ثلاثة دراويش فقراء سيثقبون خدودهم، أثناء الاحتفال، بواسطة إبر طويلة.

يبدأ الذكر بتلاوة القرآن التي يقوم بها «الحافظ». وعلى الفور، يستسلم كل الدراويش لتمايلات موقّعة جانبية أو إلى

الأمام، مرددين إسم «الله». ثم يلي فيما بعد، ضربات الصنوج والطبول في اللحظة التي يصبح فيها إيقاع التمايل غير محتمل. وفي وسط الحلقة التي يشكلها الهلفيتيون، لا يتوقف الدرويش الدوَّار العجوز عن الدوران، بينما الفقراء الثلاثة الآخرون يستسلمون إلى النغم، بفم مفتوح، وخدودهم مثقوبة بإبرة تنتهي بشكل تفاحة صغيرة ثقيلة الوزن. أنغام وإيقاعات تُفقِد الدراويش شيئاً فشيئاً مفهوم هويتهم الشخصية؛ يدخل بعضهم في النشوة، الأذرع مرفوعة في الهواء ورأسهم مستلقٍ إلى الخلف... الدراويش الفقراء لا يشعرون بالألم أبداً.

متصوِّف في القدس

إلتقيت في القدس واحداً من الصوفيين الخارقين للغاية.

عندما التقاني في الشارع الضيق في الحي الإسلامي من المدينة القديمة، أحسست بشعور حبس أنفاسي لحظة خاطفة. أهو الإشعاع الذي ينبثق من وجهه، والتمجيد الذي يسطع في عينيه، أم صوته الحار المطمئن عندما يتوجه إلى التلامذة الذين يرافقونه؟ الوقت اللازم لأتمالك نفسي، وتجاعيد جلابيّته البيضاء، اختفت بين الجمهور الغفير، فلم أعد أرى إلا قطعة من القماش تتموج وراء عمامته الغريبة. لحقت به عبر الأسواق الموصلة إلى جامع صغير حيث ينتظره هناك

عشرون من تلامذته. هو، يوزّع قوته وشبابه، مبتسماً، مستمعاً إلى كل منهم مجيباً على أسئلة الجميع. هم، يحيطون به معجبين. لم يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره. أي تناقض هذا مع بعض العجائز ذوي اللحى الرمادية والمغترين بذواتهم!

ماذا تريد أيها الأخ؟ (بالإنجليزية). لم أعرف بماذا أجيب (هذا الشاب العربي يراقبني منذ بضعة لحظات). إنه شيخنا، هل تريد التحدث إليه؟ (بالإنجليزية)، أوضح لي بحرارة. رآني الشيخ يعقوب كيريش، فتحرر من الجمع، وبدون تردد جاء يصافحني بيديه الحارتين الصديقتين. استقبلني كصديق لم يره منذ زمن طويل، بينما تسارع أتباعه فالتفوا حولي، حول «أخ» جديد.

كيف! هذا الحانوتي الفقير في «فيادولوروسا»، الذي يحاول، من الصباح حتى المساء في حانوته المليء بالصلبان وتماثيل العذراء، جذب بعض الحجاج اليونانيين، كيف يمكن أن يكون هنا! وبائع الخبز العجوز النحيل هذا الذي يعجن خبزه ويخبزه في الطابق الأرضي البائس، هو هنا! تعرفت إلى رؤوس أصبحت مألوفة عندي من خلال إقاماتي العديدة في القدس. وأصبح الجميع، في لحظة واحدة، إخوتي. ومنذ الآن، أمام الفرن، وأمام الحانوت، ستكون: «مرحباً! أيها الأخ». (بالإنجليزية).

يتيح لي الشيخ يعقوب ومجموعته الصغيرة، في كل إقامة لي، أن أشاركهم التأمل والتمجيد. في الجامع الصغير ذي المدخل السري إلى درجة لا يعرف المرء طابعه المقدس، بعيداً عن فضولية السواح، نجلس بشكل نصف دائرة على البساط. يحرص الشيخ على أن أجلس دائماً بجانبه. خلال نصف ساعة أولاً يعلِّم القرآن ويجيب عن الأسئلة. ثم، يبدأ شاب فتي، «الحافظ»، بترنيم السور القرآنية بصوت رخيم ينطلق من عمق حنجرته مركِّزاً عينيه على الشيخ بحنان. في نظراتهما رغبة متبادلة هي حب الله. ومن وقت لآخر، يحني الشيخ رأسه جانباً قائلاً بغضب: الله. هل هي حدة حبه التي تتخلل تقاطيع وجهه؟ يبدو أنه يعاني، في هذه اللحظات، ألماً حقيقياً.

ثم يحين وقت التأمل الذي يعلن حفلة الذكر، إنها مرحلة الانقباض حيث يهيء كل واحد في داخله الارتقاء الروحي الذي سيقوم به. وتقطع لحظة التركيز العميق هذه، أحياناً، صرخة: «ألف»، يطلقها أحد المشاركين. يشير بذلك إلى ذكر إسم الله ألف مرة. ينهض عندئذ ويقبِّل يد الشيخ. لكن هذا الأخير يتهرَّب ضارباً بأصابعه نقرة صداقة خفيفة على خد التلميذ.

وبإشارة من الشيخ، أخيراً، ينهض الحضور ويمسك كل بيد الآخر. يعود «الحافظ» إلى ترنيم التأوهات القرآنية، بينما

يبدأ المشاركون بهز رؤوسهم من اليسار إلى اليمين، متمتمين فعل الإيمان الإسلامي. «لا إله إلا الله». تبدأ الحركة ببطء أولاً، وتنحني الأجسام بليونة، والأصوات فاترة أيضاً. ثم يحتد ترنيم الحافظ، ويتسارع إيقاع التمايل، وتصبح الأصوات أكثر تقطعاً وكذلك حركات الرأس. ينفصل عندئذ الشيخ عن الدائرة ويبدأ بالرقص في وسط الحضور وهو يقفز برشاقة. تلمع عيناه بإشعاع قوي، ينتقل من جسد إلى آخر يضربه بحركة خفيفة بيده على الصدر كما لو أن هذه العلاقة السرية تأمر المشارك بالتحرر من المادة قبل المباشرة بالارتقاء ليتَّحد مع الإلّه. فلا يتحول التنفس إلى مثل النفخ في المصهر، فلا يفيض من أعماقه فقط سوى إسم الله الذي يتكرر بلا كلل. إنه استبطان داخلي يوصل إلى التنفس فقط، ويضع المشارك أمام تحريك الحياة، الشهيق والزفير. ويصبح التنفس مبحوحاً بدائياً؛ لا يخرج من الحنجرة بل ينطلق من عمق أعماق الكائن. في هذه اللحظة يرتعد الشيخ «يعقوب»: إنه فريسة تشنج يُخلِّع أوصال جسده فنسارع، مع أحد التلامذة، لنمسك بطرف ذراعه نثبِّت قدميه من الجهتين، فيلقي جسمه إلى الوراء بهيجان وكأنه كسر إلى جزئين لا تخرج من حنجرته إلا حشرجات لا نفهم منها إلا كلمة الله. وجهه متشنج، عيناه جاحظتان، والرغوة على شفتيه، يتمايل إلى الأمام والى الوراء بقساوة، ورأسه مسترخٍ، حتى اللحظة

التي يختبط فيها مع اللامرئي صارخاً: «الله، الله، الله...» وصل يعقوب كيريش إلى الانجذاب، إلى نشوة الروح. ويتسارع من حوله إيقاع التنفس وكأنه صوت قاطرة تسير بأقصى سرعتها. بلغ ذروة الذِكر. ووصل إلى حالة الانخطاف التي تؤدي إلى الغيبوبة. ويبدأ التمايل، سريعاً، بالتناقص ويتخذ مظهراً رتيباً من الاستراحة والهدوء. تنكشف العيون عن البصر، ويستيقظ الوعي بقدر ما يهدأ إيقاع التنفس وتمايل الأجساد. شعور هائل بالجمال بالتناغم وبفرح العالم ينتشر في جسدي عرقاً، أرى لزاماً عليّ أن أتلاشى لكي أبرهن ذلك أخيراً.

حيثما شاركت في ممارسة الذكر، إنْ في أسوان أو إسطنبول أو الخليل، أو في أي مكان آخر، لم ألتق بمعلم جذاب أكثر من الشيخ يعقوب كيريش. لا يمكن اعتباره صدفة عادية كونه يتحدر من عائلة في القدس. حتى أنه عندما يتوجه إلى بعض المؤمنين المتجمعين تحت شجرة التين، بعد صلاة الجمعة، في المكان الذي ارتفع فيه الهيكل فيما مضى أتصور أنني في حضرة «المسيح» المبشِّر في وسط تلامذته. كم من مسيح لم يتعاقب هكذا؟

ومثل كل الصوفيين، يكنُّ الشيخ يعقوب احتراماً عميقاً للديانات الأخرى: «كلهم يصلون لله، قال لي، ولكنهم لا يعرفونه». تلك صيغته هو لتفسير فكرة يهودية أحترمها بصورة

خاصة: «إذا رأيت وثنياً يصلي، احترمه، لأنه إلى الله الحقيقي يتوجه دون أن يعرف ذلك». وقال لي الشيخ يعقوب إنه على صلة منتظمة بالمسيح: يسمع صوته كما أنه يحترم العذراء مريم بشكل خاص.

ربما سيتحدثون في يوم من الأيام عن الشيخ يعقوب كيريش الشاب، في القدس، كأكبر مرشد ديني؛ فحبه لله يضعه في حالات التأثر الكبير؛ وقد حدثني عن هذا التأثر بنوع من التعظيم، لكنه بدا، في الواقع حزيناً لأنه لا يستطيع نقل شغفه به إلي.

بالنسبة لي، كان تواضعه أشد صلابة من إيمانه. لم يقبل أبداً بأن أصوره. «إنني لا شيء بين يدي الله»، يردد باستمرار، وما من حجة نجحت عندي لأغير رأيه، إلا يوم قرر تحدي منعه من الوصول إلى قبر النبي موسى على مقربة من البحر الميت.

يجذب هذا القبر المقدس إليه، في فصل الربيع، منذ زمن بعيد، كل مسلمي فلسطين. وخشية رؤية مثل هذه التجمعات التي تُستغل لغايات سياسية، منعها الإسرائيليون منذ احتلال المنطقة في العام 1967. أراد الشيخ يعقوب، في العام 1978، أنْ يستغرق في التأمل في النبي موسى، ومنذ الصباح الباكر اجتاز على رأس تلامذته المدينة المسلمة، داعياً بواسطة مكبِّر للصوت، المسلمين الأتقياء للإنضمام اليه. ما من نبي مكرَّم في بلده، يقال: فتح التجار دكاكينهم كالعادة

دون أي اكتراث بالموكب، فلم يبقَ إلا بعض التلامذة المتحمسين للشيخ ليملأوا الباص القديم ويسيروا باتجاه البحر الميت.

لم أرَ من النبي موسى إلا القبب البيضاء المركزة مثل الفطر على ربوة قاحلة جرداء. لأنه في اللحظة التي كنا سندخل فيها إلى الطريق الصخري المؤدي اليه، توقف الباص فجأة بأمر من سيارة جيب عسكرية، لست أدري من أي وادٍ ظهرت، فتألق وجه الشيخ فوراً لدى رؤية الكابتن الشاب يترجل منها. أظن أن هذا الهدوء يخبىء رغبة الشهادة الملتهبة. «أرأيت، كم نحن مضطهدون من الإسرائيليين، قال لي أحد رفاق الرحلة، إلى السنة القادمة في النبي موسى. إن شاء الله!».

العودة حزينة ومخيِّبة للأمل. وبقدر ما كان القبر المقدس يتوارى في غبار اليهودية، كانت تتقطب وجوه المسلمين، لتبدو عدوانية تجاه الضابط الذي خفرنا. وعندما رآني مدججاً بآلات التصوير، واللمبات والمذياع والمسجلة، قال لي ببساطة، وبشكل مستسلم ولكن بلهجة آمرة: استمر في ابتسامتك، سترجع فوراً إلى القدس (بالإنجليزية). ومع هذه الكلمات، ضاع آخر أملٍ لي بتصوير هذه الجزيرة الصوفية الصغيرة، ومعلمها المدهش، الملهم نوعاً ما بهذه الأرض.

آه! كم مرة وقفت سيارة البشر حاجزاً أمام طريق ابراهيم؟

الفصل الثالث عشر

الهاسيديم الأتقياء بين الأتقياء

جاك

«أن نعبد الأزلي، يعني أن نعبِّر عن فرحنا أولاً».

بعل-شم-توف

إذا كان لا يزال هناك غيتو في العالم، فهو حي (Mea-Shearim) ميا شياريم، القائم بين مدينة القدس القديمة والمدينة اليهودية الجديدة. إنه غيتو بناه اليهود أنفسهم لكي ينعزلوا عن يهود آخرين.

أنبأت المضيفة الجميلة سلفاً سائح الـ «هولي لاندتورس»: هذا الحي هو مغالطة تاريخية. يعيش سكانه على هامش الدولة، على هامش المجتمع الإسرائيلي؛ وهم يشكلون مجموعة ستنتهي مع الزمن.

تجتاز السيارة على مهل شارعاً طويلاً محاطاً ببيوت واطئة على الطريقة الأوروبية، ذات السقوف المنحدرة كما في

البلدان حيث يتساقط المطر بغزارة، والشرفات الصغيرة، والساحات المتعددة، والأبواب الداخلية المقببة. على مدخل السوق، متسول دائم، يرتدي معطفاً ثقيلاً أسود، ينتعل حذاءً ويعتمر قبعة عريضة، يمد صفيحة من خشب كُتب عليها بالإنجليزية و اليدّيَّة (gidolish)، والعبرية: «أيتها الفتاة اليهودية، إن الثورة تأمرك بأن ترتدي ثياباً محتشمة، وأن يصل الفستان إلى ما تحت الركبة، وأن تغطي النساء المتزوجات رؤوسهن. إننا نرجو الزائرين ألا يجرحوا مشاعرنا الدينية بالنزول إلى الشوارع بأزياء غير لائقة».

مرة أخرى يتم تنبيه السائح. ميا شياريم هي قلعة الأرثوذكسية التي لا تتزعزع. عالم غريب، يرتدي الشيوخ فيه معاطف قاتمة ويعتمرون الـ «الشرايمل»(*) ولحاهم كثّة، يقودون بأيديهم أطفالاً كالملائكة حالمين يضعون أوراقاً طويلة لتجميد الشعر، تحيط بوجوههم الصفراء. عالم غريب من المراهقين ذوي النظرات الشاردة، والخطوات السريعة، يضعون الكوفية الحريرية السوداء، مع الزنار الملفوف حول الجسم، والسروال الضيق، والفتيات اللواتي ارتدين كيفما تيسر، والنساء التي تضع البروكات والقبعات على شكل كرة، وأكتافهن مغطّاة بالمناديل وتختفي أرجلهن تحت تنانير طويلة

(*) قبعة عريضة مزينة بالفرو.

وكواحلهنّ تحت جوارب من الصوف، هذه هي الحيوانات البشرية الغريبة التي يسرّ السائح برؤيتها تحت حرارة 40 درجة في الظل. لكن الويل للتي تدخل ميا شياريم باللباس القصير: فإنها تتعرض للشتم، والركل ثم تطرد أخيراً بالحجارة إذا دعت الضرورة. والويل لمن يحاول تصوير يوم السبت: يهددونه بالقبضات وهم يخبئون وجوههم ويصرخون: «السبت، السبت (Sabat)» ثم يحطّمون آلة التصوير.

هؤلاء الناس الموجودون خارج الزمان والمكان، القادرون على القيام بأبشع الأشياء، هم أتباع أغنى صرح للروحانية اليهودية: إنهم الهاسيديم، الأتقياء بين الأتقياء.

كما أنهم غير معروفين من غير اليهود، فهم غير مفهومين أيضاً من اليهود أنفسهم، الذين يصنفونهم بالطفيليات الاجتماعية، والمتعصبين البرابرة، وبقايا القرون الوسطى. «هؤلاء اليهود ليسوا مثلنا» هكذا يرددون في تل أبيب. ومع ذلك، لا بد من الاعتراف مع ديفيد بن غوريون، «بأنه لا يمكن معاقبتهم لمجرد أنهم يشبهون آباءنا» حتى ولو كان البعض منهم معادياً بضراوة لدولة إسرئيل(*)، لدرجة تبرير عمليات الارهابيين العرب كعقاب يستحقه الصهاينة. فالإسرائيليون يقبلون بهم إذن دون أن يحبوهم.

(*) راجع الملحق: المدافعون عن القلعة.

تجديد جاء من أوروبا الوسطى

لكي تفهم الهاسيديم، يجب الخروج من الشرق الأوسط والدخول في الجاليات اليهودية البولونية والأوكرانية والليتوانية في القرن الثامن عشر، هناك، حيث ولدت حركة التجديد للهاسيديم.

كان الشعب في تلك المرحلة، يخضع لعبودية روحية قاسية من قبل قادة أصوليين. كانت الديانة امتيازاً لفئة من المتعلمين يمارسون بتلذذ، نوعاً من الرياضة الفكرية الخادعة، حول ذمامة لا مجال إطلاقاً لتطبيقها. كانت تلك اليهودية محرومة من أية قدرة على الخلق، وأية فكرة كانت معدمة. في هذه اليهودية الحزينة والباهتة صانع معجزات صغيرة مغمور إسمه إسرائيل بعل ـ شم ـ توف «سيد ذو شهرة كبيرة».

ماذا فعل بعل-شم ـ توف إذن؟

كما نجح مولانا في تليين قساوة الإسلام من خلال تعليم أن طريق الرب تمر عبر الموسيقى والرقص، فإن بعل-شم-توف، طوَّر اليهودية بإعلانه ضرورة قول كلمة «الله» بفرح. لقد انتهى عهد العبادة في بيوت الدرس المظلمة وانتهت المعرفة التلمودية المقتصرة على طغمة من الكهنة الذين يحتقرون غير المتعلمين. وأجاب بعل-شم-توف على صيغة التلمود التي تؤكد أن الجاهل لا يمكن أن يكون تقياً: «إن لنا روحاً وليس كتاباً». وهذه الروح يملكها حتى أبسط الناس.

أصبح الهاسيديم سراً شعبياً، لأنه استجاب إلى حاجة حقيقية على المستوى الشعبي، ويستند هذا السر إلى اتحاد ثابت بالله، وهذا ما أسماه بعل-شم-توف «ديفيكوت»، وهو شكل يهودي للاتحاد الصوفي، كما هو عند الدراويش، ولكن مع فارق أنه عند الهاسيديم يتحقق الاقتراب من الله في كل لحظة من وجوده، حتى في أصغر المهام اليومية، وليس فقط في أوقات الصلاة أو التمارين الروحية.

إن هذا المفهوم الجديد للإيمان، الذي واجه «الميتناغديم» الأصوليين البورجوازيين الأدعياء، بالهاسيديم الرافضين، يمكن أن يتلخص بفكرة أحد أشهر المفسرين المعاصرين للهاسيدية، الفيلسوف مارتن بوبر: «يمكننا أن نكلم الله، ولا يمكننا أن نتكلم عن الله».

شكل بروز الهاسيدية، في الحياة اليومية للعالم اليهودي في أوروبا، ربيعاً جديداً للإيمان الذي تحول من إيمان خائف وحزين إلى إيمان محب وحماسي. لقد أفسح في المجال أمام ترويح عن النفس معنوي وروحي، تجلى بخلق موسيقى ورقص وشعر فريد تماماً. فقد تجسدت هذه العناصر مع الوقت في الثقافة اليهودية، ولا تزال حتى أيامنا هذه تعبِّر عن انطلاقة روح يهودية لا تقهر.

هذا ما هو ضروري معرفته لفهم الهاسيدي واحترامه، الذي نصادفه في شوارع ميا شياريم، وفي حوانيت أنفير

(Anvers) أو نصادفه في قاعة مطار ما. إن طابعه المغالط للتاريخ، الذي يصدم للوهلة الأولى أو يثير، يجب وضعه في عداد الأفكار المسبقة الكلاسيكية، أو التقييمات الخالية من الشفقة والوضوح. فهذا شأنهم إذا هم أجبروا نساءهم على قص شعرهن. أو إذا لفوا رؤوس أولادهم بأوراق التجعيد أو ألبسوهم الـ (Aber Rannfess)، نوعاً من الوشاح ذي الأهداب الطقسية. هل هذا هو المهم؟ لأنه إذا كان الهاسيدي يعني الانتماء إلى مجتمع ما، فهو بالدرجة الأولى شكل من أشكال الحياة يعبَّر عنه بالحماس الذي يرتبط بكل ما يتعهد به. إنه ليس عملاً دينياً فحسب، فالخياط المتواضع في محترفه المظلم في مياشياريم أو في بروكلين، يدرك أنه يقوم حتى وهو يقص قطعة القماش، بعمل كامل، لأنه يقدِّم كل حركة من حركاته إلى الله.

عالم ميا شياريم الشاذ

إن رقَّاص ساعة الزمن بالنسبة لبضعة ألوف من اليهود في ميا شياريم، وهو منضبط دائماً على توقيت الغيتوات في أوروبا الشرقية. فهم يعيشون منعزلين كلياً، بنوع من الاكتفاء الروحي والمادي الذي يميزهم عن ألوف اليهود الآخرين في القدس، وهم على خلاف لاهوتي مع الحياة «التجديفية» لدولة إسرائيل المعاصرة.

دون الرجوع إلى أزيائهم المغلوطة تاريخياً، وغير الملائمة لمناخ الشرق الأدنى، فإن أولى سمات هذا الفرق هي اللغة. فسكان ميا شياريم يتكلمون عادة «اليدّيّة» وليس العبرية. لأنهم يعتبرون العبرية، لغة مقدسة، لا يجوز أن تُستخدم للابتذال الضروري للأشياء والحركات اليومية. إن جهل هذه العادات، على مستوى اللباس أو اللغة، يمكن أن تكون له نتائج غير متوقعة. اعتقاداً مني أنني أفعل جيداً بالتكلم بالعبرية وأن أبحث عن حاخام ما، لم أصادف شخصاً مستعداً لإعطائي أية معلومة، مع أنني كنت أبحث عن أشهر الحاخامين في الحي، موشي هيرش زعيم حراس القلعة (Neturei Karta). وبعد يوم من المحاولات البائسة، قام هاسيدي شاب آلمه تعبي، وأفهمني باليدّيّة قبل أن يتوارى بسرعة وراء باب مدرسة تلمودية (Yeshiva) أنه طالما لا ألبس القلنسوة (Kippa). وطالما أجهد نفسي باستخدام لغة الله، لن أحصل أبداً على المعلومات التي أرغب فيها. بعد عشر دقائق، لبست القلنسوة، وأكملت باللغة الإنجليزية، فإذا بي أدخل باب مدرسة التلمود التابعة للحاخام هيرش. . .

نعم! إنهم لا يتساهلون في ميا شياريم مع الذين لا يتبعون مبادىء وقواعد السلوك المنصوص عليها في التوراة(*)

(*) راجع الملحق.

والتلمود؛ وفي هذا المجال، لا يشبه الهاسيديم السامريين. وإذا ما تركوا خصلتين من الشعر تتدليان على جانبي الصدغين فذلك أن «اللاوي» منع قص الوبر، وإذا ما قصوا شعر نسائهم فذلك أيضاً لأن «اللاوي» يقول إن المرأة المتزوجة لا يمكن أن تكون متعة جنسية للآخر، وهكذا فالحياة اليومية وعبادة الله مرتبطتان بشكل وثيق.

منذ أن تظهر النجمة الأولى في سماء القدس معلنة السبت تغرق ميا شياريم بالسبات، ويركض فتيان إلى حدود الحي ويجوبون الشوارع لكي يوقفوا السير، ويحمل آخرون حجارة في جيوبهم مستعدين لرجم أول سيارة تمر. تُطلق الصفارات ويدوِّي الشوفار (Chofar) قرن الكبش القديم، فيغزو الجمهور صراخ وسط الأزقة والشارع الكبير، ليتوزع إلى المعابر، حيث لا يزيد بعضها عن بيت صغير. ومنذ عتبة الباب، يقوم حاخامون يرتدون الشال الطقسي بجذب المارة. إنهم يبحثون عن آخر مؤمن لتحقيق الميتيام أي نصاب 10 مشاركين ضروريين لكي تعلن الذبيحة. ويُسمع من النوافذ تراتيل المزامير الصاخبة والصلوات التي تقطعها الهتافات المدوية بينما يردد التلامذة الفتيان أغاني الفرح، «النيغونيم سميحا»، حيث يختلط الفرح بالإيمان الأسطوري. طيلة أربع وعشرين ساعة، لا يجوز القيام بأي شيء آخر سوى هذا: التوجه إلى الخالق. لا يمكن أن نهتم بأي شيء دنيوي مدنَّس، ولا يجري تحضير الغداء، ولا يغتسل المرء. والأمر كذلك

بالنسبة لاستخدام الكتف سواء للاتصال أم للإجابة. حتى للدفاع عن حياته. فالهاسيدي لا يرفع إصبعه الصغير خلال السبت.

إن ميا شياريم الممتدة على مسافة كلم مربع، تعني بالعبرية: «مائة باب».

واليوم، عندما نتجول في شوارعها الضيقة وفي ساحاتها، نكتشف حيوية كبيرة، عالماً رائعاً، من الملتحين و «المشعرانيين» يتجولون باستمرار، ونظرهم لا يرى سوى الأبدية. في وسط الشارع يمكن أن يتوقف حاخامان فجأة ويناقشان خلال ساعات كلمة في التلمود دون أن يوجِّها نظرة إلى الخارج، حيث تنضم إليهما جمهرة من الشباب المستعدين للقتال من أجل رأيهم. إنهم «ألباهوريم» طلاب الكوليل واليشيقوت، المعاهد التعليمية التلمودية والسحرية التي تعطي التلاميذ في جميع الأعمار تعاليم دائمة، دون أن تعطي أية شهادة ودون أن يكون لها أي هدف، سوى الدخول «في الحقل الصوفي للاتحاد بالله»؛ 50% من سكان الحي يكرسون وجودهم لها، والنصف الآخر يكرِّس نفسه للاعتناء بها. في سن الخامسة، يبدأ الأولاد بتعلم التوراة، في الثانية عشرة يعرفون التلمود جيداً، ثم ينتقلون إلى الكابال(*)

(*) راجع الملحق: القبلانية أو التلقي.

(Cabale)، دراسة القبلانية؛ لكنهم، لا يصبحون أهلاً للانكباب على الوثائق التزهدية الزوهار، (Zohar)(*)، كتاب الروائع، إلا في الأربعين من عمرهم.

الى جانب هذا النشاط الدراسي المكثف، هناك كل المهن الصغيرة التي يستلزمها نمط من الحياة قائم على احترام القانون: الكتبة «سيفريم»، مقدمو الذبائح «شوهتيم»، المطهرون «موهليم»، حراس وحارسات المكفوت (Mikvoth) «الحمامات والأحواض الطقسية» صانعو البروكة والـ (Meruzoth)، صانعو السبح وصانعو القبعات الذين يصنعون سراويل وقلنسوات السبت، خياطو العباءات، الحرفيون الذين يصنعون المعدن: شمعدان السبت (Hammukah) وبعض أواني التزيين المصنوعة من الخشب، والمعدن، والحجر، والحرير والمخمل، وفي خدمة المكتبة وصناعة المنشورات والأقاصيص، هناك عدة ناشرين صغار ومصححين وغيرهم. كل هذه الحوائج معروضة في المخازن القريبة من ملحمة شرعية (Kacher) «لحم الحيوانات المسموح أكله لأنه ذبح حسب الطقس الديني» والمسمكة التي توزع السلاطعين والأسماك للمآدب الطقسية، أو الفرن الذي يخبز المسوط (Massoth) وهو خبز بدون خميرة مخصَّص للفصح.

(*) راجع الملحق.

ليس لميا شياريم إذن أية وظيفة اقتصادية بذاتها لكنها تعيش كلياً على مساعدات الجاليات الأجنبية، خاصة جاليات الولايات المتحدة، بشكل أخص مساعدات وليامسبورغ وهو حي نيويوركي ذو كثافة هاسيدية كبيرة.

الصدِّيقية أو طريق الحكمة (Tsaddiksime)

أدى نهوض الهاسيدية السريع بين المهاجرين اليهود في أوروبا الشرقية إلى بروز سبل روحية عديدة (Derekoth) شبيهة بالحلقات الصوفية. إن هذه الظاهرة، وإن كانت طبيعية، مع كل تجديد ديني، تتميز بطابع فريد في الهاسيدية من خلال الدور الذي لعبه ويلعبه دائماً (Tsaddik) الصدِّيق، وهو نوع من الزعيم العادل، يقيم الشعب والرسل له عبادة شخصية حقيقية. في دراستي عن الهاسيدية ركزت اهتمامي خاصة على الصدِّيقين بالذات.

إذ يمكن أن يُقارن الصدِّيق بالحكيم الهندي: وهو معلم روحي، واجبه الأول القيام بوسيط بين الله وجماهير المؤمنين. وبسبب قداستهم الرائعة، وسلطتهم الخارقة، تنسب إليهم الكثير من العجائب. جذب الصدِّيقيون إليهم، في بولونيا وليتوانيا وهنغاريا، معجبين جاؤوا لاستشارتهم وللإصغاء إليهم، والتسلح منهم بالقوة المعنوية الضرورية لتحقيق اتحادهم بالله. كامتياز بالحق الإلهي، تنتقل مهمة

الصدِّيق من الأب إلى الإبن، أو أنه لا يخرج على الأقل عن العائلة. فقد تكونت هكذا، هاسيدية شهيرة تمتعت دائماً بنفوذ كبير، لكن التيارات الروحية تباعدت في ظلها لدرجة ان سلالات الـ ربِّبة (Rebbes) لجأت إلى العنف فيما بينها. هكذا يسمون اليوم الصدِّيقين. وهذه السلالات تحمل أسماء المدن التي تحدرت منها وهي: سلالة بلز (Belz) على خطوتين من فرصوفيا؛ سلالة ساتامار (Satamar) مدينة في هنغاريا، سلالة اللوبافيتشيين بافيتين، مدينة في بيلاروسيا؛ مملكة برسلاق في بولونيا؛ الخ. على الطرفين يقف اللوبافيتشيون والساتاماريون. إن معلم (ربِّبه) المجموعة الأولى، الأكثر أهمية والأكثر حداثة، يحكم إمبراطورية من 250 ألف شخص موزعين على القارات الخمس. تخلوا عن الزي التقليدي، لكنهم احتفظوا بالألبسة القاتمة. إنهم أكثر الهاسيديين دينامية، وأكثرهم استخداماً للمحركات وللتلفون، وأكثر استخداماً للطائرة في أسفارهم. ولا يقتصر وجودهم في إسرائيل على مساحة المائة باب فقط، بل إنهم قد خلقوا مدينة خاصة بهم «كفرهباد»، تضم مشاغل ميكانيكية، ومزارع لتربية الماشية ومزارع زراعية، وبالطبع بناءً تحتياً كاملاً من المعابد والمدارس ودور الأيتام. يجوب أعضاؤها إسرائيل بكاملها، حتى أنهم يخاطرون بحياتهم في ميادين المعركة لكي يرفعوا معنويات المقاتلين.

الهاسيديم وإسرائيل

على عكس اللوبافيتشيين، فإن الساتاماريين معادون للصهيونية بعنف. لا يعترفون بدولة إسرائيل، لأنهم يعتبرون الصهيونية محاولة تحقيق، على الصعيد الدنيوي، ما يجب أن يحققه المسيح وحده، وعلى الصعيد الإلّهي، يعيش أعضاؤهم بشكل رئيسي في حي وليامسبورغ في بروكلين ويشكل مناصروهم في إسرائيل جزءاً من المجموعة المتطلبة الشهيرة. حراس القلعة في ميا شياريم، ينبهون زائريهم من خلال يافطةٍ على أبواب منازلهم: يهودي وليس صهيوني. عام 1959، عندما زار زعيمهم إسرائيل، اضطروا إلى حمايته من غضب الجماهير التي تظاهرت ضده.

إن الوضع النزاعي الموجود بين الهاسيدية في ميا شياريم والصهيونية تتضاءل حدته إجمالاً. فعداوة الهاسيديم ناتجة عن الخوف من أن تتخذ الدولة اليهودية إنجازاتها وانتصاراتها للتضييق عليهم بقانون العودة والولادة العبرية لقدوم الوعد المسيحي. بالطبع، إن الكثير من الصهاينة الدينيين، دون الادعاء بأن الدولة اليهودية هي النبوءة ـ الوعد، التي يرون فيها بعداً ذا منحى، برز هذا التصور خاصة بعد حرب الأيام الستة، في حزيران/يونيو عام 1967 بعد احتلال مدينة القدس القديمة عندما تحوَّل الحداد الألفي على حائط المبكى إلى

فرح، حسب بشارة الأنبياء. حصلت في تلك المرحلة أيضاً، تغيرات في التصرف ملموسة عند الكثير من هاسيديم ميا شياريم وما إن أصبح بالإمكان الوصول إلى الحائط، حتى أقبل اليه المصلون. دون أن يتمكنوا من نسيان أن الذين احتلوا هذا الصرح المبني بالحجارة المقدسة هم المظليون في الجيش الإسرائيلي، جنود الدولة اليهودية، والصهيونية، الذين هم أنفسهم جاؤوا يصلون بعد أن أنهوا القتال.

تركت الكارثة تأثيراً كبيراً على الطوائف الهاسيدية. في أوروبا ساهمت بهذا الشكل أو ذاك في تعديل عدائها تجاه الصهيونية.

لا يزال الصهاينة يتذكرون خلال الحرب، ظهور هارب بولوني لا يتميز بشيء عن اللاجئين اليهود والآخرين السرّيين. كان يلبس قبعة فوق شعر قصير، حليق الذقن ويرتدي ثياب عامل من فرصوفيا. أنا «آرون دوف» قال ذلك للصهاينة الذين صنعوا له هوية مزوَّرة تسمح له بالمكوث في فلسطين بدون معرفة الإنجليز. إن «آرون دوف» هو المعلم الهاسيدي النافذ في بلز (Belz) وقد اشتهر في بولونيا بكونه قائداً شرساً ضدّ الصهيونية.

إلا أن الصهاينة استقبلوه بدون ضغينة، واعتراف الريّبه بصراحة وشجاعة أنه كان على خطأ. منذ ذلك الوقت، توقف هاسيديم بلز في أنفير عن التبشير ضد الصهيونية دون أن

يصبحوا صهاينة. انضموا حتى إلى الحزب السياسي، «أغودات إسرائيل»، أحد أصغر الأحزاب الدينية الإسرائيلية التي لها نائبان في البرلمان ويتمثلون في الحكومة بنائب رئيس الحكومة؛ تدعو عقيدته السياسية إلى إعادة بناء دولة بروح التورا.

محاضرة هاسيدية

إن الدخول في وسط هاسيدي يشكل تجربة رائعة. فقد مارس الهاسيديون تأثيراً كبيراً عليّ. اقتربت منهم بتعاطف كبير. وكل مرة أتيح لي التواجد بينهم، واجتياز عتبة إحدى مدارسهم التلمودية أو معابدهم أو المشاركة في احتفالاتهم وأعيادهم أشعر بنفسي وكأنني في عالم آخر. ليس فقط أنهم مختلفون عن غيرهم لكن الأثر الهاسيدي يبدو أنه يحوّل حتى الأشياء. ألم أذكر قبل عدة صفحات، أن الحماس الهاسيدي موجود في كل ما يقومون به؟ كذلك، فإنه هو الذي يجعل كل شيء يلمسونه هاسيدياً.

ذات يوم، بينما كنت في إحدى حفلات الفرح الهاسيدي لفتُّ انتباه بعض فتيان «الباهوريم»، المضطربين والفضوليين تجاه كل شيء. كان من الطبيعي ألا أبقى مختفياً مع آلة التصوير والتسجيل، لكنه لم يكن عند هؤلاء الشباب أي سبب للاهتمام بي. فحملوني كفرق النمل، ووجدت نفسي

أخيراً في خيمة مظلمة أمام شيخ وقور، معلمهم. «نعم، إن الهاسيدي يتكلم قليلاً ويفكر أكثر ويعمل أكثر أيضاً» قال الحاخام يوسف يتسحاق اللوبفيتشي. لم يفعل هؤلاء الفتيان سوى تطبيق تعليمات أحد الصدِّيقين، كان عليّ أيضاً أن أتعرف إلى العادل. هذه هي الصفة الأولى للهاسيدي: أن يكون متنبهاً، لتصرف الآخر، يعمل له، ولخيره. وهكذا، ما إن كُلفوا بي حتى ربطوا على جبهتي وذراعي العاري «التيفيلين» الذي يجب على كل يهودي أن يحملها لكي يرتِّل الشاهاريت (Chaharith) أي صلاة الصبح. إنهم مقتنعون بفعالية «التيفيلين» بحيث يريدون إفادة الجميع منها...

أليس ساذجاً أن يُفرض على أول قادم ما يعتبره الكثير خرافة؟ الهاسيدي لا يهتم بذلك، فهو مقتنع برسالته لدرجة أنه لا يشعر بنفسه أبداً مضحكاً أو مزعجاً. إن كون المرء يهودياً يعتبر امتيازاً، أما أن يكون هاسيديا فهذه نعمة، حتى ولو كان دارساً باستمرار يقضي نصف نهاره في تكرار النصوص عدة مرات. جلست قرب المعلم إيساشار دوف واستمعت بفضل الشباب المتحمس إلى محاضرة هاسيدية، محاضرة بلز، حيث يجلس الرسل على الأرض، قبعاتهم على رقابهم يتابعون أقل حركة، وكل كلمة يقولها المعلم «الغابي» (Gabbai) مساعد المعلم، يروح ويجيء، ويعطيه من وقت لآخر عريضة مكتوبة (Kvite) ثم يدخل الطالب ويُسِرُّ المعلم

نصائحه في أذنيه: الطريق الواجب اتباعه في صفقة تجارية، أو وصفة طبيب أو رأي في زواج ما.

قبل خروج الزائر، يباركه المعلم إذ يضع يديه على رأسه: «فليساعدك الله» يقول له، بينما يحرص المساعد على قبض البيديون أي المساهمة النقدية مقابل النصيحة.

لا يختلف الأمر عما رأيته عند البكتاشيين وعند الموارنة وعند الدروز. في الأناضول، كان بابا تسعوني ممدداً على كنبة يتلقى الاعترافات وهدايا السواح؛ في قاديشا، راهب عجوز ناسك، فتقوقع داخل مغارة قديمة تطلب منه عائلات بكاملها العجائب؛ في المختارة، كان كمال جنبلاط يعطي النصائح للطالبين الدروز والمسيحيين الذين يعطونه أحياناً مبالغ مالية. إنه أمر ثابت في الشرق: التعلق الذي لا يفصم بشخصية القائد. فهو موضع عبادة وكلامه مُنْزَل. لا يتخذ أي قرار دون استشارته.

تنتهي الاجتماعات الهاسيدية دائماً بالأغاني والرقص اللذين يفضلهما الهاسيديون على الصلاة، لأنها أكثر مرحاً وأكثر ملاءمة لتحقيق الاتحاد بالله. والأغاني المسماة نيغونيم (Nigunim) هي أنغام دون كلام ذات كثافة متزايدة بتكرار المقاطع آه، آي، أوي، هي، بام، يا. ينتج عن هذه الأغاني طبعاً فرح كبير، وقوة وتضامن خاصة عندما تترافق بدورات يمسك خلالها الهاسيديون أكتاف بعضهم بعضاً. في الرمز

الهاسيدي، الدائرة تعني المساواة بين الجميع، وكل واحد يعتبر حلقة من سلسلة: الحلقة الأولى ترتبط بالأخيرة، فليس للدائرة بداية ولا نهاية.

يلتقي الهاسيديون عادة على المائدة (Der Tish) باليدِّية يقدم المعلِّم خلالها نصائحه. الموائد تنظم عادة خلال الولائم الطقسية الثلاث الأخيرة من السبت. إن رؤية المعلم يأكل ويشرب هي نعمة كبيرة جداً بالنسبة للهاسيدي. ما همَّ إذا كان معلمه عجوزاً، كما رأيت بعيني، غير قادر على الأكل بشكل نظيف، أو أثر عليه المشروب قليلاً ومنتشياً أثناء الغناء. ألا يمثل هذا العجوز الصلة بين السماء والأرض؟ أليس هو من يتحمل آلام الأرض؟ يمكن أن يكون آخر الصالحين، ذاك الذي بفضائله يخلِّص كل الطائفة كما يخلِّص الشعب اليهودي البشرية. فالنبيذ الذي باركه والسمك الذي تركه في صحنه ولمسه بأصابعه يصبح مقدساً. رأيت يوماً هاسيدياً يقف مذهولاً بحضور معلمه، ينقض كالعصفور على فريسته، على بقايا الأطعمة مذ يغادر المعلم الطاولة.

إن أكل ما تبقى في صحن المعلم، واحتساء النقاط الأخيرة الباقية في كأسه، يعني تأمين بركة أزلية.

يوم الهاسيدي

أفرام منسر (Menczer) هو هاسيدي من حركة «هاباد» من

أنفير. له وجه طويل شاحب، وعينان زرقاوان وحزينتان قليلاً، ولحية فتية لم تكتمل بعد. يبدو ببذلته السوداء القصيرة وقبعته الدائمة على رأسه كأنه إكليريكي من القرن التاسع عشر.

يجتاز في الصباح الباكر المدينة العربية بخطى سريعة من محل منامته في ميا شياريم إلى الحي اليهودي في المدينة القديمة. لقد أعيد بناء كل الحي منذ العام 1967، ويحتوي الآن على عدد كبير من المدارس التلمودية. ففي إحداها تسجَّل أفرام ليتابع في الوقت الذي يراه ضرورياً، دروسه التلمودية. قد يدوم هذا طيلة حياته، لأنه مقتنع أن المرء «يدرس لكي يعرف كيف يدرس بعد».

يهتم أفرام بالموسيقى أيضاً، والهاسيدية طبعاً؛ يعلِّم الأولاد ويحيي الأعياد الدينية. إنه نشيط مثل أي هاسيدي. يقضي يومه مع رفاقه في الشتيبل (Shtibl) إنه مكان الصلاة، والدرس والمناقشة. وقبل أن يدخل إليه، يربط أفرام شريطاً من الحرير حول خصره لكي يفصل القسم الحيواني من جسمه. ثم يُخرج من كيس صغير التيفيلين الذي يربطه على جبهته وذراعه ويرتل الشاهاريت (Chaharith) تجري الصلاة في بعض الأيام بوجود التورا التي تُسحب من المذبح. يقوم رفيق له، أو هو بنفسه وقد غُطي كلياً بالتاليت بأخذ نسخة القانون بيديه الاثنتين ويقدمها للحاضرين. يتأرجح أفرام كغيره

إلى الأمام وإلى الوراء أثناء الصلاة وحتى أثناء قراءة النصوص. هذه الحركات تعطيه طابعاً أخرق.

تجمَّع اليوم عشرات التلامذة حول طاولة كبيرة يناقشون بجدية تعليقاً من التلمود. كأنهم يتشاجرون. كل واحد يفتش في صفحات من كتاب كبير يبحث عن حجج لرأيه. يلفظ أحدهم «آمار آبايا» أمر الأب مما يعادل بالآرامية أو التلمودية صدق الله العظيم آمين. يناقشون دون جدوى الاقتراح الجديد، وينتهون بالصيغة التقليدية تيكو (Tekou) الذي يضع حداً لنقاش طويل ودون نتيجة. إنه اختصار لكلمات تعني: «مع مجيء المخلص، تجد كل الأسئلة والمشاكل حلولها».

في إحدى الزوايا، يتأرجح حاخام عجوز لا يأبه لوجود الشباب التلموديين، وهو يداعب لحيته، وقد وضع أمامه كتاباً مفتوحاً، انحنى نحوه، إنه سفر هازوهار (Sefer Ha Zohar)، إنه أهم كتاب في الأدب القبلاني والصوفية اليهودية، يرتِّل بطريقة شاكية، ويحني قامته أحياناً إلى الوراء، وهو يطيل من شكواه:

> «مثل الوردة بين الشوك، ماذا تعني الوردة؟ إنها دولة إسرائيل. كما أن الوردة هي حمراء أو بيضاء، فإن طائفة إسرائيل تعيش القساوة أحياناً والتسامح حيناً...».

وتغرورق الدموع أحياناً في عينيّ الحاخام.

لنعد إلى أفرام منسر. يتناول طعامه في المدرسة. يُطهِّر

يديه بالماء قبل أن يدخل قاعة الطعام. وقد شرح لي أن المسألة ليست مسألة صحية قبل تناول الطعام. كلا! فالتطهير مسألة طقسية، وكل ما نقوم به هنا له معنى مقدس.

يُستأنف النقاش بعد الطعام، ويستمر حتى المساء، لكن أفرام يمكن أن يركب في شيروت (Sherouth) تاكسي جماعية، ليذهب إلى «كفر هباد» حيث يُدرِّس أولاداً في تلمود ـ تورا، وهي مدرسة ابتدائية. يستطيع أيضاً أن يشارك في حملة متزفوت (Metzvot)(*) عبر البلاد أو ينضم إلى بعض الموسيقيين ليرتِّل أناشيد طقسية. إنه يذهب اليوم إلى التمرين في تلة في ميا شياريم حيث تنتهي السهرة على أنغام المنجيرة المرحة. لأن الهاسيديين سيذهبون بعد عدة أيام بمناسبة الغُمْر «تاريخ لاغ باعمر» (Lag Ba'omar)(**) إلى تلة في الجليل الأعلى في ميرون، حيث يوجد قبر الحاخام شيمون بار يوشاعي (Shimon Bar Yochi) وينضم أفرام إلى السواح يرافقهم بمنجيرته. يرقص الهاسيديون في هذه الحفلة أفراح الغُمْر طوال الليل، حول شعلة كبيرة. هذه هي طريقتهم للاحتفال بذكرى موت الحاخام (Rabbi) الشهير، مؤلف «زوهار»، لأنه كما يقولون «موت عادل هو يوم فرح».

(*) متزفوت: وصايا، عددها 613، إيجابية وسلبية.

(**) راجع: ملحق الغُمر.

بالنسبة للهاسيديين الذين يقاطعون الاحتفالات الدنيوية التي تقام بعد عدة أيام بمناسبة استقلال دولة إسرائيل، إن الغُمْر هو عيدهم الوطني، لأنه يحتفل بذكرى المحاولة الأخيرة والقصيرة لاستقلال باركوشبا (Bar Koshba) اليهودي عام 1135 الذي لعب فيه الحاخام (Rabin) شيمون دوراً كبيراً. إذن إنهم يحتفلون به في الغُمْر بصفته مقاتلاً قومياً وكاتباً صوفياً يجذب الأتقياء بين الأتقياء.

يُكرِّم اليهود السفرديم القادمين من البلدان الإسلامية أيضاً الحاخام شيمون باريوشاعي. ويأتي اليهود المغربيون والعراقيون ليقتلوا العجل المسمَّن على ضوء نيران المعسكر ويقومون خلال مأدبة كبيرة تحت الخيمة، بالرقص الشرقي «الحاملنية» من المغرب ومن بغداد. كثيرون من بينهم يحافظون على عادات بلدانهم الأصلية، وهذا اللقاء بين يهود يتكلمون العربية ويلبسون الجلابية وبين يهود أشكنازيين يتكلمون «اليدِّية» ويرتدون المعاطف القاتمة السوداء، ليس ذلك من أقل المفارقات في دولة إسرائيل.

الحج إلى باريوشاعي

خلال عدة أيام، تقوم مئات السيارات بنقل الناس إلى سفح تلة ميرون: 1400 أوتوبيس و1400 شاحنة وسيارة. مئة ألف إنسان سيتسقلون قبل ليل الغُمْر، المنحدرات الصخرية،

وينصبون خيامهم حول القبر. المرضى محمولون على الحمالات، وكراسي المعاقين تتقدم ببطء في طرق ضيقة مليئة بالمياه؛ مقاعد المعوقين، ومتسوِّلون بالجلابية ومتسولون هاسيديون يأخذون مواقع لهم على مدخل القبر. يتشاجرون لكي يحافظوا على أماكنهم الضيقة ويحاولون جذب انتباه المارة إليهم بإحداث أصوات موسيقية مميزة. في كل مكان تجد باعة أدوات التقوى، والمشروبات، والفلافل أو حاجيات دون فائدة، وقد نصبوا دكاكينهم من أجل ذلك. وأقامت جماعة «هاباد» دكانها بالقرب من مدخل المزار: بعض اللوحات على منصّات كلها مغطاة بالقماش، كتب الصلاة وقطع التيفيلين مبعثرة في داخله بينما يقوم أحدهم بالطلب إلى المارة بواسطة مكبر للصوت، باحترام الوصايا: (Metzvoth) «يجبَ على كل يهودي وكل يهودية كل صباح...». يسخر بعض الشبان منهم متشجعين برفقة صاحباتهم اللواتي يتحاشى الهاسيديون النظر الاستفزازي إليهن. يستمر الهاسيدي في الصراخ بمكبر الصوت وهو غير آبه بالتهكمات. يزول العالم أمام مثل هذه الأمور الرهيبة! ما همنا من الفاسقين إذا ما خلَّص آخرون أنفسهم! ها هو جندي يقبِّل التيفيلين بورع كبير نتيجة لطلب الهاسيدي. بالقرب من هاسيدي هاباد، أقيم مكان للاعبي الورقات الثلاث للذين يستفيدون من سذاجة البسطاء. ثلاث أوراق

موضوعة على لوحة: «إختر واحدة، يصرخ اللاعب، إن «باريوشاعي» إلى جانبك. هذه؟ أقلبها، أنا أخلط، أين الورقة؟» مدير اللعبة هو الذي يربح دائماً، والأموال تتكدس في يده. إنه فخر للسذج! فلاعبو الأوراق الثلاث والهاسيديون يتنافسون على الزبائن.

أمام الشوهتيم (Shohtim) مقدمي الذبائح أيضاً، الكثير ليعملوه. سوف يذبح ألف حيوان، ليس بعيداً من هنا، وبضربة سكين واحدة. ثم يأتي الحاخامون ليفحصوا: هل ذبحوا بالطريقة الشرعية؟ ثم يغادرون وعلى أكتافهم الحيوانات المليئة بالدم، دون انتباه للمتسولين اليهود، ودون النظر حتى إلى ذلك المعلم المحاط بالأتباع المضطربين: هنا كما في مكان آخر، جمهرة من الشباب تتحلق حوله، تدوس الأرض بشكل منتظم، ترتل الأناشيد، ويحملونه على أكتافهم. يبدأ الحج رسمياً، لقد ظهر عشية الغُمْر بزياح في أزقة صفد، مدينة القبلانيين على بعد عدة كيلومترات من ميرون. تُخرج التورا من منزل عائلة «آبو» وراء فرقة موسيقية للأغاني الدينية، (Klezmer) عازفو النيغونيم، ويذهبون بها إلى قبر الحاخام شيمون. يتنافس الشباب على حملها لعدة أمتار، ويرفعونها فوق الرؤوس بينما يقوم بعض الشباب في الموكب ببعض الرقصات البهلوانية. يشارك أفرام منسر في الاحتفال مع منجيرته، تتبعه مجموعة من الهاسيديين يلوحون

باليافطات: «أيها اليهود واليهوديات، أنجزوا كل صباح أول وصية لكم: التيفيلين».

لا تصل التورا إلى القبر إلا عند المساء وسط حماس لا يوصف. يتوافق وصول التورا مع إشعال النار التي يقضي الهاسيديون ليلهم حولها، بينما يحتفل اليهود الشرقيون على طريقتهم بذكرى موت شيمون: ينطلق الرجال والنساء في رقصات إباحية تحت خيمهم الواسعة، أمام الوليمة الغنية، حيث يفيض فيها العرق. بالطبع، يتوقفون من وقت لآخر ليذهبوا إلى القبر ويضعوا بعض التبرعات من الشمع والمال، ويضمرون أمنية، حتى أنهم يقدمون نذراً من أجل خصب زوجاتهم. ولبلوغ القاعة الكبرى حيث يرقد شيمون، يجب اجتياز ممرات مظلمة، وساحات يتجمع فيها لقضاء الليل كل المتسولين والمعوقين، وكل الذين لا يملكون مقدرة امتلاك خيمة. يتدافع الناس داخل القبر، ويقرع رجال على الطبول، تطلق نساؤهم الزغاريد الحادة؛ بعض الأولاد مفصولين عن أهلهم، مئات حالات عسر الهضم والتقيؤ. كما يموت البعض بسبب الأزمات القلبية، وبين الخيام تُدعى بعض الفتيات لممارسة الحب مع أول عابر سبيل تحت رقابة شقيقها الأكبر.

لم تكن مواسم الحج في العصور القديمة والقرون الوسطى مختلفة عما هي عليه: ساعة العجائب والحب، الأكل

وخلاص النفس. نفس الشيء يفعله مسيحيو أوروبا الذين يذهبون إلى «كومبوستيل»، أو أبناء إسرائيل الذين يصعدون إلى هيكل الفصح.

إن الجو عند الهاسيديين هو أكثر فضيلة، وأقل دنيوية: حفلات طقسية عند البويانير (Boyaner) تتخللها مباركات وأغاني ودورات؛ رقص مثير عند الكرلينر (Karliner)، بمنأى عن الفضوليين، على سقف المعبد. هناك يلتصق الواحد بالآخر، يرقصون حول النار حتى الصباح. لم أتمكن من رؤية سوى أطراف القبعات المتجاورة، على شكل بحر مائج. ينفصل أحد الراقصين أحياناً، ويرقص منفرداً وسط الحلبة بالقرب من النار. عندما يمر أمام النار فهو ليس خيال صيني مفكّك، لكنني تمكنت من رؤية وجهه الأحمر من شدة اللهب عندما توارى وراء النار: وجه تعلوه النشوة.

إن أكثر ما بدا لي استثنائياً، لأنه جديد عليّ، هو رقص البراسلافار (Braslavar) في ساحة مع فرقتهم؛ تنفذ رقصاتهم بشكل فردي من قبل هواة، وتتميز بانتصاب متكرر لجذعهم، وبحركات بالرأس والجسد المنحني إلى الوراء حتى يصل إلى الوضع الأفقي، وباستخدام العصي والقناني. إحدى هذه الرقصات، بيروغيز ـ تانز (Le Berogez Tanz) تصف معركة من أجل الحصول على ورقة نقدية وتنتهي بانتصار الواحد على الآخر. في رقصة أخرى لافولاش (La Volach) يحاول

الراقص الأشول أن يبعث بحركاته المتراخية والتعزيمية من يلعب دور الميت، حتى يرقصا رقصة الهوراه. (Horah) لا يتردد البعض عن القيام بتمارين بهلوانية.

هكذا هو الليل الهاسيدي المرح، الذي يقام في ذكرى شيمون. ينتهي مع بزوغ أول إشارات الفجر في الشرق، فينسحب الهاسيديون تدريجياً، يتغطون بالشال الطقسي ويربطون أنفسهم بالتيفيلين ويحل التأمل محل الرقص والغناء. ومع الفجر الطالع، المليء بدخان النار المستهلكة، يبدأ كل الهاسيديين بالصلاة، وهم يؤرجحون أجسادهم بعصبية إلى الوراء والى الأمام، متخذين وجهة القدس؛ إنها «الشاهاريت» صلاة الصباح التي يجب على كل يهودي أن يوجهها إلى الله.

لا يستمر الهدوء طويلاً لأن مجموعة جديدة من الراقصين لا تلبث أن تتشكّل، وتبدأ موسيقى جديدة بغزو ساحات سطح المقام. ثم يحملون أولاداً في الثالثة من عمرهم ويضعونهم على أكتاف الحاخامين. وخلال صباحية كاملة يقوم الأولاد والحاخامون برقصة الحلاقة، حيث يقصّون خلالها شعر الأولاد للمرة الأولى. يقص الحاخامون الشعور الجميلة التي لم يسبق أن لمسها المقص خصلة خصلة. يُحتفظ بالخصلة الأولى للحفاظ على الحياة فتوضع بعناية في كيس من البلاستيك. يرقص الحاخامون دون تعب، ويقصون

الشعور ويشربون، إلى أن يذهب الولد إلى المزين الذي لا يترك له سوى ورقتين للتجعيد، الورقتين الأوليين. إن هذه المشاهد المليئة بالحنان مؤثرة فعلاً، هؤلاء الأولاد الطافحون بالعذوبة والبراءة، والجاثمون على أكتاف منحنية للحاخاميين الشيوخ.

مع ذلك، ليست هذه هي اللحظة الأكثر تأثيراً في حج الهاسيديين. لقد أحسست بالشعور الهاسيدي الحقيقي خلال الليل، وفي قلب الطبيعة داخل مجموعة من اللوبافتشيين، بعيداً عن الصراخ والجمهور، في الجبل. هناك على قبر الرمول «يوشنان هاسساندلار» (Yochnan Has Sandlar) في الظلمة الحالكة، بدأت المنجيرات حواراً كئيباً مع غير المنظور. كل جملة موسيقية يرتجلها الفنان تقابل بتنهيدات الترحيب... وبالحزن أيضاً. صحيح. لكي يكون المرء هاسيدياً يجب أن يتنهد دائماً، وهذه التعليمات لا تتناقض مع تعاليم «بعل-شيم-توف». كلا! إذ يُقال أيضاً: «إن فرح الهاسيدي يجب أن يبدو على وجهه، ولكن ليس أبداً في قلبه، لأن قلب اليهودي يريد أن يحمل الحداد الذي لا يُمحى على تدمير الهيكل، ونفي إسرائيل والألوهية، حتى الخلاص».

الفصل الرابع عشر

السامريون، المتحجرون التاريخيون الحقيقيون

جاك

منذ حوالى 30 سنة استقبل الملك عبدالله في الأردن شيخاً جليلاً:

ـ «من أنت» سأله الملك.

ـ أنا الرقم 145 من سلالة «هارون» شقيق موسى، أجاب الزائر الغريب.

ـ وأنا، أجاب العاهل، إنني الرقم 110 من سلالة النبي محمد.

تبين هذه النكتة القليلة الأهمية التي يولونها في الشرق وخاصة عند الساميين، الأصل النبوي الذي تفاخر به طوعاً ملكية ما، أو عائلة مالكة أو مجموعة إثنية.

إن الشيخ الذي يؤكد أنه متحدر من «هارون» ليس سوى

الكاهن الكبير لأصغر وأقدم الملل التي عرفها العالم: السامريون. خليفته اليوم يدعى «أمرام إيشاك» في منزله المطل على مدينة نابلس العربية سيشام (Sichem) في التوراة القديمة في الأردن، يضع الزائر في الجو دفعة واحدة:

«نحن الشاميريم (Shamirim) أي الأمناء على وصايا التورا؛ نحن الموصى لنا الوحيدون الحقيقيون لوصايا موسى، نمجد الله، إلّه أبراهام، على الجبل المقدس جبل غاريزيم (Garizim)».

وأشار بيده إلى جبل ينتصب وراء جدران المدينة. (هل من أجل جعل هذا المعتقد شرعياً)؟ أضاف عندئذ:

«وأنا جدهم الـ 146، متحدر من هارون».

ماذا يمثل اليوم هؤلاء السامريون الذين لا يتعدون نصف الألف، والذين يحملون مثل هذا اللقب النبيل؟ لا شيء يذكر، إن لم يكونوا كما قال عنهم «أرنولد تويمبي» «متحجرين تاريخيين» أو مومياءات تاريخية؟

كم مرة راجعت مع السامريين هذه الحياة البائدة: العهد التوراتي. شعرت أنني على عتبة العصر التوراتي في حياتي بينهم، ومشاركتي بأعيادهم وعاداتهم، واحتفالات الزواج وحفلات التطهير وحياتهم اليومية. إن تسلق قمة الجبل المقدس مع طلوع فجر الفصح، يعني العودة إلى لحظة

الهجرة في سيناء. هناك لوحة لميكال أنج تمثل موسى رافعاً فوق جبهته لوحة الوصايا عندما يرفع الكاهن التورا نحو السماء، ويرفع 250 شكلاً، ينشدون نشيد «المجد للرب» وهم يرفعون وجههم نحو السماء المتألقة بالنجوم فوق الجبل، فإنني أفكر بموسى وبشعبه. ينتصب العبرانيون أمامي. إنه لمشهد لا ينسى وكثيرون يعرفون أنه موجود!

لا يُعرف عن السامريين إلا بعض الأحداث المؤثرة التي تركها الإنجيليان لوقا ويوحنا مثل، السامري الصالح، ولقاء يسوع مع السامرية.

كره اليهود

تنتصب على الطريق المؤدي إلى نابلس، كنيسة أرثوذكسية لم يُنجز بناؤها أبداً. تغطي هذه الكنيسة بئراً، إنه بئر «يعقوب»، الذي يُعتبر إنه المكان حيث طلب يسوع من السامرية أن تسقيه ماءً. إلا أن كره اليهود للسامريين كان بحيث لا يمكن إعارة أي انتباه لهم في زمن يسوع وحتى توجيه الكلام لهم؛ وحجاج الجليل إلى القدس يفضلون الدوران حول «البيريه» (Peree)، الأردن حالياً، على أن يتعرضوا لإهاناتهم. ولم يكن يتردد الحاخامون اليهود القدماء عن القول إن قطعة خبز من يد السامريين هي لحم خنزير، ويمنعون بهذه الحجة أبناء ديانتهم من أن يشربوا ويأكلوا مع

سكان «السيشام»؛ السامرية نفسها تعجبت، والأتباع تجاوبوا معها.

كان هذا العداء لا يزال قوياً في القرن الأخير عندما قام الدكتور فرانكل وهو من أصل يهودي ومؤلف كتاب «يهود في الشرق»، بزيارة إلى السامريين. استقبله الكاهن الكبير سلامه كوهين استقبالاً بارداً:

«إذا كنت يهودياً، فكيف تأتي إلى زيارتنا نحن المحتقرون من اليهود»؟

وأضاف، إن السامريين من جهتهم مستعدون للعيش بصداقة مع اليهود لكن هؤلاء يرفضون أية تجارة معهم. بعد قليل من الزمن، زار الدكتور فرانكل اليهود السيفرديم في نابلس. وسألهم إذا كانت لهم علاقات مع جيرانهم السامريين. تراجعت النساء بصرخات استهجان وقالت إحداهن:

«هل كنت عند عبدة الحمَّام»؟

ونتيجة جوابه بالإيجاب، تراجعت النساء مرة جديدة إلى الوراء باشمئزاز، وصرخت إحداهن:

«خذ حمَّاماً لكي تطهِّر نفسك».

إستهجان واشمئزاز واحتقار تاريخي! كل هذه المواقف تصبح أكثر استغراباً نظراً لأن الطائفتين لا تختلفان أبداً: نفس الانضمام إلى الوصايا ونفس الاحترام للسبت وللأعياد

الدينية؛ الإثنتان تمارسان عملية التطهير في اليوم الثامن بعد الولادة، وتتَّبعان نفس المحرمات الغذائية؛ فضلاً عن أن قوانين الزواج هي ذاتها عند الإثنتين. الفارق الكبير يمكن اكتشافه على لسان السامرية، التي اعترفت بيسوع نبياً وقالت:

«أيها السيد، إن آباءنا قد عبدوا في جبل الغاريزيم هذا، بينما أنتم تقولون إن العبادة يجب أن تكون في القدس».

في القدس أم في الغاريزيم؟ حول هذه الأولوية تكوَّن ذلك الكره المتبادل الذي وضع الطائفتين وجهاً لوجه: اليهود والسامريين، كرهٌ تجسد أحياناً بصراعات دموية. هذا مع أنهم يتحدرون من نفس السلالة: أربعة أجيال تتعاقب من ابراهيم إلى يوسف. يوسف لديه 12 ولداً يسكنون في مصر، وهناك تحول الإثنا عشر إلى قبائل، وكانوا ألوفاً عندما غادروا مصر بقيادة موسى. و«هارون» شقيقه هو الذي دخل أرض الميعاد مع الشعب، ويوشع هو الذي قام بتقسيم البلاد على القبائل الإثنتي عشرة.

لم تبرز بينهم حتى ذلك التاريخ، أية خلافات: لقد برزت بعد يوشع. هذا ما أكده لي كبير الكهنة «أمرام إسحق» عندما روى لي الحكاية السامرية عن الانقسام، وذلك عندما كنا نتسلق طريقاً ضيقة تؤدي إلى الجبل المقدس.

إنقسام القبائل الـ 12 : الرواية السامرية

قال الكاهن في البدء، «نحن لا نعترف إلا بأسفار موسى الخمسة وبكتاب يوشع، ككتب مقدسة. إننا نرفض الكتابات التوراتية الأخرى وكذلك التلمود، في الماضي ارتفع هنا على قمة الجبل، الهيكل الحقيقي، بيت الله، وقبل أن يبني الوثني سليمان هيكله المزيف في القدس».

بنى أمرام إسحق الأساسات. هل هذه الأساسات تعود حقيقة إلى الهيكل السامي، منافس القدس، الذي دُمِّر عام 128 ق.م. على يد جان هيركان (Jean Hyrcan) الملك الأشموني (Asmoneen)؟ فقد نشأت صروح أخرى منذ ذلك التاريخ: هيكل جوبيتير شيده أدريان (Hadrien)، وكاتدرائية بيزنطية، ونصب صليبي وجامع.

«كلا، لا يمكنك أن تطأ هذا المكان»!

إنها مساحة صخرية تلك التي أشار اليها الكاهن. تمتد أرضها على مساحة عشرين متراً مربعاً وذات انحدار خفيف.

قال لي، «إن المكان الذي بنى فيه ابراهيم مذبح تقديم إسحق كذبيحة، يحق فقط للسامريين الدخول إليه».

لم يتوقف الكاهن عن إطلاعي على قضايا مذهلة. أخذني بعيداً، ورحنا سوياً نلف الجبل، هذا هو المكان حيث رأى يعقوب حلمه وهذا هو مكان ذبيحة نوح؛ لقد عاش فيه آدم

وحواء، إنه الفردوس الأرضي. . . أشياء كثيرة لمكان واحد، لكن كلام الكاهن مقنع، ومنظر الوادي خلاب بحيث أصبحت مستعداً للقبول بكلامه.

ها إن سهل المقنع (Maknah)، يتجه نحو الوادي؛ إنه مليء بالحرارة والخصب. وصف لي وصول بني إسرائيل بحميَّة ومخيَّلة الجنرال الذي يُقدِّر جيشه. ثغرة في الجبل، أتاحت تدفُّق الإسرائيليين إلى أرض كنعان؛ وراءه، يجب أن تكون مخاضة الأردن. لقد أحيى مشهد الستمئة ألف رجل حاملي السلاح، يستعيدون وطنهم. ألوف من الرجال انقسموا إلى قوتين: ست قبائل هاجمت جبل إيبال (Ebal) والست الأخرى أقامت في غاريزيم (Garizim). إنها أوامر موسى؛ وضع يوشع تابوت العهد بين الجبلين محاطاً بالكهنة واللاويين والقدماء من الشعب. وقف على منصة، ورفع صوته وسط سكوت مهيب، وأعلن البركات الممنوحة للبيت إذا بقي مخلصاً للشريعة: شاميريم (Shamirim). وأعلن بنفس الطريقة اللعنات التي تصيب من يخرق العهد، فاستدار نحو الغاريزيم وقال «مبارك من لا يعبد الأوثان» ثم استدار نحو «إيبال» وقال: «ملعون كل من يعبد الأوثان» (سفر التثنية: 11: 29 و27: 12 ـ 13) توقف إسحق لحظة ليتنهَّد؛ فاجأته يسترق السمع كما لو أن نابلس القائمة تحته على

مسافة مئتي متر، هي بالنسبة له صدى الموجة الكبيرة القادمة من الجبل الآخر، منذ ثلاثة آلاف سنة.

ها هو الغاريزيم، قال الكاهن، «جبل الله»! فقد وضع فيه أليعازر الحكيم، ابن هارون تابوت العهد، وتأتي إليه كل سنة كل القبائل ليلتئم شمل بني إسرائيل. خلفه خمسة كهنة. وفي السنة الثالثة عشرة لموت موسى وضع أحدهم أبيشوا (Abishua)، أسفار موسى التي نحتفظ بنسختها الأساسية.

مات خامس متحدّر من هارون وهو، الكاهن الكبير باشا؛ خلفه إبنه. كان في الـ 23 من عمره، وهذا ما لم يرق للكاهن إيلي، القيِّم على الكنز المقدس. فأقام بحجة أنه غير لائق لخدمة ولد، عبادة مواجهة لسيلوه (Siloh). فأخفى يهوه تابوت العهد من جبل غاريزيم لكي يعاقب إسرائيل.

فتح أمرام إسحق بعناية واحترام وصية أبيشوا الجليلة في معهد نابلس، والتي تعود إلى ما قبل 3606 أعوام والمحفوظة في قطعة من الحرير داخل صندوق من النحاس منقوش بشكل متقن. تابع بإصبعه المجعَّد الحروف العبرية القديمة المنسوخة على جلود الماعز المخيطة ببعضها. ثم قرأ الآية الـ «18» من الفصل «31» في سفر التثنية، تلك الآية التي تذكِّر باختفاء التابوت.

«وأنا يهوه، أخبىء وجهي في ذلك اليوم بسبب الألم الذي تسببه لي إسرائيل بتوجهها نحو آلهة آخرين»:

راح أمرام إسحق يقص عليّ تفاصيل ذلك الحدث العزيز على قلوب السامريين: في العام 3055 على ولادة العالم، جاء كبير الكهنة آزا (Aza) كالعادة يقدم الذبيحة في الخيمة التي وجدها غارقة في الظلام الذي يزداد كل ليلة في المكان. غرق تابوت العهد وحان وقت ظلمة الليل. أرشدهم يهوه عندئذ إلى قبو وأمرهم بإخفاء تابوت العهد فيه وكذلك الأغراض الأخرى بهدف تحاشي وقوعهم بيد الدجالين. وما أن تبرَّأ آزا من هذه التعليمات حتى اختفت المغارة. فعوقب آزا واللاويون عندئذ لأن أبناء إسرائيل أخطأوا تجاه يهوه.

كان إيلي في هذا الوقت ينكب على بناء تابوت عهد جديد في «سيلوه»، يستوعب رفات القديسين الحقيقية. وهكذا تمَّ تضليل الكثير من أبناء إسرائيل وتخلوا عن عبادة يهوه على جبل غاريزيم، باستثناء قبيلة يوسف وقسم من قبيلتَي «إفرايم» و«ماناسي» اللذين منهما تحدَّر السامريون.

أصبحت سيلوه (Siloh) بعد فترة مركز العبادة الموجهة للأصنام، كما جاء في كتاب القضاة:

> «عمل أبناء إسرائيل ما هو سيء بنظر يهوه، وتبعوا الأصنام. تركوا يهوه، إله آبائهم، وتبعوا آلهة أخرى من بين آلهة الشعوب التي تحيط بهم...»

منذ تلك اللحظة، سار مصير الإسرائيليين باتجاهين مختلفين ولكن متوازيين: إتجاه بقي أميناً لجبل غاريزيم، وهم

السامريون، والاتجاه الذي اختار القدس: وهي اليهودية وهي في الواقع ديانة قبيلة يهوذا.

رواية التوراة

هذه هي إذاً الرواية السامرية التي لا يعترف بها اليهود. إنهم يستندون إلى الفصل الـ 17 من كتاب الملوك الثاني: عام 721، تقول التوراة، احتل سرجون (Sargeon) ملك بلاد الآشوريين، السامرية وأسر القبائل العشر التي تشكل مملكة إسرائيل، التي أسسها «يَرُبعام»(*) (Gerobaam) قبل جيلين، وأسكن مكانهم مهاجرين آشوريين ومعظمهم من مدينة «الكوت» على ضفاف دجلة. لذلك يسمي التلمود السامريين بالكوتيين. لم ينج من الأسر سوى قبيلة يهوذا التي كانت تشكل مملكة يهوذا. واختفت أخبار أسرى سرجون، وأثار هذا الاختفاء مخيلة المؤرخين للبحث عن «القبائل الإسرائيلية العشر الضائعة». ولم يتردد البعض في اكتشاف آثارهم في أميركا ما قبل الكولومبية! بعد استقرارهم بقليل ـ ودائماً حسب التوراة ـ أرسل المستوطنون الآشوريون طلباً إلى ملكهم:

> «لا نعرف طريقة خدمة إله البلاد. وها هو يرسل لنا الذئاب لتقتلنا».

(*) راجع الملحق: يَرُبعام.

أمر سرجون عندئذ بأن يُرسَل راهب أسير إلى السامرية لكي يعلم المستوطنين طريقة عبادة يهوه. وتضيف التوراة:

«وهكذا كرموا يهوه، لكنهم خدموا في نفس الوقت آلهتهم حسب عادات قومياتهم التي حملوها معهم، ولا يزال أولادهم وأولاد أولادهم يعلمون ما سبق وفعله آباؤهم».

إن الكاهن الكبير أمرام إسحق يؤكد حجج اليهود وهو يدافع زاعماً أن قسماً صغيراً فقط من سكان السامرية نقل إلى بلاد الرافدين، وإنه إذا كان هناك من سكان أجانب قد جاؤوا، فيكونون قد انخرطوا كلياً بعبادة يهوه، على غرار ما حصل لسكان كنعانيين عديدين في مرحلة الغزو.

فقد كشف التنقيب مؤخراً في نمرود في قصر سرجون، عدة وثائق تؤكد صحة وثائق كتاب الملوك الثاني.

«اجتاح ملك آشور كل البلاد، وتوجّه إلى السامرة وجعل منها مقره مدة ثلاث سنوات. في السنة التاسعة لهوشع، احتل السامرة ونقل الإسرائيليين إلى بلاد آشور. وأقامهم في حلح، على ضفاف نهر الخابور، ونهر جوزان وفي مادي». (كتاب الملوك الثاني، ١٧، 5 و6).

«وأتى ملك آشور بقوم من بابل، وكوت وعوّا وحماة وسفروايم وأقامهم مكان أبناء إسرائيل. فتملكوا السامرة وسكنوا في مدنها». (كتاب الملوك ١٧ ـ 24).

هاتان الروايتان متطابقتان تماماً بالنسبة لليهود. ولا شك

إن السامرة قد أفرغت من جوهرها. تلك كانت العادة يومها، والوسائل كانت منظمة: ينقلون الشعوب التي يجتاحونها، ويملأون الفراغ بجلب شعوب أخرى أكثر ثقة بهم. ولكن بما أن النقل لا يتم تباعاً، كانت البلاد تبقى مهجورة لفترة من الزمن. هذا ما يفسر ازدياد عدد الأسود والحيوانات المتوحشة لدرجة أنها أصبحت خطراً دائماً على السكان الجدد، المدنيين وغير المعدين لمواجهة الوحوش.

لم يمض أكثر من قرن ونصف، حتى تم نقل آخر قبيلة إسرائيلية؛ كما تمَّ نقل قبيلة يهوذا، بدورها إلى بلاد الرافدين: من كان سيخبر عن ذلك لولا بعض الوثائق الآثارية، ولو لم يعد من الأسر بعضهم من بلاد فارس بعد خمسين سنة؟ يمكننا أن نأمل مصالحة بين الشماليين بثياب الحداد للقاء الذين نقلوا إلى بابل؟ جاؤوا يعرضون مشاركتهم في إعادة بناء «بيت يهوه». لكن قادة جماعة يهوذا رفضوا باحتقار عروض السامريين. مما جعل القطيعة بين يهوذا والسامرة لا عودة عنها. وبعد عدة سنوات أثناء بناء معبد شبيه بهيكل القدس على جبل غاريزيم. مذبحان إلى يهوه! فقد هدمته جماعة يهوذا عام 128.

ما هو الرأي بهذا التدخل الأجنبي في شؤون العائلة العبرانية؟ هل سيكون الرأي غير أنها تشكل إحدى أغرب الظاهرات في التاريخ الديني في الشرق الأدنى؟ إن كره

القدس منع هؤلاء القادمين الجدد من الانخراط كلياً في التيار العبراني. كان يمكن أن نتوقع رؤية العقيدة تتفكك أو تتعرض لتأثيرات المعتقدات المستوردة. على العكس من ذلك، أثبت «الكوتيون» بإخلاص أنهم أكثر غيرة من الحراس الذين اندفعوا من تلقاء أنفسهم وأوقفوا زمن الوحي أثناء عبور الأردن. إن كل الحركة النبوية التي جاءت تكمل المؤسسة الموسوية هي باطلة ولا جدوى لها. وبالنسبة للسامريين فالقدس رغم تصلب عقيدتها هي تقدمية ومجددة؛ وهنا الانقسام.

نشبت انقسامات عديدة بين الطائفتين المتخاصمتين إلى أن جاء الرومان وفرضوا النظام الذي نعرف. بعد الاضطهادات الرومانية جاءت الاضطهادات البيزنطية والإسلامية التي لا تقل عنها قساوة. وأصبح السامريون الذين كانوا يزيدون على مليون نسمة، أقل من 50 ألفاً في أيام الصليبيين وتناقص هذا الرقم في ظل سيطرة المماليك والأتراك. وفي بداية هذا القرن، لم يكن هناك سوى عائلة في يافا وأربع عائلات في نابلس، وحسب إحصاءات القنصلية البريطانية كان يعيش في فلسطين 136 سامرياً عام 1903، وكان الذكور ضعف الإناث، مما يعني، بالنسبة لعلماء الإناسيين الانقراض المقبل للجنس.

النهضة وجمع الشمل

بأية أعجوبة استمر السامريون؟ فإن عددهم اليوم 450، مع ازدياد سنوي يتراوح ما بين 4 أو 5 وحدات؟

أولاً، منحهم الانتداب البريطاني عدة عقود من الهدنة والازدهار، رغم حصول هزة أرضية دمَّرت حيَّهم عام 1927. لكن المُقاومة هي أن العنصر الحاسم في انبعاثهم جاء من اليهود أنفسهم. فقد تبنى إسحق بن تسفي قضيتهم، ونجح في منح السامريين الاستفادة من «قانون العودة» الذي يحق بموجبه لكل يهودي أن يسكن في إسرائيل. وبعد ثلاثة أجيال، عاد السامريون إلى العائلة الموسوية.

اختار إسرائيل عدد من السكان من نابلس هاجروا إلى هولون (Holon) بالقرب من تل أبيب وأسسوا مع عائلة تزاداكا (Tzadaka) القاطنة في يافا منذ بداية القرن، شيكون هاشومرونيم (Ha Shomronim) حيّ مرفَّه، فيه بيوت وحدائق تختبىء وسط أبنية ضخمة.

بقيت طوائف يافا ونابلس على صلة وثيقة حتى ولادة إسرائيل، وأهمية ذلك هي أن الحياة السامرية تحلقت حول جبل غاريزيم حيث تقام الأعياد والاحتفالات. لكن، ومع إقفال الحدود وضم الضفة الغربية للأردن من قبل المملكة الهاشمية، وجدت الطائفتان نفسيهما منفصلتين. تحمل طائفة

نابلس جوازاً أردنياً، وتستخدم طائفة هولون جوازاً إسرائيلياً. على كل ضفة 150 سامرياً ينتمون منذ ذلك الحين إلى عالمين مختلفين ومتخاصمين. هل كانت التسهيلات الصهيونية لقدومهم إليها مسممة؟

جاءت النجدة الأولى من الملك حسين. وافق على مجيء السامريين الإسرائيليين إلى الأراضي الأردنية مرة كل سنة في أيام الفصح. وتلك الحدود التي لم يكن يحق إلا للديبلوماسيين اجتيازها من باب مندلبوم في القدس. وبحضور الأمم المتحدة، كانت تُفتح إذاً بشكل سري كل سنة لتسمح بمرور صفوف النساء والأولاد ـ يُمنع دخول الشبان ـ تنقلهم شاحنات الجيش الإسرائيلي وتواكبهم قوات عربية حتى جبل غاريزيم. كان ذلك لإقامة مدتها 24 ساعة.

من الجانب الإسرائيلي، حاول إسحق بن تسفي ذاته، إفهام السامريين ضرورة الموافقة على الزواج «من خارج الجنس» كشرط لبقائهم. طرح مثل هذا القرار، الذي يعيد النظر بقرون من التقاليد، مسائل لاهوتية كبيرة. وأخيراً تمت الموافقة عليه، شرط التحاق الشريك الآخر للسامري بالديانة السامرية، وتطبيق كل القواعد المرتبطة بها.

إذا كان قد تزوج حتى الآن سبعة رجال من طائفة هولون من زوجات يهوديات، فبعض الحالات قد أثارت المشاكل. ها هي حالة أخبرني الكاهن عنها: طلاق زوجين، بطلب من

الشاب السامري من زوجته التي أنكرت عليه انتماءه، لكن المحكمة الحاخامية لم تفهمه، وهكذا، ألغت الطلاق السامري. هنا النزاع: على السامري أن يطيع الكاهن الكبير، واليهودية للحاخام وكل منهما أمانة لشريعة موسى، يريد البقاء وفياً للتقاليد التي سادت منذ 3000 سنة. تبيِّن هذه الحالة الخاصة كم كانت عقبات التقاليد صعبة التجاوز. لم تمر هذه الحادثة دون أن تنالها الصحافة اليومية في القدس حيث لخصتها على الشكل التالي: «التوحد بين اليهود والسامريين: ليس زواجاً عن حب إنما هو زواج عن عقل».

كان لتدخّل إسحق بن تسفي جانباً مفيداً آخر هو: إدخال دم جديد في الطائفة كانت بحاجة ماسة اليه. بالفعل، فالزواج الجسدي الإجباري الذي كان يقيمه السامريون ولَّد أخطاءً وراثية كثيرة حيث أصبح أكثر من 5% من طائفة نابلس مشوهين ومصابين بالخلل الإعتدائي وصماً وبكماً. ومذ بدأ الزواج من خارج الطائفة حتى تناقصت الأمراض بين الهولونيين ووصلت إلى نسبة 2%.

بعد حرب الأيام الستة عام 1967، أفسح احتلال الضفة الغربية للأردن من قبل إسرائيل في المجال أمام الطائفتين لكي تلتقيا. لكن جيلاً من التطور المنفصل جعل من الـ 230 سامرياً الإسرائيليين والإسرائيليات يتكلمون العبرية، ويرتدون الشورت ويخدمون في الجيش؛ وخريجو جامعات

يتمتعون بمستوى حياة أرفع من أبناء ديانتهم في نابلس بينما حافظ هؤلاء على حياة عربية مكتسبة منذ قرون: لغة ولباساً، وحتى الجنسية الأردنية التي تسمح لهم بالذهاب إلى عمان.

غير أن الكثيرين منهم تتجه أنظارهم نحو أشقائهم باتجاه هولون ونحو إسرائيل. فتطرح المسألة عندئذ: ماذا سيحل بالسامريين في حال تخلت إسرائيل عن الضفة الغربية؟ ألن يدفع هؤلاء ثمن الانفجار بين الإسرائيليين والعرب؟ بعض الفلسطينيين في نابلس يتهمونهم أنهم طابور خامس فيما يلوح لهم من الجانب اليهودي بالمذابح من قبل العرب ويستهجن كبير الكهنة مذكراً من يريد أن يسمع، أن سلفه أعلن أثناء حرب الأيام الستة إلى السلطات العسكرية الإسرائيلية أن «مواطني نابلس أبدوا تجاه السامريين عطفاً كعطف الأم على أولادها».

لكن الهولونيين يتخوفون من نتائج انقسام جديد للمنطقة: «لا نزال نعيش ذكرى الإذلال الذي شهدناه على طريق غاريزيم يوم كانوا يعتبروننا أسرى وليس سواحاً». أسرَّ إلي زعيم طائفة الهولون (Holon) بنيامين صدقة الذي لخص أمل كل السامريين كما يلي: «لا يمكنهم تصور وجودنا كمجتمع إلا من خلال إقامة علاقات مستمرة بين هولون ونابلس، وحرية الذهاب إلى جبل غاريزيم كل يوم وخاصة بمناسبة الأعياد؛ لا نريد أن نكون ضحية الخصومات السياسية. لا

يهمنا الحل الذي يصلون اليه، كل ما نتمناه هو ضمان حرية التجول من مدينة إلى أخرى. فغاريزيم بالنسبة لنا هو مثل القدس بالنسبة لليهود ومكة بالنسبة للمسلمين».

قمة غاريزيم

يا للأسف: إن السامريين هم قليلو العدد حتى يطالبوا بالاستقلال الذاتي، ومع ذلك فإن بعض الشباب في نابلس يفكرون بخلق تجمع على قمة غاريزيم، قرية لهم أخيراً، على غرار المستوطنات اليهودية في الضفة، هناك يعيشون في أرضهم فعلاً.

منذ العام 1967، نجحت كل عائلة في أن تبني بمساعدة الحكومة بيتاً صغيراً ـ إنها حوالى العشرين حالياً ـ يأوون إليها بمناسبة الأعياد السنوية الثلاثة التي يحتفلون بها على قمة الجبل، خاصة خلال أيام الفصح الخمسة عشر.

كان السامريون في الماضي، يكتفون بالخيم، ينيرونها بواسطة الكاز ويشربون من الآبار. لقد عاش بعض الشيوخ السامريين المرحلة البطولية حيث لم تكن هناك أية طريق قد رُسمت: كان تسلق الجبل في تلك المرحلة أمراً مضنياً، خاصة عندما يحل الفصح في وقت مبكر من السنة. هواء قارس وآخر أمطار فصل الشتاء الغزيرة تنقض على القافلة. تذهب عائلات مجمَّعة، المسنّون يركبون الحمير، والشباب

يحملون الأولاد. الحيوانات الأخرى محمّلة بالأقمشة والمؤن والطحين لصناعة الماتزوت (Matzoth) (خبز دون خميرة). ثم يتبع الكهنة مع موسى خراف الذبائح الخمسة، وبعض البدو الباحثين عن البخشيش يحومون حولنا ليقدموا لنا الخدمات. تنصب الخيم بعيداً عن قبر «أبو عنَّان» وهو مسلم تقي. ويبدأ التحضير في اليوم الكبير للذبيحة في إقامة الأفران وجمع الحشائش المرة والخشب وصناعة الماتزوت.

التغيرات اليوم واضحة: تصعد العائلات بواسطة السيارات، وتسكن في منازلها الخاصة؛ وتنقل الشاحنات ما هو ضروري؛ يقام بينهم مركز صغير للجيش الإسرائيلي، وفي يوم الذبيحة تنقل السيارات والباصات السواح الراغبين في مشاهدة أمور غريبة. إن المشهد لا يخيب أمل هؤلاء: كل شيء منظم كما يلزم؛ سيارات الإسعاف، أطفائيات، منبر رائع تحيط به قضبان الحديد يقدم السامريون أنفسهم وراءها كحيوانات غريبة. نعم إن مأخذي على هذا الاحتفال هو أنه أصبح بسبب السواح أنفسهم مسرحاً تشاهد عليه ألعاب حيوان نادر لكنهم يتفرجون دون أن يدركوا ذلك. يشاهد ثلاثمئة فضولي باشمئزاز ذبح عشرين خروفاً، وهم مقتنعون أنهم شاهدوا مشهداً استثنائياً، ويغادرون قبل نهاية الاحتفال، دون أن يفهموا شيئاً من الفصح التوراتي.

السامريون اليوم

مع أمل أن يكون هناك قارئاً يريد أن يتعرف إلى هذا الفصح، أسمح لنفسي بوصف الذبيحة كما شاهدتها عدة مرات في وسط قبيلة إفراييم (Ephraim). إن «الضحية الذبيحة» ترتدي مثلهم الثياب البيضاء يُغطى رأسها بطربوش أحمر مزنر بالأصفر الخاص بعائلة ألطيف (Altif).

قبل الرابع عشر من شهر نيسان/ أبريل بثمانية أيام، يفرغ الحي السامري في نابلس من السكان. يجمعون أغراضهم الشخصية والمؤن ويركبون سيارات النقل إلى غاريزيم يمكثون هناك مدة أسبوعين. إنها المرحلة الفصحية التي تكرس ذكرى الخروج من مصر.

في تلك السنة، بعد ولادة آدم بـ 6416 سنة قرّرت أن أعيش تلك التحضيرات مع الكاهن «حسنين يوسف كوهين». إنه أحد المدرسين في الطائفة. فهو يعلّم، ثلاث ساعات يومياً ما عدا السبت، الشباب السامريين ما ليس باستطاعة المدرسة الحكومية الأردنية أن تعلمهم إياه: العبرية القديمة التي تستعمل للصلاة، والعبرية الحديثة، للتعامل مع أبناء طائفتهم في هولون، وتاريخ الشعب السامري، وخاصة أسفار موسى الخمسة. في الخامسة عشرة من عمره، يصبح بإمكان الولد أن يقرأ الكتاب المقدس، فيقام احتفال صغير بحضور

كبير الكهنة، وأعضاء الطائفة، يُكرِّس انخراط هذا الولد في الحياة الدينية للقبيلة. إنها مثل «بار ـ ميتسيفا» (Bar Mitseva) اليهودية.

أصبح من الصعب الآن على الكاهن المُدرِّس أن يحافظ على الانضباط بين تلامذته، فهو يهدد المزعجين منهم بعصاه المصنوعة من خشب الزيتون والتي لا يتركها أبداً، إلا أن تهديده يكون دون قناعة منه، ودون جدوى، والكاهن لا يجرؤ على رفع يده على أي من الأولاد لأي سبب. إن عدد الخمسمئة سيجري تجاوزه 4 مرات أكثر من القرن الماضي.

هناك احتمال كبير أن يختار بنحاس (Pinhas) الصبي الصغير اللعوب الموجود أمامي، جارته كزوجة له. فنظراً لموانع الزواج العديدة والصلات التي تربط ما بين العائلات، فليس لديه خيارات كثيرة.

في القرن الماضي، انتظروا بفارغ الصبر الميعاد الأول لفتاة صغيرة لكي يأخذوها إلى كبير الكهنة ليجمع الفتاة الناضجة بالشخص الموعود بها منذ زمن طويل، واحد من العزوبيين العديدين المفروضين.

إذا مرض أحدهما أو كان عاقراً، كان في سن متقدم، فإنهم يسارعون إلى إعلان الطلاق، ويحاولون تجربة أخرى للتوالد. لكن عدد النساء اليوم أصبح يساوي عدد الرجال، والطائفة وجدت توازنها البيولوجي.

لن تكون هناك أية صعوبة أمام بنحاس لكي يتزوج في العشرين من عمره أمام الطائفة مجتمعة، من جارته اللعوب التي تكون قد أصبحت في السادسة عشرة من عمرها. وبانتظار الزهور التي ستقدم له على جبل غاريزيم يشد الشاب ضفيرتي زوجته المحتملة، مما يثير غضب الفتاة. إنه مشهد البيت تقريباً، ثم تتجدد الضجة في الصف. الفصح ليس بعيداً والأولاد متوترون، وابتداءً من هذا المساء سيذهب الجمهور كله ولمدة 15 يوماً يرفع الأماني على منحدرات الجبل المقدس.

الدرس الأخير: العبرية الحديثة. بعد بضعة أيام يصل الأقارب من هولون، وهؤلاء لا يتكلمون العربية أو يتكلمونها بصعوبة؛ كتب المدرس على اللوح ثلاث جمل بإتقان بثلاث لغات: العربية والعبرية القديمة والعبرية الحديثة. على هذه الوتيرة يتكلم النابلسيون منذ العشرين من عمرهم أربع لغات يستخدمون أربعة حروف أبجدية.

ينكب يوسف كوهين، خارج المدرسة، على إعادة نسخ أشعار موسى الخمسة. من خمس إلى ست ساعات من الكتابة يومياً على لفة من 25 متراً وينهي نسخة كل سبعة أشهر. في السابعة والسبعين من عمره، كان قد نسخ أكثر من خمسين نسخة باعها للسواح.

وهو يهتم بعلم الفلك أيضاً، فيأتون من بعيد لاستشارته

من عمان وتل أبيب، وهو سر جاء به موسى من بلاط فرعون، صيغة موجودة في كتاب منذ عهد هارون ويوجد فيه أيضاً كل الوصفات لكسب قلب الحبيبة، وللنجاح في التجارة وللحفاظ على السلطة. وقد أقام هذا الأخير مكاناً للاستشارات في الطابق الأرضي من منزله وهو يمارس التنجيم بقراءة الكف مع السواح. وضع لافتة تدل على وجوده: هنا ياكوف كوهين، كان سامرياً، وقد أحاطها من كل جهة بيد مفتوحة الأصابع.

إستعملت أنا نفسي مساحيق سحرية ووسائل جذب سامرية أخرى وأعطت نتائج غير منتظرة. تقول لي، إن هذا ليس جدياً، نحن هنا على أرض الألغاز والعجائب: السامرة. أليست وطن «سيمون» الساحر(*) المشار اليه في أعمال الرسل. تعد جماعة الكهنة «الكوهانيم» حوالى مئة شخص يعيشون جميعهم في نابلس. هذا يعني أن نصف سكان الحي ينتمون إلى الطبقة «الكهنوتية» وهي إذن غير منتجة بفضل العِشر الذي يمنحها إياه السكان النشطاء حسب المبدأ التوراتي:

«وأمّا بنو لاوي فإني قد أعطيتهم كلّ عشر في إسرائيل ميراثًا عوض خدمتهم التي يخدمونها».

(*) راجع الملحق.

يقام احتفال بسيط مع نهاية الليل الذي يقضونه على الغاريزيم بمناسبة الـ «الشافووت». يقدم أحد أعضاء الطائفة رمزياً سنبلة قمح لكبير الكهنة، يحيط كل «الكوهانيم» بكبير الكهنة الممدد على الأريكة مثل الباشا التركي أو يدخن البعض النرجيلة فيما توزع النساء الحلوى والقهوة والشراب ويقوم أمين الصندوق في غرفة مجاورة بإجراء الحسابات مع رئيس كل عائلة، ثم يوزع كبير الكهنة العِشر على الكوهانيم. وهكذا، الشكل ديموقراطي لا يجهل أحد ثروة جاره ودرجة رفاهية الطائفة، ولدى الكهنة مورد آخر للمداخيل: السواح. فيبيعهم السامريون، كما ذكرت سابقاً، المغامرة الطيبة، وحجابات تجلب الحظ، وتعويذات مختلفة.

لكن هناك أيضاً زيارة أقدم كتاب «منذ ولادة البشرية» في الكنيس «شورا أبيشوا» الشهير الموجود منذ 3606 سنوات. ليس هناك أمهر من حسنين يوسف كوهين لخلق الألغاز وتحصيل الثروات. يلزم أولاً ثلاثة مفاتيح لفتح البيت حيث تحفظ المخطوطة الثمينة. كل مفتاح باستلام كاهن؛ فهناك إذن ثلاثة كهنة يرأسون الاحتفال. مما يصعّد المزايدات.

يختفي الكهنة الثلاثة وراء ستار من المخمل يخفي بيت المخطوطة، ثم يظهر يوسف كوهين مرتدياً الشال الطقسي يحمل على كتفه صندوقاً أسطوانياً مغطى بحرير جميل مطرز بالذهب. يضعه باحترام على أريكة من خشب بينما يقف آخر

إلى جانبه. يرفع يوسف كوهين ببطء الغطاء عن الصندوق الذي يتركه لحظة يتأمل نقوشه ثم يضع بحركة مسرحية يديه بحذر على كرتين من الفضة ثم يدير الغطاء. يفتح الصندوق ثلاثة أقسام ويظهر جلد الماعز القديم. تنهدت: رائع، غير معقول... تستقيل حركة الكاهن. تبدأ الأسئلة: كم يكلف... ما هو ثمنه..؟ لكن الكاهن يبقى بحالة البرودة إنه يتميز بتلك الحركة المشرقية الخاصة عندما يريد أن يقول لا، أو لا يعرف: هزة رأس صغيرة إلى الوراء خافضاً عينيه بينما تنفتح شفتاه لحظة يسمع منها ضجة صغيرة ناشفة: «تست». يقوم سائح ويجهز آلة التصوير. ينظر اليه يوسف كوهين: يجب أن تدفع 10 دولارات على الصورة. تخلص السائح ودفع دولاراً واحداً ثمن بطاقة بريدية.

يجمع يوسف كوهين التقديمات عند الباب: مبلغ مهم لأنه يعرف كيف يؤثر على تلامذته الصغار الذين لا يملكون ما يكتبون به، وللكنيس المدمر، ولِلمقبرة التعيسة، لأن الموتى السامريين يسكنون بشكل أسوأ من الأحياء.

تحضير الفصح

أصبح حيّ نابلس مقفراً. الكثير من العائلات والأولاد صعدوا إلى الجبل. «الشوهيت» مقدم الذبائح أنزل ستارة الحديد للمسلخ الوحيد واستعد لحمل السكاكين الطويلة التي

يستخدمها في الذبيحة. محل الخياط صامت، ودكان السمان فارغ، ومكتب «ياكوف كوهين» مقفل.

نظراً لكوني ضيف الطائفة، ولكن بسبب البخل أيضاً، أصرَّ كبير الكهنة على اجتياز الخمسة كيلومترات إلى الجبل بسيارتي، يا له من مصير غريب لسيارتي الصغيرة القديمة: على الكرسي التي جلس عليها في ظروف مأساوية أشخاص مختلفون، من الشرطي العراقي إلى «العاقل» الدرزي، مروراً بقادة عسكريين ومتمردين، جلس اليوم زعيم أقدم سلطة دينية في العالم، شيخ وقور ذو لحية كثة بيضاء، يرتدي جلباباً من الحرير الأصفر غير منسجم مع الزي العصري وشريط أرجواني، وباقة ضخمة من الشعر معقودة وراء رأسه، احتراماً لكلام اللاوي.

«لا تقص أبداً شعرك بشكل مستدير

ولا تحلق زوايا لحيتك» (اللاوي: 19: 27).

في هذا الجوب من اللباس التنكري الذي يزعم أنه يعود إلى 700 سنة قبل الهجرة جلس إسحق أمرام كوهين على الكرسي الخلفي كملك على العرش. يمسك بين ذراعيه أثمن ما تملكه الطائفة: لغة «أبيشوا».

لحقت به زوجته، يتبعها أحد أبنائها وعدد من أحفادها والأخرس والأصم، الذي تجره دائماً وراءها. إنه الأكثر ثرثرة في العائلة إذا حكمنا عليه، من خلال الحركات

والضجيج والتكشيرات التي يقوم بها دائماً. السيارة مليئة تكاد تنوء بثقل 15 شاباً وولداً تراكموا فيها وجميعهم بأوزان لا بأس بها. حادث مميت ويخسر الشعب السامري واحداً على ثلاثين من أبنائه.

الحياة في القمة غريبة بانتظار الذبيحة. هناك يمكن تنفيذ الخطوة إلى الأمام التي قام بها أناس هولون وتأخير أبناء نابلس.

وصل أصدقاء لي، زملاء في نفس الإدارة في الضفة الغربية يزورون عائلة يوسف كوهين. لا شيء يميزهم: نفس اللباس والجلابية؛ نفس التذوق للنرجيلة، يتكلمون العربية، ويشربون القهوة ويتمددون على الوسائد على الطريقة التركية.

اللباس عند الهولونيين هو أوروبي واللغة عبرية، والزائرون يأتون من تل أبيب: شابات جنديات بالبنطال القصير أو «أشكينا زيم» محترمون، ببزات قاتمة وقبعات طرية. هناك أيضاً ابنة عم هولون الجميلة التي تغيرت كثيراً عن السنة الماضية. يركض وراءها كل شباب نابلس. يا لها من مفارقة إن هؤلاء الفتيان المرد يعتمرون طربوشاً بشرابة، ويرتدون جلباباً مقلماً ينزل إلى ما تحت كواحلهم، يغازلون بشكل فظ فتاة سمراء صغيرة متحررة ومحنّكة! لكن هذا الفارق يتلاشى أثناء الصلاة في الكنيس. هناك، من المستحيل أن تميز،

تحت هذه الألبسة من هو هذا الهدف المرغوب: يجب ألا يظهر أي فرق في بيت الله.

بين زيارات أصدقائهم العرب أو الإسرائيليين والزيارات المتبادلة يغرق السامريون، والكهنة بشكل خاص، بالتحضيرات لذبيحة الفصح. يحضّر الشباب السور ويحفرون المواقد ويجلبون الحطب ثم يضعون أوعية الماء ويحضرون القش والطين.

رافقت مع الكاهن يوسف كوهين الخبير في هذا المجال، كهنة آخرين غير الموجودين في الضاحية لشراء حملان للذبيحة. نحن في اليوم العاشر. سيذبح هذه السنة 28 حيواناً حسب التوزيع على العائلات. التورا تفرض ذلك:

«في العاشر من هذا الشهر يأخذون لهم كلُّ واحد شاة بحسب بيوت الآباء شاة للبيت». (سفر الخروج 12: 3).

يحبس الكهنة الحيوانات ويتفحصونها:

«إنه حمل لا عيب فيه، ذكر، لا يتجاوز السنة» (سفر الخروج 5: 12).

يتشاورون طويلاً، ويناقشون النوعية والثمن. يبدو كأن البدو والسامريين يتشاجرون. كما يبدو بعض الأحيان على السامريين وكأنهم سيذهبون دون أن يشتروا، فيتراجع البدو؛ 28 حملاً صفقة مهمة... أخيراً، لم يشتروا سوى أربعة. غداً، نذهب للشراء من رعاة آخرين.

ثم يبدأ قطاف الزوفاء والحشائش المرة المريرة. الزوفاء حشيشة تمنع تجمد الدم يستخدمها السامريون لحفظ دم الحملان ينقلونه إلى بيوتهم ويغسلون عتبات منازلهم به. إنها تعاليم موسى. يحافظون على حرفيتها:

«وخذوا باقة زوفا واغمسوها في الدم الذي في الطَّسْت ومسُّوا العتبة العليا والقائمتين بالدم الذي في الطَّسْت».
(سفر الخروج 12: 22).

أما العشب المر فيغلونه ويضعونه مع خبز بدون خميرة يوزعه الكهنة بعد أن تذبح الخراف.

يهتم الكاهن يوسف كوهين مع زوجته بشيء آخر هو: صنع الخبز بدون خميرة. يُصنع هذا الخبز الخالي من الخميرة بكميات كبيرة. متى أصبحت العجينة جاهزة، لا تبقى سوى عدة دقائق، غير مطبوخة لتحاشي تخمرها.

عيد الفصح هو الأهم والأول على الروزنامة السامرية. تاريخ الأعياد وطقوس محددة بدقة من خلال كتابات في فصل كامل في كتاب اللاويين. إنها إحدى مهام الكاهن يوسف كوهين، لأنه فلكي كبير، ليس هناك سوى تاريخ واحد، لأن التواريخ الأخرى ترتبط به. يحدد، بالاستناد إلى عدة عوامل مثل نشوء العالم ودخول الإسرائيليين أرض الميعاد، وجدول تاريخي قديم جداً، والجدول المسمى

بالجيز الموضوع على أساس دورة 8 سنوات بينها 3 سنوات كبيس من 12 شهراً و5 سنوات عادية من 13 شهراً.

تحدد حسابات يوسف كوهين اليوم الأول من السنة، الذي هو في نفس الوقت اليوم الأول من نيسان/أبريل ومن الربيع. إنطلاقاً من هذا التاريخ، وانطلاقاً من تحديدات التورا، يمكن الحصول على تواريخ كل أعياد السنة. وهكذا يقع عيد الفصح في 14 نيسان/أبريل. أجرى الكاهن الحساب لي، للسنوات العشر القادمة ملحقاً في مفكرتي ليستفيد منها السياح إذا ما أرادوا أن يحضروا فصحاً سامرياً.

هناك أعياد أخرى هامة هي «الشافووت» (Shavouth) عيد البواكير، وأخيراً «السوكوت» (Souccoth) عيد الأكواخ الشهير. إنه يُكرِّم المرحلة حيث كان الإسرائيليون يعيشون في مساكن قديمة أثناء الهجرة؛ يُحتفل به في اليوم الخامس من الشهر السابع.

يقضي السامريون عيد الأكواخ مع عائلاتهم وقد شاركتهم فيه عدة مرات. يدوم 7 أيام مثل عيد الفصح. في اليوم الأول، تقيم كل عائلة كوخاً صغيراً.

يقيم اليهود في إحدى غرف المنزل، هذا الكوخ وفي الحدائق، لكن السامريين اعتادوا إقامته داخل المنزل تجنباً لإزعاجات المسلمين. يبنى الكوخ من شبكة توضع على إطار من الخشب وتزود بجذع من الأوكالبتوس يقصدون بذلك

شكر الخالق على نعم الطبيعة: يقضون أيام العيد السبعة تحت هذا السقف: يتناولون الطعام، ويستقبلون الأصدقاء، ويمضي بعضهم الليل فيه.

دعيت ذات سنة لقضاء العيد مع إحدى العائلات في نابلس. قبلت في اليوم الأول النوم في السرير المزدوج الذي اقترحه عليّ صاحب المنزل كي لا أحرم الأولاد من لذة النوم تحت الأغصان. ذهبت إلى الفراش فيما هو يقوم بدعواته الموجهة إلى الغاريزيم، مقرفصاً على حصيرة للصلاة، ونازعاً حذاءه كالمسلمين. وما إن انتهت تأملاته حتى جاء سيد المنزل ونام بجانبي. هل هذه هي العادة تحاشياً لتجربة أخرى. قررت النوم في اليوم التالي في الكوخ، لكن نفس الحادثة تكررت: بعد صلواته، لحق بي صاحب البيت إلى الكوخ، سألته عندئذ عن زوجته التي لم أرها منذ عدة أيام. وكانت المفاجأة: زوجته غير نقية. لا تستطيع لمس أحد طيلة 7 أيام. يجب أن تنعزل لتأكل وتنام، لأن صديقي اعترف لي بذلك دون خجل: «إنها في الدم» وفي اليوم الثاني تكون قد اغتسلت وتطهرت وتستطيع أن تنخرط بالعائلة...

إن حياة السامريين اليومية مليئة بالممنوعات التي وضعت لأناس عاشوا قبل 3000 سنة. لا يزال بعضها مرافقاً للحياة العصرية؟ هكذا، عندما تقول الآية في التوراة:

«لا تشعلوا ناراً في مساكنكم يوم السبت» (سفر الخروج 35: 3).

يستنتج السامريون أنه لا يمكنهم إنارة ضوء كهربائي. لكن لهم طريقتهم بالإلتفاف على الشريعة. فقد طلبت مني عدة عائلات، في أيام السبت، أن أذهب من منزل إلى منزل لكي أضغط على أزرار الكهرباء.

ذبيحة الفصح حسب موسى

أخيراً، جاء يوم ذبيحة الفصح. أشعلت عدة مواقد منذ ما قبل الظهر. إنها حفر مخروطية، عمق الواحدة متران، تتصاعد منها نار قوية يغذونها باستمرار بالأغصان والجذوع. يدور فتيان سامريون حول القدر التي يتصاعد منها البخار، فيما يتسلى الأولاد مع الحملان. في هذا الوقت، يصل الأجانب: عرب نابلس، وإسرائيليون، وسواح يختلطون بالسامريين الذين يتمشون ذهاباً وإياباً بثيابهم الاستعراضية.

قبل غياب الشمس بساعة واحدة، يذهب جميع السامريين إلى مساكنهم لكي يرتدوا الثوب التقليدي المخصص للذبيحة، ويقومون بالوضوء المنصوص عليه. يرتدي المسنون جلابيب ذات خطوط دقيقة ويضعون على أكتافهم وشاحاً أبيض اللون «التاليت» (Tallith). يشدون أحزمة من الحرير على خصورهم ويغطون رؤوسهم بعمامة مزركشة. يلبس الشباب السروال

والقميص الأبيضين والطربوش والحزام وأحذية متينة. يشارك في الذبيحة الرجال فقط، لأنه كتب:

«يَمثُل كل الذكور، 3 مرات في السنة أمام الخالق السرمدي».

قبل غروب الشمس بقليل، يصل السامريون في موكب على رأسه الكاهن الكبير. يسير وراءه قدماء الطبقة الكهنوتية مزودين بحصيرة الصلاة، ثم قدماء الطائفة يليهم الشباب. يصل كبير الكهنة ويتوقف أمام كتلة من حجر، يدير وجهه نحو قمة غاريزيم، قبالة الشمس الضاربة. يجتمع 12 كاهناً حول مكان الذبيحة، يرتل الكهنة صلوات يرددها الجمهور من بعدهم. ثم يصعد الكاهن على الحجر ويبدأ بترتيل «سفر الخروج». وفي اللحظة التي يتوارى قرص الشمس فيها وراء الجبال، وفي لحظة من التوتر الشديد، يرتل الرقم 146 من سلالة هارون البركة ثلاث مرات، ويلقي بصوت جهوري هذا المقطع من «سفر الخروج».

«وكل أهل إسرائيل يذبحونه في المساء».

ثم، يمسك مقدمو الذبائح، بعد أن يكونوا قد تأكدوا من حدة سكاكينهم على رؤوس ألسنتهم، بالحيوانات، ويذبحونها بضربة واحدة. موجة من الفرح تستقبل المذبحة وخلال دقيقة يذبح الـ 28 حملاً. يقترب الكهنة الـ 12 من مكان الذبيحة، ويتابعون ترتيلهم لـ«سفر الخروج». وأثناء تلاوة

المقطع الذي يأمر مسح الأبواب بالدماء، يغمس الآباء أصابعهم بالدماء في أعناق الحيوانات المذبوحة ويمسحون جباه أولادهم وأنوفهم.

وفيما الإثارة الدينية في أوجها يتقدمون ويضعون على أقدام كبير الكهنة طبقاً يحتوي على الغذاء المر. ثم يتقدم كلٌ بدوره يؤدي الاحترام مقبلاً يديه، بالشفاه والجبهة، ويأخذ قليلاً من الطعام. ثم يتعانق السامريون في كل مكان، يتمنون لبعضهم عيداً سعيداً.

يأخذ الشباب الضحايا لينزعوا عنها جلودها، فيُنزع الصوف أولاً؛ لذلك يرمونها في الماء الساخن لتسهيل العملية؛ ثم يأخذ الجزارون الحيوانات ويعلقونها على الأعمدة لينظفوها وينزعوا عنها القسم الملوث. ثم يضعون الملح عليها لإيقاف الدم. ويبقى العمل الأكثر دقة للكهنة المكلفين بالتثبت ممّا إذا كان الحيوان قد ذبح على الطريقة الشرعية. فإذا أعلن أن الذبح غير صالح يرمى عندئذ في النار مع الصوف والأحشاء وقوائم حيوانات أخرى.

تتم هذه العمليات كلها في جو لا يوصف من الصراخ والحماس الشبابي، وبورع ديني كبير، خاصة عند المسنين. ويتابع الكهنة الإثنا عشر التراتيل بلهجة رتيبة وهم يتجولون بين المؤمنين.

أخيراً، تُجهَّز الحيوانات على قضبان الشوي، وتصبح مهيأة

لتوضع على النار. وحول كل منها، ينتظر بعض الشباب، ويراقبون المقطع من «سفر الخروج» الذي يسمح لهم بوضع كل القضبان في نفس الوقت على النار. ثم تغلق الفتحات بحزمة من الأغصان تغطى، بالطين؛ إنها نوع من الأفران البدائية.

عندئذ ينسحب السامريون إلى بيوتهم لمدة ثلاث ساعات يتأملون فيها، ويتابعون مع عائلاتهم قراءة تاريخ الشعب العبراني في سيناء. وقبل منتصف الليل بعدة دقائق، وعلى صوت قرن الكبش (Chofar) يعود كبير الكهنة إلى المكان ووراءه كل الطائفة. ويحمل رؤساء العائلات صينية عليها قليل من الخبز وأعشاب مرة. فيفتحون الأفران ويسحبون الحملان المشوية. وبعد مباركة كبير الكهنة، يأخذ رئيس كل عائلة حصته ويأكل الفصح في بيته، محافظاً بدقة على الوصية:

«وهكذا تأكلونه، أحقاؤكم مشدودة وأحذيتكم في أرجلكم، وعصيّكم في أيديكم، وتأكلونه بعجَلة. هو فصح للرب». (سفر الخروج 12: 11).

يجري بعد 8 أيام احتفال آخر لا يشارك فيه أي غريب، ويبدو أنه أكثر إثارة من الفصح، يجري خلال الليل في ظلمة قاتمة، وفي نفس مكان ذبيحة ابراهيم؛ يستمر حتى الفجر.

خرج السامريون منذ منتصف الليل الفائت واحداً واحداً

من بيوتهم، العصا في يدهم، وحصيرة الصلاة تحت إبطهم، وغطاء على كتفهم. يذهبون أولاً إلى الكنيس الذي يدوِّي خلال ساعتين بالأناشيد والصلوات. ثم يسيرون مجموعات على الطريق الذي سار عليه ابراهيم وإسحق، «الأبانيم». الطريقة مليئة بالحصى، ويتعثر المسنون على الصخور، فيساعدهم الشباب ممسكين بأيديهم. يتوقف بعضهم للاستراحة. الصمت تام تقريباً. لا يسمع سوى أصوات الحصى المتدحرجة وصراخ البومة الصماء. يتسلق كبير الكهنة المنحدر بسرعة بمساعدة ولديه وهو يحمل التورا القديمة على كتفه.

تملكني في تلك اللحظة، تجاه السامريين المتشبِّثين بجبلهم، شعور بإعجاب عميق وشفقة كبيرة، إعجاب لما أبقوا عليه، وبما حافظوا لنا عليه. فلهم منا الشكر! وهذه الشفقة أيضاً، لأنهم يبدون وحدهم في العالم. فهل يحق لهم أن يبقوا متعلقين هكذا بماضيهم؟

مع ذلك ليس هناك ما هو أشد تأثيراً من شعب موسى هذا، المجتمِع على الجبل أمام توراه المؤلَّفة، في اللحظة التي يتلوَّن فيها الأفق بأنوار الشرق الأولى.

الفصل الخامس عشر

القدس، مدينة أرضية، مدينة سماوية

«وخلق يهوه العالم، والقدس في وسط العالم، وفي وسط القدس يقوم الهيكل».

نيكول

أحلم أمام القدس التي تتذهَّب بآخر أشعة الشمس، وظهري على جذع خشن لشجرة زيتون قديمة، وعلى ركبتي خريطة المدينة. نسجت تلك الحجارة التي تبدأ على مداخل الصحراء، ثلاثة آلاف سنة من التاريخ، ثلاثة آلاف سنة من الحروب والغزوات والهزائم والعبودية والمجد، كل ذلك، لكي تشهد على فكرة واحدة، هي، إذا ما بدت لنا اليوم مكاناً مشتركاً، فهي قد كانت في السابق وحياً استثنائياً، أي أن آلله هو إلّه شخصي، إلّه حب، وهو واحد أحد.

مدينة شاهدة على الله، مدينة مقدَّسة، مدينة يتنازعها اليهود والمسيحيون والمسلمون، القدس التي تبدو هادئة وغارقة بين جبال قاحلة ومثلمة.

بدأت قصة حياتها منذ حوالى أربعين قرناً، عندما اجتازت عتبة التاريخ، في وسط العصر البرونزي، مع لقاء ابراهيم بالكاهن الملك ملكيصادق. يبدو أنها كانت في تلك المرحلة مركز نشاط ديني كبير، طالما أن اللوحات المصرية في تل العمارنة تحت حكم الفراعنة أمنحوطب (Amenhotep) الثالث وأمنحوطب الرابع، هذا الأخير معروف أكثر باسم «أخناتون»(*) (Akhenaton) تتكلم عن أولئك الحابيرو (Habier) الشهيرة، الشديدة الاضطراب والشديدة الإثارة أيضاً.

هل أوحت القدس بعبادة الإلّه الواحد التي حاول أخناتون إدخالها إلى مصر؟ هناك أمر أكيد. فقد أثبتت الأبحاث الآثارية التداخل الاستثنائي للثقافات في تلك المنطقة من العالم. فمنذ استخدام الجَمَل للخدمات البشرية، تتجمَّع قوافل آشور بمصر، وتنقل الأقمشة والحلويات والذهب والأفكار. ويقع في وسط هذا التبادل كل من الممالك الصغيرة التابعة للفينيقيين والكنعانيين. فكيف نعجب إذن من وجود تعابير مثل الطوفان، والجنة، وأسطورة «جلجامش»(**) على جانبي الهلال الخصيب، في مناطق النيل والفرات وفي

(*) راجع الملحق: الأتونية.

(**) راجع الملحق: جلجامش.

القدس؟ لكن المفارقة هي أن وسط ممالك بهذه القوة وثقافات بهذا الغنى والتنظيم، استطاعت رسالة أبراهام الفريدة أن تفرض نفسها في وجه كل أفكار العصر.

مصير مأساوي

«وأخذ داوود حصن «صهيون» هي مدينة داوود».
(صموئيل 5: 7)

أي سبب دفع ملك إسرائيل هذا لغزو أجمة صغيرة من الجبال، مواردها بالمياه معدومة تقريباً، وبدون أراضٍ قابلة للزراعة عملياً، على مقربة من صحراء محروقة بالشمس؟ لماذا بنى هنا عاصمته وليس على الهضاب الخضراء في السامراء والجليل؟ لأنه، ـ تقول التوراة ـ باختياره مدينة لا تملكها أية من القبائل الإثنتي عشرة، يتجنَّب النزاعات فيما بينها، وينجز توحيدها. لكن، ألا يجب البحث عند تفسير هذا الاختيار في المفهوم الذي كوَّنه العبرانيون وأنبياؤهم عن المدينة الأرضية، رمز القدس السماوية. ألا يجب، من أجل بلوغ ذلك، أن يجبر المفهوم الأول الناس على أن يتجاوزوا أنفسهم من خلال ضغوطات طبيعة مادية، وأرض بالكاد تسكن، وأن يتجاوزوا الموت ليلتقوا بالمطلق؟

على هذا الجبل القاحل إذاً، سيبني سليمان الهيكل معبداً رائعاً يستلهم بيت الجسد في الصحراء (سفر الخروج 25).

لكن القبائل تنفصل عن بعضها بسرعة كبيرة. إنه الانقسام؛ وبالتالي انهيار الهيكل. يتوجه أبناء إسرائيل نحو آلهة أخرى، ويعتنقون العبادات الوثنية. وتعاقب الأنبياء دون كلل: الأول قزحيا، يحذر الشعب ويقوم بتنظيف عام للعبادات السيئة، ويُحرِّض الملك حزقيال على مقاومة سنحريب حتى النصر.

لنتوقف لحظة عند هذا العصر الذهبي وهذا الحزقيال المدهش.

استعاد الهيكل نقاوة العبادة، واستفاقت القدس؛ الآشوريون واقفون أمام جدرانها، والسامريون وحدهم سيقاسون من النفي؛ حوَّل حزقيال «إيزيشياس» (Ezechias) مياه «الغيلون» لكي يروي سهل القدس القاحل، عبر قناة تمر تحت التلال حتى وسط المدينة. لا يزال باستطاعة السياح اليوم أن يقرأوا الكتابة الفخورة عن مأثرة فريقيّ الحفر اللذين انطلق كل واحد من أحد طرفيّ النفق، والتقيا تحت التلال. للأسف، إن مثل هذه المنجزات التقنية لم تعطِ فائدة كبيرة، ذلك أن خيول نبوخذنصَّر داست المعابد، وبينما صوت القدس يتلاشى، كانت أثينا تصغي إلى بيتاغور، وآسيا إلى كونفوشيوس وبوذا.

«إن نسيتك يا أورشليم تنسني يميني وليلتصق لساني بحلقي». (مزامير ١٣٦).

تُثقل ذكرى المدينة الشعب المنفي على ضفاف دجلة،

لتنسَ يميني الكتابة وليتوقف لساني عن الكلام: هذا هو شغف صهيون: عدم التمكن من نطق أو كتابة شيء سوى حبه.

متأثراً ربما بهذا القدر من التعلق، سمح ملك الفرس، قاهر البابليين، لليهود بالعودة إلى ديارهم، وإعادة بناء الهيكل. فبنوا معبداً ليس بكبير وإنما دام خمسة قرون. خمسة قرون من التخاصم والانقسامات الداخلية، تحت نير الأجانب حيث نسي العبرانيون في وسط الضياع، لغتهم ولم يتكلموا سوى الآرامية التي جاؤوا بها من بابل.

يقال إن «أثينا هي للفكر كما هي القدس للروح». كثير من الإسرائيليين يخلطون بين الأثنتين، ويقدمون الذبائح للآلهة اليونانيين، لأن المنفى بعيد، والوحدانية الدينية توارت معه: كل يدافع عن رأيه، ولكل واحد رأيان أو ثلاثة حول كل موضوع، خاصة على الصعيد الديني! مما أثار مرة أخرى حرباً دامية بين القبائل وضد المحتل اليوناني: إنها انتفاضة «الماكابيني» التي تنظف وتطهر وتغسل هيكل العبادات الوثنية عام 164 ق. م.، وهي مناسبة يحتفل بها كل سنة بعيد الأضواء.

غازٍ جديد، نير جديد، نظام الباني الكبير في روما، «هيرودوس أنتيباس». بلغت المدينة الذروة: 200 ألف ساكن؛ أعيد بناء الهيكل، رائعاً فخماً. ومن أجل تمهيد

الأراضي، بنى هيرودوس فناءً واسعاً، لا يزال أحد جدرانه الخارجية موجوداً حتى اليوم: إنه حائط المبكى.

لكن هذا الشعب الصغير، الذي تحدى وحده السلطة الإمبراطورية زاعماً أنه لا يعبد إلا ربه هو، أظهر الكثير من الادعاء. فلم تقبل روما بذلك. كان هذا آخر عمل لأورشليم التوراتية، رواه «جوزيفي» بالتفصيل في حرب اليهود: محاصرة المدينة من قبل تيتوس. هُزم اليهود، وتشردوا، دُمِّر الهيكل، وفُلحت المدينة؛ مرة أخرى، تبدو أورشليم نفساً مسكينة محكوماً عليها أن تتجاوز موتها. وبقي اليهود، خلال ألفي سنة، يرددون في منفاهم:

«السنة القادمة إلى أورشليم».

وكانت الأعجوبة عام 1967، عاد حائط المبكى يهودياً؛ ألوف الحجاج يؤمونه من العالم أجمع، يبكون فرحاً على القدس مدينتهم الأرضية التي وجدوها أخيراً.

أبناء إسحق...

لكي نختلط بهؤلاء الحجاج القادمين من ميا شياريم، ندخل إلى المدينة القديمة من باب دمشق؛ ونتوغل بين «مد بشري» لا يُصدق، عبر شوارع صغيرة تغص أحياناً بالمارة بحيث لا يستطيع أن يمر فيها ثلاثة أشخاص وجهاً لوجه؛ تلتقي فيها نظرات البدو التي تشبه نظرات الصقور، والشعر

الشركسي الأغبر، والأنف السامي المعقوف؛ والخطوط المتعددة لتركيي الأناضول. ويقود عبد أسود من عبيد العثمانيين مجموعة من السياح الحمر والورديين المزودين بآلات التصوير والحقائب؛ وفيما أستدير لأنظر إلى يهودي هاسيدي بشعره المجدول المجعد، اصطدمت براهب أرثوذكسي يبدو أنه لم يقدِّر لقاءنا.

الباحة الموجودة أمام حائط المبكى سوداء لكثرة الناس. نهار الجمعة ذاك، بداية السبت. نساء ورجال، يرتدون الوشاح الأبيض، يرددون صلواتهم مترنحين إلى الوراء والى الأمام. وتدغدغ الأيدي الحجارة القديمة، بينما يُدخل آخرون في الفتحات أوراق صلاة. إنه لمشهد غريب هذا الحوار الصامت بين الحجارة والرجال، لكنه يجب أن تأتي في الساعات الفارغة لكي تدرك هذا الحب الذي لا يقدَّر والذي يكنُّه اليهودي تجاه صهيون، تسمع في السكينة، بكاء رجل سعيد، وتراه يبكي دموعاً حارة.

جلسنا ذات مساء في مقهى عربي ساطع الأضواء ننتظر صحافياً يهودياً كنا على موعد معه. القناطر التي تعود إلى أكثر من ألفي سنة مطلية بطلاء فاقع، وتظهر تحت الرسوم المواضيع الكورنتية للأعمدة التي تتدلى منها أنابيب حلزونية وزخرفات فاقدة الرونق. يجلس حول الطاولة المجاورة لاعبو النرد الذين تسمع ضرباتهم الحادة من بعيد. شالوم! طلب

هارون صديقنا الصحافي الملتحي ذو المظهر الشبيه بالهيبي القادم من كاليفورنيا فنجاناً من القهوة العربية، وأخذ كرسياً له، وداعب كلباً عجوزاً كان نائماً هناك، وبدأ يتكلم بشغف عن الأحداث السياسية.. أوف! إن مثل هذه الحرارة تقتلني.

نظرة سريعة في الكواليس ليرى إذا كان جاك يتبعه، يبدو أن اهتمامه يشير إلى أنه متأكد من ذلك. أخذ، إذاً، قطار الحديث:

«... إن علاقاتنا مع العرب صعبة جداً لا بل متوترة، والحذر الناتج عن ثلاثين سنة من الحرب والموجود في كل مكان، لا يمكن إزالته بسهولة. لقد منحتهم حكومتنا العمل والتسهيلات الاجتماعية والمدارس، ومع ذلك لا يحبوننا. تبثّ إذاعاتهم طيلة النهار شعارات معادية للإسرائيليين».

ـ كيف ترى المستقبل في هذه الظروف؟

أريد أن أكون واثقاً. اليهود متفائلون اضطراراً، إلا أن هناك صدامات حتى بين اليهود. إن ما يؤلم الآن، هو وجود تلك الهوة بين اليهود المسنين والشباب. القدماء أكثر قساوة من الصقور، لقد عرفوا فظاعات لا توصف، نحن كبرنا بحرية إننا نرفض عالمهم الفكري. كثيرون منا يرفضون الصهيونية والدولة ـ الدين. مع ذلك نعبد بلدنا. أعتقد أنه يمكن القول إننا اليوم رهبان بدون الله.

ـ دون الله؟ مع أن هذه الأرض، القدس هذه التي تطالب بها، باسم وعدٍ من يهوه إلى ابراهيم!

ـ بالفعل بالنسبة لنا نحن اليهود، هو حق مقدس، يندرج في مقومات الدولة ـ الدين، ولا يمكن التخلي عن هذه المدينة التي هي بالنسبة للبعض أورشليم السماوية، وتمثل للجميع رمز وحدتنا. ويبدو أن المسألة غير قابلة للحل، لأن القدس هي مقدسة بالنسبة للعرب أيضاً: القدس، هناك بين تلك الحجارة سيلتقي أبناء ابراهيم وجهاً لوجه، محاولين تقاسم ما لا يمكن تقسيمه.

... وأبناء إسماعيل

إسحق وإسماعيل! يلتقي أحفادهم في كل خطوة في المدينة القديمة، متخاصمين حذرين من بعضهم، منغلقين: موجتان مغلقتان، عالمان منغلقان. تناقش مع الفلسطيني في مقهى «فادولور» حيث نشرب قهوتنا كل صباح، ونتناول طعام الفطور:

«كيف تريدون أن تكون الأمور مختلفة، قال الفلسطيني، ونحن نعيش العبودية؟»

ـ مع أنكم تجدون عملاً بفضل اليهود!

هنا تكمن المشكلة. إن ما نريده هو أن يحكمنا عرب، سواء كانوا فلسطينيين أو أردنيين. القدس بالنسبة لنا هي

المدينة المقدسة الثالثة، بعد مكة والمدينة، يجب أن تبقى بين أيدي الإسلام. على كلٍ نحن نملكها منذ 13 قرناً. . . .

13 قرناً عندما قدم المسلمون عام 638 إلى القدس، استقبلهم الناس كمحررين. وخرج البطريرك سوفرونيوس الذي كان يعرف تسامحهم مع البلدان الأخرى المحتلة، من داخل الجدران يسلّم مفاتيح المدينة للخليفة عمر؛ عندئذ، دخل عمر على الأقدام حسب التقليد، إلى جانب البطريرك العجوز، إلى المدينة الخارجة لتوها من الاجتياح الذي تعرضت له على يد الفرس قبل 15 سنة.

هنا واقعة غريبة عن تاريخ القدس: بما أن اليهود قد ساعدوا الفرس على ذبح المسيحيين فقد غطى هؤلاء على سبيل الانتقام بقايا هيكل سليمان بالقمامة والصخرة التي أقيم عليها. إلا أن عمر، كان يحترم تلك الصخرة، لأنها حسب التقليد السامي هي مكان ذبيحة ابراهيم؛ فطلب من «سوفرونيوس» أن يأخذه إليها. لكن البطريرك، خوفاً من أن يعيد الخليفة بناء الهيكل لليهود، أخذه إلى قبر المسيح. وهكذا اكتشف عمر بالصدفة مكان الهيكل. كان مدخله مليئاً بالقذارة بحيث اضطر إلى الزحف على أطرافه الأربعة لينزع القذارة ويرميها في الوادي.

في ذلك المكان شيَّد عمر بعد عدة سنوات، الجامع الذي

يحمل إسمه، لأنه جاء في القرآن: «سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى».

> «تلك هي القدس، حيث منها امتطى النبي محمد جواده «البراق» ليجتاز مثل دانتي كل الجنات والجحيم ويتشاور مع آدم والأنبياء والمسيح».

تحيط بالمعبد باحة مبلطة، وضع مقاييسها هيرودس. تحيط به أشجار من السرو والصنوبر، ترتسم هنا وهناك، مناطق غريبة من الظل تأوي تحتها عائلات إسلامية سعياً وراء الهواء النقي. وفي وسط الفناء، على ارتفاع عدة درجات، تقع قبة الصخرة، وهي أكمل نصب عرفته في حياتي يعتقد المسلمون المؤمنون أن كفتي الميزان التي تستخدم لوزن الأرواح يوم الدينونة الأخيرة، سوف تعلق في القناطر المحيطة به.

جامع عمر

إقترح علينا رجل مسن أن يقودنا إلى المعبد؛ أوحى لنا بالثقة فتبعناه. وقمنا مع حجاج آخرين بالدوران حول الصخرة باتجاه عقارب الساعة، تلك الصخرة البارزة وسط رخاء البسط. هناك توجد علبتان صغيرتان من الذهب تحتويان على شعرتين من شعرات النبي؛ وفي أعلى القبة، عُلِّق تاج كسرى ملك الفرس الذي هزمه العرب، وقرنا الكبش الذي قدمه ابراهيم ذبيحة. «يُعتقد أن المغارة، الموجودة تحت الصخرة

مباشرة، هي «بئر الأرواح». وعندما نصلي في هذه المغارة، نسمع أحياناً تنهدات الموتى الذين يجيبوننا». لاحظ جاك أنه حُفِر نوع من المدخنة في سقف المغارة. هل هذه كما يزعمون القناة التي تجري فيها دماء الذبائح التي يقدمونها في الهيكل؟

بعد الخروج من المعبد، أخبرنا الرجل العجوز الذي يبدو أنه استطلفنا، أنه هو نفسه حاج. لقد قام بالحج إلى مكة، ووصف لنا كيف قامت عائلته أثناء غيابه بتزيين واجهة منزله بتخيلات رمزية لمكة والقدس. سبق ولاحظنا ذلك بالفعل؛ وقد صور جاك بعض هذه البيوت المزينة بسذاجة وبألوان فاقعة أحياناً. قليلون السياح الذين تتسنى لهم رؤيتها لأنها في الشوارع الداخلية البعيدة عن الطرق العادية.

سرنا على خطى الرجل العجوز نحو الجامع الأقصى في نهاية الباحة، فهو بنفس أهمية قِبة الصخرة بالنسبة للمسلمين. ليس له سوى أهمية نسبية من الناحية الهندسية. بسبب ترميمه مئة مرة في العصور الغابرة، فهو يحتوي على مزيج غريب من الحجارة القديمة؛ فالأعمدة اللماعة هي تقدمة من موسوليني، والسقف قدمه الملك فاروق وكذلك كل ما تبقّى...: والقسم الوحيد الجميل فعلاً هو مكان الكورس الذي أحرقه يهودي مهووس عام 1969.

بعد عدة أيام أدى اللقاء مع المعلم، أعمى يعلِّم القرآن،

إلى إعادة نظر مقدسة في طرقي الغريبة في فهم الديانات الأخرى. وفيما كان جاك يقوم بتصوير المدرسة القرآنية، راح المعلم يفسِّر لي بعض الآيات. من المستحيل بالطبع، ترداد ما قيل خلال أكثر من ساعة، ولا التعبير خاصة عن الوضوح الذي كان يظهر من كلامه:

جاء في القرآن: ﴿لا يكلِّف الله نفساً إلا وسعها﴾.

أرأيت أن الله لا يطلب المستحيل. وهذا المفهوم يتعارض مع الضغط الذي نصادفه عند اليهود والمسيحيين المتنازعين دائماً بين مثلهم ومفهومهم للخطيئة.

ـ إذا كنت قد فهمتك جيداً فإنك تعتبر دينك أكثر براغماتية.

ـ كلا، إن القرآن يوفِّر بالأحرى للمؤمن وضوحاً مقابل التصرف الأكثر أصولية في الديانات الأخرى. فإذا وجدنا فيه عدداً كبيراً من الإرشادات الأخلاقية، والمدنية، فإننا نجد، خاصة، تكراراً مبالغاً به لسلطة الله ورفقه.

ـ وتلك الآية في القرآن التي تقول: مالكي يوم الدين ـ ألا تتعارض مع ما سبق وقلت؟

ـ «مفهوم الخير والشر هو مفهوم إنساني. والله فوق هذا المفهوم. إنه شبيه باليانغ ألين الصيني، وجها قطعة واحدة لا وجود للواحد بدون الآخر. فالشر ضروري لوجود الخير، لكي يمكن اختياره، أليست ضرورة الشر هي التي تستوجب

ضرورة الخير؟ وإلا فكيف نفسِّر حرية الاختيار؟ ووجود الخطيئة في القرآن. إنها تحط من قيمة الله».

ولادة جديدة! تمنيت أن أولد من جديد، فأقطع الحبل السري الذي يربطني بديكارت والقديس أوغسطينوس وروسو. لو كان باستطاعتي، بضربة مكنسة، أن أزيل كل ما عندي من صور جاهزة وعادات. ربما عندئذ... ها إن جاك قد انتهى من التصوير والتلاميذ يغادرون المدرسة. مرة أخرى، أرجأت تأملي إلى مناسبة أخرى؛ أدركت على كل حال، أنني بفضل هذا الرجل القديس أشعر في نفسي بانسجام عذب مع ما يحيط بي.

القدس مقدسة ثلاث مرات

«أنت الصخرة، وعلى الصخرة سأبني بيعتي».

من أعلى القبر المقدس أفكر بهذه الجملة للمسيح، مراقباً حولي أفق الحجارة الشقراء للمدينة القديمة، التي تحيط بها صحراء حجارة يهودا، جملة أخذتها القديسة هيلينا أولاً، ثم الصليبيون فيما بعد، من خلال بناء، وإعادة بناء القدس مجدداً.

بالفعل، عندما نجحت الإمبراطورة هيلينا بدفع بلدها لاعتناق المسيحية فحققت حلمها وأبحرت إلى القدس، لم تكن المدينة سوى قرية رومانية راقدة بالقرب من الصحراء،

فانكبت بحماسة على البحث عن آثار حياة إلّهها، واكتشفت خشب الصليب الحقيقي.

يزعم بعض مؤرخي العصر أنها اكتشفت ثلاثة صلبان داخل حوض، وعرفت مباشرة صليب المسيح بمساميره العجائبية المغروسة فيه. ويزعم آخرون، أنها وجدته في الحفرة المحيطة بجدران المدينة القديمة، على سفح الجلجلة. في مكان ليس بعيداً عنه يوجد قبر يوسف حيث دُفِن المسيح، لأنه كواحد من أبناء الجليل، لم يكن له قبر في القدس، ويوسف الذي كان قد حفر حسب العادة مكان قبره، قدمه لدفن المسيح.

هل دُفِن هناك حقاً؟ وهل أن هذا الخشب هو خشب الصليب؟ لن يستطيع أحد الإجابة عن هذه الأسئلة، لكن هيلينا المليئة بالإيمان، شيَّدت في ذلك المكان كاتدرائية، ووهبت المدينة عدة أديرة.

بعد عدة قرون، حرَّر الصليبيون المدينة من حكم المسلمين، وراحوا يبحثون عن الآثار المسيحية تحت الطلاء العربي. تنظيمات دينية: رهبان، ممرضون، حراس الهيكل، وبندكتيون، والتتونيون يبنون معابد في كل مكان، يفترضون أنه من حياة المسيح. أقول «مفترض» لأنه باستثناء حوض «بيتاسدا» حيث قام بعدة عجائب، وربما حجارة قلعة أنطونيا لا تزال تحت كنيسة القيامة، لا يجرؤ أي عالم آثار أن يؤكد

أن هذه المعابد قد شُيِّدت في الأماكن التي عاش فيها المسيح.

أما طريق الصليب التي تعيد رسم الطريق الذي اتبعه إلى الجلجلة، فقد أعاد رسم وجهتها القديس فرنسيس الأسيزي؛ وذلك عبر شوارع صغيرة تقع أرضيتها على علو يزيد على خمسة أمتار عن العلو الذي وطأته قدم المسيح. بقي موقع بعض المحطات غير محدد حتى القرن الأخير؛ إنه، في الواقع، ممارسة الورع المستورد الذي قرر تباعاً المحطات المختلفة التي تشكله اليوم، أكثر مما هو تقليد محلي.

رغم كل شيء، شعرت هنا بوجود المسيح فيما كنت أصعد إلى «فيادولوروسا». هل هذا بسبب جو المدينة القديم، أم هو هواء اليهودية المنعش في الربيع؟

في هذا الفصل، تغطي التلال التي تحيط بالقدس، ألوف الأزهار البرية. حصاد عابر من الجمال والأريج الذي نظر اليه وأحبه دون شك، عندما بكى المدينة. إنه منظر شاهد على المسيح، ولا يزال اليوم وسيبقى من خلاله أبداً، يحاول السياح القادمون من كل بقاع الأرض أن يعيدوا صلتهم بينابيع إيمانهم.

أشقاء متخاصمون

بالفعل، ماذا يريد المسيحي عندما يأتي إلى القدس؟ مكان

موت إلّهه وقيامته؟ إذا كان هذا كل ما يبحث عنه، فسوف يصاب بالخيبة، لأن المكان بالذات، قبر المسيح المقدس، بدلاً من أن يعبِّر عن السر الإلّهي، فهو يلخص نقاط ضعف تاريخ الكنيسة، والروح المسيحية عامة: المعبد منقسم، وهو تحت وصاية ست شيع متخاصمة تغار من بعضها.،

الأرثوذكس الشرقيون، أولاً، أقوياء، إمبرياليون، فرضوا تفوقهم، كونهم كانوا هنا قبل غيرهم في أيام الإمبراطورية البيزنطية، وبسبب تفضيل العثمانيين لهم، الذين لم يرغبوا رؤية المسيحيين الغربيين في مدينتهم. ثم جاء الأرمن منذ 1500 عام، والفرنسيسكانيون الممثلون الرئيسيون للكنيسة الرومانية في القدس منذ القرن الثامن عشر، والأبيسينيون وهم طائفة قديمة جداً دفعت من خيبة إلى خيبة مع جيرانها الأقباط والسريان للخروج من الكنائس ببطء لتنتهي على سقف القبر المقدس، حيث تتابع ممارسة لاهوتها بعناد.

بدلاً من كنيسة كبيرة مضاءة، كرمز للقيامة فالقبر المقدس هو تجمع من المعابد الصغيرة المتداخلة بعضها ببعض، حيث تبرز الخصومات البائسة للديانات المتنافسة.

وأملاً بتوطيد النظام بين هذه الشبكة من الأشقاء والأعداء، أوكل العثمانيون نهائياً، حماية الأماكن المقدسة إلى عائلة إسلامية. لا تزال تحتفظ تلك العائلة بهذا الامتياز حتى اليوم، ويقوم أحد أعضائها كل مساء، بإقفال باب

المعبد على راهب فرنسيسكاني وكاهن أرثوذوكسي، وراهب أرمني، وذلك كي لا يجري تحريك أو سرقة شمعة أو أي شيء من وسائل العبادة المختلفة.

شهدنا هذا الحدث المضحك: يتسلق المسلم، الشاعر بأهميته، سلّماً ليغلق الأقفال المختلفة لباب الجليل، ثم من خلال فتحة باب مخصصة لذلك، يعطي السلّم لأحد الكهنة الذي يعيده في الغد عندما يأتي لإطلاق سراحهم.

«إفعلوا هذا لذكري».

هكذا قال المسيح عندما وضع سر القربان المقدس. يعيد الحج المسيحي هذه الحركة ببعديها في القدس! البعد الجغرافي أولاً، مرآة الأمكنة، حيث عاش المسيح، ثم البعد التاريخي، ذكرى الرجال الذين يعيدون حركة المسيح كل يوم في القداس. ذكر أبدي لله مقابل مساحة محدودة، مرسومة حدودها بالتلال ـ مرآة تشهد على حياة.

«يتهيأ لي، قال لنا البطريرك الأرمني الكاثوليكي الذي تحدثنا معه عن القدس، إن هذه المدينة هي أساس اللانهاية بالنسبة لبعض المسيحيين».

استقبلنا البطريرك، النحيل الهزيل، بلحيته الخفيفة وجلبابه المخضر، وبالقبعة المقلمة، في مكتبهِ ككل ليلة. عجوز متواضع وسكوت، دون أية إشارة في اللباس تدل على صفته

كبطريرك. في مكتبه المرتب، توجد خزانتان كبيرتان، واحدة مليئة بالكتب وأخرى بالشراشف للحجاج؛ يكمل هذا الأثاث ثلاثة كراسي ومكتب قديم من طراز هنري الرابع الجديد؛ رغم ذلك، يشعر المرء بنفسه وكأنه في بيته: فقد أخذنا ببساطته ووضوحه المليء بالدعابة وخاصة طيبته الهادئة. غالباً ما قطع محادثاتنا مجيء الأب جوزف المتكرر، الراهب الوحيد في البطريركية الذي يشارك البطريرك في كل النشاطات وكل مسؤوليات الدير: استقبال الحجاج، الإشراف على المطبخ، الوصاية، العبادة، وأخيراً تعليم الأولاد، لأن المدرسة تضم 50 ولداً من الأرمن والعرب تجاور أبنية الأديرة. تمول هذه المدرسة المؤسسة البلجيكية في الأرض المقدسة. الأب جوزف، المرح والعريض، هو عكس البطريرك: متحرك مستعجل باستمرار، يركض يتسلق، يعطي الأوامر، يوزع البريد، والفواتير والشراشف والمناشف، ويبدي حيوية مذهلة حقاً.

بهذا المعنى، كل شيء عنده يتعارض مع البطريرك. لذلك، فهو لا يتسامح، لا بل يعتبر معيباً، قرار روما ببناء جامع، في حين لا يستطيع المسيحيون أن يضعوا أرجلهم في مكة. يستهجن بشدة الأخطاء النفسية التي ارتكبها المرسلون اللاتين في الأرض المقدسة، ويأخذ موقفاً من

الحرب اللبنانية بعنف، ودون تحفظ مع الموارنة الطيبين ضد السيئين... منْ هم السيئون؟ كل الآخرين، أعداء المسيحية الأشرار، أعداء «مسيحيته».

«إننا نستنكر هذه الحرب، يقاطع البطريرك قائلاً، كما نستنكر كل الانقسامات المستمرة بين المسيحيين في القدس».

ـ لكنك لا تتكلم إلا عن الحجاج المسيحيين، يجيب جاك. أليست القدس مدموغة بثلاثة رموز: الصليب، والهلال والنجمة؟

ـ «قبل حرب العام 1948، عندما كانت الحدود مفتوحة، كان يأتي كل سنة 350 ألف مسلم قادمين من مكة يؤدون الصلاة في الجامع الأقصى. يحملون معهم، الأصواف، والحلوى والدهن، ليبيعوه في الأسواق، سعياً وراء بعض المال لمتابعة الطريق. يجب أن يكون باستطاعة كل الحجاج، أكانوا مسيحيين أم مسلمين، أن يأتوا إلى القدس لكي يعبدوا الله حسب طقوسهم».

ومع ذلك فالتناقض بين اليهود والمسيحيين هنا هو الأشد في العالم. ولكي نقتنع بذلك علينا أن نقرأ شهادات الرحالة في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر: يتيح لنا هؤلاء أن نفهم بشكل أفضل الغيرة الحادة والحساسية والمطالب المختلفة عند الطوائف عندما تتخاصم من أجل ضمانة أماكنها المقدسة.

يروي «شاتوبريان» مستهجناً في رحلة في الشرق: «دخلنا من باب الحجاج.. دفعنا القرض.. وصلنا إلى دير الآباء اللاتين. كان جنود عبد الله قد غزوه». اضطر الآباء اللاتينيون الذين استقبلوهم أن يدفعوا للباشا 60 ألف قرش بدلاً من 4 آلاف قرش مستحقة: «... هددنا الباشا بطردنا إلى الجهة الأخرى إذا لم ندفع».

يلخص غوستاف فلوبير من جهته الوضع بالجملة التالية: «كل شيء يهترىء في القدس: الكلاب ميتة في الشارع، والديانات في الكنائس».

بالفعل إن الوضع في الكنائس ليس جيداً. والعلاقة التي أقامها الأب فاشيه (Vachet) عام 1875، من خلال الصلاة الأرثوذكسية في القبر المقدس هي الدعوة ضد الأتراك واليهود واللاتين من أجل الانتصار الكبير للرب: «الموت للإسلام والموت لليهود... والمجد ليسوع المسيح. لقد قام المسيح... اليهود مكتئبون... عاشت روسيا المقدسة».

لم تنجح أية سلطة حتى اليوم، لا سياسية ولا إنسانية أو إلّهية أن تزيل أشباح الماضي: السكان العرب، المسيحيون والمسلمون يعيشون في تجمعات مختلفة، لا بل متخاصمة، اليهود الهاسيديم ينعزلون في غيتواتهم، والإسرائيليون في المدن الحديثة؛ الزواج بين الطوائف استثنائي جداً وحواجز التوحيد متعددة بسبب نتائج الحرب.

عيد الأضواء.

وفيما تدور في رأسي هذه الأفكار المشتائمة تسلّقنا درجات «الفيادلوروسا» لمشاهدة زياحات الجمعة الحزينة. يتناوب الفرنسيسكان، ومكبر الصوت بيدهم، بالقرب من الحجاج الغربيين الذين يتدافعون باحترام حول صليب ثقيل يتناوبون على حمله. تدخل الصلوات والأناشيد بشكل متوازن محتفظة دائماً بالحيوية الدينية.

لا مجال للمقارنة مع الإختلاف المفرط ومع الصلوات الاستعراضية لصليب اليونانيين الأرثوذكسيين. لقد شاهدنا من على سطح البطريركية مشاهد مذهلة من التمجيد الديني. نساء يونانيات ترتمين على الصليب بالصراخ والدموع، تحاول الشرطة دون جدوى إيقافهن، ورهبان أقل نزقاً يطردونهن بصفعات قوية ليعدن إلى صفوف أبناء ديانتهن.

في اليوم التالي، سبت النور (السبت المقدس) يجري عيد النار(*) لدى الروم الشرقيين غير العادي، ودون شك، إنه أغرب احتفال بين كل احتفالات الأسبوع المقدس. ومقابل دقة الطقوس اللاتينية؛ هناك الطقس السحري تقريباً للكنائس الشرقية: عاصفة من البكاء والصراخ، إيمان مفرط يثير قرف

(*) راجع الملحق: عيد النار.

الغربي غير المعتاد على هذا النوع من الإهراق. لنحاول، كما فعلنا عند الهاسيديم أن نذهب أبعد من الصور الذهنية وأن نعيش للحظة هذه الطقوس بقلبها وأعينها وذهنيتها.

عيد النار أو عيد الأضواء يجري حسب طقس محدد منذ القرون الوسطى، ويستمر خمس ساعات تقريباً.

نصعد في الصباح الباكر إلى القبر المقدس بقيادة راهب أرمني قرر وضعنا في أفضل الأماكن لكي نستطيع أن نصوِّر الجمهور الغفير. يقوم الراهب بما هو مهم، يدفع الناس يميناً ويساراً، ويقرر جعلنا بمساعدة راهبين أرثوذكسيين وسط بحر من الظهور. وصلنا إلى درج غير مرئي يقودنا إلى مكان نستطيع أن نرى منه داخل الكاتدرائية بكامله. هناك أكثر من خمسين صبياً يلبسون الجبَّة: إنهم التلامذة الداخليون في الإكليريكية الأرمنية الذين يحيطون بعرش فارغ، هو المقعد الذي سيجلس عليه بعد قليل البطريرك الأرمني. تسللنا بهدوء إلى جانبهم وبدأنا نراقب بدورنا ماذا يجري أمامنا.

في جو من الضجيج، يتسارع إلى قبر المسيح، فلاحون من قبرص باللباس الأسود، وسياح مزركشون، ورهبان بأثواب قاتمة، ونساء عربيات بالحجاب الأبيض، وأخريات أنيقات بالقبعات المزينة بالزهور، يدفعهم الذين يتبعونهم كما يدفعهم رهبان أرمن يُعرفون من قبعاتهم العالية يوزعون

بالتساوي الشتائم القاسية لكي يضغطوا، بشكل أسرع وأقوى، على هؤلاء التعساء المجمعين كالسردين. وبعد ساعتين من هذه الوضعية، ولم أتمكن من أن أتصور أنه يمكن إدخال إبرة واحدة بين هؤلاء الحجاج، صدرت ضجة صاخبة من مدخل القبر المقدس. لم نتبين مباشرة مصدر هذه الضجة، لكن موجات وتحركات هيجت غابة الرؤوس حيث شاهدنا زياحاً هاماً من الأشخاص لابسي القلنسوات، وثوب القداس المرصَّع بالذهب، محاطين برايات الحرب والأعلام. أصبحت الضجة لا تحتمل: ولولات النساء العربيات تُجيب صنوج الأرمن، ونواقيس الإبيسانيين وأصوات الكهنة اليونان الجهورة. تغطت العواميد بالعناقيد البشرية. وسقط بعض الأولاد بالغيبوبة؛ من المستحيل إخراجهم من المكان. عام 1834، مات مئة شخص اختناقاً وتحت الأرجل وهم يحاولون بلوغ النار المقدسة.

لكن، ماذا يجري بالفعل؟ ماذا ينتظر هؤلاء المسيحيون؟

أعجوبة! لا أكثر ولا أقل أعجوبة تتكرر كل سنة منذ القرون الوسطى.

مساء السبت، يحبسون راهباً أرمنياً وآخر أرثوذكسياً، في هذا المكان الصغير البائس الذي هو قبر المسيح، في وسط «القبر المقدس»، يقضيان كل الليل يصليان ويتضرعان إلى

الله كي يضيء الشمعات الموضوعة داخل القبر. ينتظران وصول الناس مجمعة ومضغوطة، وتنتظر الجماهير مجيء الملاك يحمل النار المقدسة.

في الماضي، كانت تسبق ظهور هذا الملاك مشاهد وثنية هستيرية، لم تخلُ دائماً من المجون الجنسي، أمام استهجان الحجاج الأوروبيين!

تحول المجون اليوم إلى ضجة جهنمية تترافق مع الزياح. يدور الزياح ويدور أكثر من ساعة حول القبر حتى يطل من ثقب حائط القبر أحد الرهبان المحبوسين، ويعطي النار المقدسة إلى راهب آخر، يحمل مشعلاً كبيراً.

عندما يشتعل المشعل، يجتاح الجدران المكرمة هتاف صاخب، ترتفع آلاف الشموع فوق الرؤوس، وبسرعة لا تصدق، تنتشر النار من ذراع إلى ذراع ومن شمعة إلى شمعة، حتى تصل إلى الباحة أمام المبنى. عناقيد من النور تجتاح الأعمدة، ويحمل راهب مسرع النار ويقدمها إلى البطريرك الأرمني، يقف هذا الأخير، ويتعالى أكثر، صراخ كل الذين مع الأرمن، لأن راهبهم كان أسرع من راهب الأرثوذكس الذي كما يبدو، قد تأخر في الطريق لإعطاء النار إلى بطريركه. سباق من العوائق الرياضية، في القرن العشرين، هكذا، على السر القديم! تبكي النساء من الفرح، ويتعانق الرجال بحرارة، بينما ترتفع من كل زاوية أناشيد أعمال

الرحمة؛ مرة أخرى، استجاب الرب لدعوات شعبه، أعطاه النور والأمل لسنة جديدة.

هل أن صورة الأخوّة الركيكة التي تحققت خلال هذا الاحتفال الوثني، أكثر مما هو ديني، هي التي أعادت إلى ذاكرتي صرخة قزحيا هذه:

«سأعيد شعبك من المشرق سأجمعه من الغرب سأقول للشمال: أعطِ! وللجنوب: لا تحتفظ به! أجلب أبنائي من البلدان البعيدة، من أقاصي الأرض». (قزحيا: 5 ـ 6).

ملحق

الفصل الثالث

الإسماعيليون

ملّة تأسست في القرن الثامن في قلب التشيُّع تؤمن بإسماعيل، الإمام السابع، غير المعترف بموته. وسيظهر هذا الأخير، في يوم من الأيام، كالمهدي، أو المسيح، ويقيم العدالة مقتصاً من مضطهدي أتباع عليّ. طرد ولدا اسماعيل من مكة؛ لجأ أحدهما إلى بلاد الفرس حيث تكاثر أتباعه في أفغانستان، وباكستان الحالية، وحتى في آسيا الوسطى؛ والآخر في سوريا حيث ملّة الحشاشين قدَّمت له أتباعاً مخلصين. الإسماعيلية درجات في تراتبية الملل المنقسمة على بعض النقاط في العقيدة أو السياسة.

في الوقت الحاضر، ينتشر الإسماعيليون، بشكل واسع،

في الشرق وعلى طول الشاطىء الشرقي الإفريقي. رئيسهم الروحي الآغا خان؛ ويعتبر من سلالة النبي.

الفصل الخامس

أولى ضحايا الحرب في بيروت

في 13 نيسان/أبريل 1975، مرَّ باص يقلّ فلسطينيين قادمين من مهرجان في شرقي بيروت إلى غربها، بالقرب من أحد مراكز الكتائب اللبنانية. جرى إطلاق نار وقتل جميع من كان في الباص. تلا ذلك معارك سقط فيها عشرات القتلى فكانت بداية الحرب الأهلية في لبنان.

بيتاغور:

فيلسوف وعالم رياضيات يوناني، في القرن السادس قبل المسيح، لم تكن حياته معروفة ولا أعماله. ولد في ساموس وعاش في إيطاليا وبابل، أسس ملَّة البيتاغوريين، أنصار التقمص، الذين علَّموا الأخلاق المتزهدة ذات الوحي البراكي.

المانوية:

ديانة أسسها ماني في القرن الثالث، مشكّلة توفيقية، بين

المزدكية والمسيحية والبوذية، ولكنها تشكل جزءاً من التيارات الغنوصيَّة العديدة والمتنوعة في القرون الأولى للتأريخ المسيحي.

تستند قبل أي شيء إلى الثنوية، والمانوية صراع بين الخير والشر، تقيم نشكونية معقدة مع خلق الإنسان البدائي عبر خالق سيء: الأرواح البشرية هي أجزاء من الضوء مسجونة في المادة الجسدية (اللحمية) المعبرة عن الشر الأهلي ويتوجب عليها التخلص منه. وحدها الغنوصية «المعرفة الواقعية» بوسعها أن تعطي الإشراق. وطريق التحرر التي يحصل عليها المتزهد هي ممارسة الفضائل التي علّمها ابراهيم، وبوذا، ويسوع، وخاصة ماني آخر روح قدس. يؤدي هذا الإدراك إلى الاعتقاد بجبرية المختارين وبأخلاقية صارمة (نباتية، صوم، تقشف).

وللكنيسة المانوية مختارون أحياء، ومستمعون عاديون: لها كهنة ومطارنة وحكماء؛ وحبر أعظم يقيم مبدئياً في بابل. وبالرغم من الاضطهادات المزدكية والمسيحية والإسلامية، انتشرت المانوية حتى بلاد الصين وإيطاليا وأفريقيا الشمالية (كان القديس أغسطينوس مانوياً في بادىء الأمر). استمرت حتى القرن الرابع عشر.

مسيحيو القديس يوحنا المعمدان

ديانة من النوع الغنوصي؛ وفقاً لعلم الاشتقاق الآرامي، كانت بالغة الأهمية، فيما مضى، في الشرق الأدنى، وقد تقلَّصت جداً في الوقت الحاضر في العراق وفي إيران.

تعبِّر كتب عديدة عن معتقداتهم، منها ثلاثة أساسية هي: الكنز والعنصر الخامس، ويتضمنان الأساطير النشكتية المعقدة، والتسابيح، والشعائر المسيحية؛ وكتاب يوحنا، وهو حديث، ذو طابع شعبي، يروي حياة القديس يوحنا المعمدان.

ومن خلال رمزية ثنائية بصورة خاصة، يتناقض جوهر الشر مع جوهر الخير. ويتوجب على روح المؤمن أن تتجه نحو هذا الكائن الضوئي، لتجد الخلاص من خلال ممارسة الأسرار التي يشكل سر المعمودية أهمها: تتم المعمودية بالتغطيس بالماء الجارية. وهذه المعمودية، المخصصة لتحقيق ارتقاء الروح، هي تطهير يمكن أن يعطى للأموات وللمحتضرين. تُمارس هذه العبادة في جميعات أخوية، ولا تقبل بالأجانب، تجمع بينها أعياد ذات طابع عائلي، تكتفي بحياة بسيطة منظمة. ومفاهيم الطاهر وغير الطاهر هي أهم ما لديهم، ومن هنا تعلقهم باللون الأبيض. وتظهر هذه الديانة كتوفيقية لديانات الرافدين وإيران، والعناصر اليهودية والمسيحية. وقد اختلطت مع بعض الملل الغنوصية.

القديس توما

القديس توما من تلامذة المسيح، وقد رفض الإيمان بالقيامة، إلى أن وضع إصبعه في جرح المسيح بالذات. مع ذلك يبقى القديس توما واحداً من ألغاز المسيحية البدائية. ينسبون اليه إنجيلاً هو الإنجيل الخامس الذي أخفته روما وتمَّ اكتشافه منذ بضعة سنوات في مصر. ومن المدهش أننا نجد في هذا المذهب أفكاراً فلسفية، ولاهوتية من وحي هندوسي وبوذي. وهذا أقل دهشة عندما نعرف أن القديس توما انتقل إلى الهند حيث استشهد هناك. وإذا كان النساطرة قد تبنوا، كما يزعمون، معتقدات هذا الرسول، فهي تنعكس بدون شك في إنجيله. من هنا نستخلص أن توما الشكوكي؛ بقي طوال حياته في الشك بالنسبة لبعض المبادىء الأساسية في الديانة المسيحية، وبشكل خاص، تلك التي تتعلق بالعذراء مريم. وهذا مجال بحث هام لم يهتم به المعنيون، حسب معرفتي.

الزرادشتية

الزرادشتية، وتسمى أيضاً المزدكية، دخلت إلى بلاد الفرس حوالى عام 660 ق. م.، بشَّر بها زرادشت. يقول بأنه تلقى الوحي من الإله الكبير أهورا مازدا. بالنسبة للزرادشتيين ذوي المعتقدات الدينية الثنوية العميقة، جاءت من

ضفاف أندوس، زرفان ـ أكارانا، الزمن الأبدي، الذي أوجد كل شيء، وخلق مبدأين: أهورا ـ مازدا إلّه الخير وأهريمان إلّه الشر. وهما يتخاصمان باستمرار حتى انتصار الخير النهائي. أن خلق العالم، وهو ثمرة أهورا ـ مازدا، قد دنسه أهريمان. تكمن العناصر الجيدة والسيئة في الإنسان بالذات. يجب على الإنسان أن يناضل في سبيل أهورا ـ مازدا لكي ينتصر الخير على الشر، والضوء على الظلمات. بقيت هذه المعتقدات، رغم تشويهها، أساساً يبشر به المزدكيون.

العقيدة الزرادشتية، التي أسسها المجوس، موجودة في كتابين مقدسين هما: (أفستا) الوصية، و (زند أفستا) التعليقات على الوصية، وقد انبثّقت من مبادىء طقسية هي الاحتفال بمراحل الخلق الست، وبعبادة النار. العناصر الطبيعية، الأرض، الماء والنار، لا يمكن أن تُدنَّس؛ كما أن الجثث توضع على قمة «أبراج الصمت» لكي تلتهمها الجوارح. إذا كان الجسم شريراً فالنفس خالدة. وتجري محاكمتها حسب فضائلها أمام محكمة صارمة توزع العقوبات والمكافآت: هناك جحيم العذاب من جهة، والضوء الأبدي من جهة ثانية.

بقيت الزرادشتية ديانة بلاد الفرس حتى الفتح الإسلامي. هرب الزرادشتيون، خوفاً من الاضطهادات الإسلامية، إلى

الهند حاملين معهم «النار المقدسة» التي ما زالوا يمجدونها على مذابح النار. وبعض أتباعهم في منطقة بومبي يشكل طائفة المجوس. بقي بعضهم في بلاد الفرس، في مناطق يزد و كيرمان. وفي عام 1822 حصلوا من نصر الدين على فرمان يقضي بجعلهم على قدم المساواة مع جماعة الشاه.

الناطرة في الهند

عاشت هذه الطوائف، حتى أيامنا هذه، في بلاد مالابار، بعد أن اتحدت مع اللاتينية من قبل البرتغاليين، وهي تابعة جزئياً لروما بواسطة المبشرين اللاتينيين. إن كانوا من جزيرة سوكوترا، أو سيلان، جميعهم يُدْعون، في هذه الأوقات، «مسيحيي القديس توما». إليكم ما قاله ماركو بولو عن مسيحيي جزيرة سوكوترا:

«واعلموا أن سكان هذه الجزيرة هم من المسيحيين المعمَّدين، ولديهم أسقف... هذا الأسقف لا علاقة له بروما: لكنه يقول لنا إنه تابع لأسقف في بغداد. وهذا الأخير يصدر إليه الأوامر. ويمتد نفوذه إلى مناطق كثيرة في العالم مثل الحبر الأعظم في روما. وكل رهبانه وأساقفته لا يطيعون كنيسة روما بل يخضعون لأسقف بغداد الذي يعتبرونه مثل البابا».

الناطرة في الصين

في أوائل عام 1925، اكتُشف صدفة في ضواحي سينغافورة صليب عليه كتابة صينية طويلة، تكملها بعض الألفاظ، ولائحة طويلة من الأسماء باللغة السريانية القديمة، وراح المبشرون اليسوعيون في شن ـ سي يتفحصونه شخصياً، بعد أن أعلمهم تلامذتهم عن الطابع المسيحي لهذا الصليب (النصب). كان ذلك بالنسبة للمؤرخين حدثاً بالغ الأهمية، ألا وهو الكشف عن ديانة مسيحية في الصين في القرنين السابع والثامن.

إليكم بداية النص الطويل في بضعة كلمات وهي اعتراف حقيقي بإيمان نطوري في بلاد بعيدة:

«مدح محفور على نصب تخليداً لنشر الدين الشهير في إمبراطورية الأواسط مع مقدمة وضعها كينغ تسينغ، كاهن دير تاتسين (باللغة السريانية) آدم، كاهن، ونائب أسقف فارسي في الصين».

مع عرض عقائدي مسهب، ولمحة تاريخية عن المسيحية في الصين من عام 635 حتى عام 781. مدح لـ«يي سو»، مدح شعري للأباطرة المذكورين في القسم التاريخي، وأخيراً تشييد الصليب ـ النصب.

وكان تحليل صليب سينغافورة مدار بحوث كاملة تماماً، يستحيل عليّ وضعها في هذا الكتاب. عمل هام للمبشر

الياباني ب. ي. سايكي (نصب نطوري في الصين، لندن، 1916). يستنتج أن الكاهن الفارسي آدم، كان قد تكيَّف جيداً مع الفكر الصيني. هناك تعابير عديدة بوذية وتاويتية مكتوبة على الصليب، وعليه كتابة صينية أيضاً. مما يبرهن أن الرهبان الناطرة الذين عاشوا في إمبراطورية الأواسط حيث ازدهرت البوذية والتاويتية، قد توغلوا عميقاً في خط الاندماج والتوفيقية، وبدون أي شك، كانوا محاطين برهبان من أهل البلاد. ويُلاحظ أن المبادىء التي تتضمنها الكتابة هي محض نطورية: غير مذكورة ألوهية ابن العذراء، لا وجود لمبدأ خلاص البشر، وما من كلمة مخصصة لآلام المسيح.

ماذا حلَّ بهذه البيئة المسيحية في القرن الثامن؟ يعتقد م. سايكي أن الكثير من المسيحيين انتقلوا إلى الإسلام أو إلى المجتمع السري لتشين ـ تان ـ شياو، أو «ديانة الاعتقاد بالحياة الثانية». مهما يكن من أمر، فمن المؤكد أن المسيحية كانت منتشرة بشكل واسع على الأرض الصينية. وإذا كنا لا نجد أثراً لها، فلأن في الصين ذات الكثافة السكانية، أبنية وآثار اختفت بسرعة عندما لم تعد مفيدة، وكذلك لأن الأبحاث الأركيولوجية لم تتطور كما يجب. ألا يُفقد الأمل؟ والبرهان هو هذا الصليب، مع بعض الكلمات باللغة السريانية، الذي وجد عام 1920 على مسافة قريبة من بكين.

البوليسيون

من المنشقين الذين تبنوا الثنوية المانوية. اتخذوا إسمهم بدون شك من مؤسس يدعى بولس، أو بسبب ميلهم الخاص إلى رسائل القديس بولس.

يقولون بالعودة إلى البساطة الإنجيلية البدائية. يرفضون الأسرار والرهبنة، ولا يعترفون بالطبيعة البشرية للمسيح؛ لأن هذا الأخير لا يجوز أن يُسجن في جسد مادي، لأن المادة سيئة جداً.

جرى اضطهاد البوليسيين الذين شكلوا طائفة هامة في سوريا. وفي القرن الثامن، جرى إبعادهم إلى بلغاريا؛ حيث مارسوا نفوذاً على البوغوميليين. إعتنق بعضهم الإسلام، والبعض الآخر اعتنق الكثلكة، لكن الملَّة استمرت في تراقيا حتى القرن الثالث عشر.

البوغوميليون

(كلمة سلافية تعني: المحبوب من الله). منشقون مسيحيون بلغار، جاءت عقائدهم الثنائية من الشرق عن طريق مجموعة من الأرمن.

تطورت هذه الملَّة في بلاد البلقان؛ من القرن العاشر حتى القرن الثالث عشر، واستمرت بالرغم من الاضطهادات. أول

شهدائهم هو بازيل، طبيب بيزنطي أحرق في عام 1118. متحدرون روحياً من البوليسيين، رفض البوغوميليون الأسرار المقدسة، وفسَّروا التوراة بشكل رمزي مشككين بأكثرية المبادىء.

أتباع فالدو

أعضاء ملَّة مسيحية تأسست في أواخر القرن الثاني عشر في فرنسا. مؤسسها «بيار فالدو». لا يؤمنون إلا بالتوراة. يرفضون الأسرار وعبادة القديسين. أقاموا رهبنتهم الخاصة بهم.

هذه الملَّة التي تتشابه في بعض نقاطها مع الكاتار (الأنقياء) فصل المؤمنين إلى فقراء (أو معلمين أو رسل). تعيش بشكل متقشف وحياة أصدقاء (تلامذة عاديون بسطاء). جرت ملاحقتها بشكل دموي في فرنسا وإيطاليا؛ فلجأت إلى الأودية العالية في إسبانيا بصورة خاصة، حيث اختفت. تفرقت بأشكال مختلفة في بروفانس وسويسرا وألمانيا وإنجلترا. قاسى بعض أعضائها اضطهادات حادة، خاصة في القرن السابع عشر. وأصبحت أغلبيتهم من البروتستانت. ولا تزال بعض كنائسهم الخاصة موجودة، وتشكل طوائف تزهدية وتقليدية.

الأنقياء

(باللغة اليونانية كاتاروس: النقي) مؤمنون من ديانة مانوية الطراز، ألهبوا، في القرون الوسطى، مسيحية الغرب.

هذه الملّة هي حركة أكثر مما هي انشقاق، لأنها أنظمة شرقية عديدة مثل المانوية والغنوصية والانشقاقات البوليسية.

في أواخر القرن العاشر، في قصر «مونت ويمر» وفي «ريمس»، اكتشفوا لأول مرة اجتماعات بدعية، وبدأت المحاكمة الأولى في أورليانز. واجتاحت هذه البدعة إسبانيا وإيطاليا وألمانيا وإنجلترا، لكنها في جنوب فرنسا (لانغدوك) لاقت أرضاً خصبة. كيف أن هذه العقيدة السرية والفاترة أعجبت هذا الشعب المرح الجنوبي؟ ولا يمكن تفسير تطور هذه البدعة في الميدي ـ جنوب فرنسا إلا عن طريق الرغبة في الحرية الشخصية لهذا البلد حيث يتفتح الحب المهذب. وأصبحت تولوز عاصمتها بدل ألبي. وهذا المبدأ الصارم، لم يكن مقبولاً من الجميع، لكن أغلبية السكان هناك كانت منفتحة على كل أشكال المعتقدات الابتداعية المنشقة. تختلف أحياناً عن جماعة الأنقياء ذاتها، لكن السلطات المسيحية لم تستطع تحملها. حاولت الكنيسة التبشير، وكان القديس برنار بالذات غير مقبول به. وبدأت تظهر الأحكام بالإعدام في أورليانز عام 1022 على بعض الهراقطة؛ ومع

ذلك، ففي هذه المقاطعات الجنوبية حظي الأنقياء بتعاطف كل الشعب، وبتسامح أسيادهم.

لكن بم كان يكمن هذا الدين النيو ـ مانوي؟ إنه يكمن في ثنوية مثبتة تتعارض مع قوتين عدوتين: من جهة، عالم الروح، والطهارة، الذي وطده يسوع، انبعاث بسيط لإلّه طيب لا يمكن إلا أن يكون جسداً منتصراً؛ ومن جهة أخرى، العالم المادي، المكروه الدنس، حيث الحياة هي اللعنة، كان خلق إلّه سيء. وقد سجل الإنجيل صراعاً بين روح الخير وروح الشر. كان لدى الإنسان إمكانية التخلص تدريجياً من عبودية المادة من خلال تطهيرات ينجزها عبر عدد كبير من إعادة التجسد المخلِّص (بالنسبة لبعض الأنقياء). كانت طريق الخلاص العادي مقترحة للمؤمنين البسطاء، بينما الكاملون الذين لا يسمون أنفسهم هكذا، بل «أنقياء»، أو «كاتار» يعيشون في تقشف أقصى، ويعتقدون بانتظار التحرر النهائي للروح. يمكن للمؤمنين العاديين، الأول، أن يصبحوا كاملين عن طريق تلقي السر الوحيد للديانة الكاتارية، وهو العزاء، نوع من معمودية للروح لا تُعطى بالماء بل بوضع يديّ أحد الكاملين على رأس طالب المعمودية. لكن هذا السر الأوحد لا يعطى إلا مرة واحدة. يؤدي أقل وقوع في الخطيئة إلى الهلاك الأبدي. لهذا السبب، كانت إحدى النتائج المأساوية هي الانتحار جوعاً.

ويشجع جميع الكاملين المحتضر أن يتجه إلى الأبدية السعيدة.

يشكل «المؤمنون» جمهور المخلصين؛ بوسعهم أن يتزوجوا، ويصوموا ثلاثة أيام في الأسبوع. لم يكن الجميع يتبع بدقة هذه المبادىء، لكن رقابة «الكاملين» تحثهم على القيام بذلك. يتقاسمون، بشكل من الأشكال القربان المقدس، الخبز المبارك من الكاملين، يدرسون الكتب المقدسة للعهد الجديد، لأن العهد القديم يُعتبر من أعمال الشيطان. تلك هي كل ممارسة طقسهم ببساطة مطلقة في هياكل عارية من كل شيء مما يتناقض مع فخامة وثروات الكنائس.

في عام 1209، وبعد اختلافات عنيفة مع الكونت ريمون السادس في تولوز، اغتيل القاصد الرسولي بيار دي كاستيلنو. اتُهم الكونت وتمَّ جلده علانية في سان ـ جيل ـ دي ـ غار. قاوم ابن شقيقته روجيه ترانكافيل وجذب عاصفة الغضب إليه. فجاء إلى تلك الأراضي المشمسة بارونات الشمال مرسلين من قبل الحبر الأعظم، وبروح صليبية، فزادوا من رغبة أعمال السلب والنهب. كانت حرب «الألبيجوا الرهيبة»، وبعد مجازر لا فائدة منها، أراد البابا وضع حد لها، لكن الصراعات استمرت حتى مركز مونتسيغور عام 1244 حيث كان القمع فظيعاً. وطوردت البدعة في كل مكان. اختفت

نهائياً في القرن التاسع عشر، تاركة جراحاً بليغة هيأت دخول البروتستانتية إلى لانغدوك. والقديس دومينيك الذي زار جنوب فرنسا برفقة راهب من «أوسما»، تأثر جداً بالمزايا المسيحية التي مارسها «الكاملون»، وعرف أنه يتوجب لفهمهم أن يتقدم منهم تحت مظاهر الفقر والطهارة؛ لهذا السبب أسس رهبنته «الأخوة المبشرين»، وهم من ذوي الثقافة اللاهوتية العميقة، يقيمون النذورات ويعيشون في الفقر.

اختفت الكاتارية (الأنقياء)، لكن، حتى اليوم، تحاول مجلات نيو ـ كاتارية البحث عن هذه الديانة، فتنظِّم رحلات حج إلى آثار مونت سيغور، ومعارض ومحاضرات. وأرادت بدع بروتستانتية أن تلتحق بها.

اتحاد الناطرة في روما

قامت محاولة اتحاد بمبادرة من البطريرك يهب الله الثالث، بتشجيع من المغول أنفسهم، لأنهم كانوا يسعون إلى تحالف مع الفرنجة وبصورة خاصة القديس لويس الذي وعده خان الفرس بأن يعسكر جيشه المغولي حول أسوار دمشق، بشرط أن تتم الحملة الصليبية الفرنجية في نفس المرحلة، على عكا. وتعهد خان الفرس بالاستيلاء على القدس مع المسيحيين وبأن يتلقى فيها المعمودية. وفي صيف عام 1287، وصل إلى الفاتيكان، بدهشة كبيرة من القاصدين

الرسوليين، راهب مغولي مكلَّف بمهمة من الخان الكبير ومن البطريرك النطوري. وهل أفضل من أن يوحي بالثقة مسيحيون من الجنس الذي يخشونه؟ يمكن أن نتصور الفضولية والشك، والهيجان الذين يثيرهم في الفاتيكان حضور سفير مغولي يرتدي ثوب الراهب. هل يسمحون له القيام بالقداس؟ بأية عقيدة سيبشر وما هي نواياه؟ وبعد عدة اختبارات، تبين أن الراهب المغولي كاثوليكي. أرسل البابا المبشرين الذين طلبهم منه يهب الله الثالث، ولكنه، لا يعرف شيئاً عن الذهنية الشرقية؛ لقي الرومان هناك حياة معادية من قبل الرهبنة النطورية. كان يكفي أن يسمي اللاتينيون مريم أم اللّه لكي يُطردوا من الكنائس ويجري تطهيرها وغسلها بماء الورد. وحده البطريرك يهب الله، المطيع لسياسة الخان الأكبر، والذي يعرف المغول جيداً، كان يرغب في الاتحاد. ولم تستطع روما أن تلتقط هذه اليد الممدودة من آسيا، كما أنها لم تستطع المجيء لمساعدة النطوريين؛ بعد قرنين عندما أصيبوا بالضعف والخراب والعزلة، أصبحوا جاهزين للقبول بالاتحاد.

الإسانيّون

أعضاء ملَّة يهودية فلسطينية متأخرة، غامضة الأصل، ربما كانت على علاقة مع الهاسيديم.

فيلون زفلافيوس وجوزف وبلين، تحدثا عنها. كان أعضاؤها يعيشون حياة تزهد متجمعين في طوائف ذات طابع شبه رهباني، يمارسون بصورة عامة التبتل، ويرتدون ثياباً بيضاء، يأكلون بشكل مشترك حيث يبارك الراهب الخبز والخمر، ويصلي عند الفجر باتجاه الشمس مصدر الضوء. يختلفون بـ«السبت»، ويدرسون التوراة، وكانت لديهم كتب مقدسة أو كتابات الأقدمين. أظهرت اكتشافات مخطوطات البحر الميت عام 1947 كتباً لعلاقة جديدة: كتاب دمشق وكتاب الانضباط، ويبدو أنهما يشيران إلى انشقاق الإسانيين إلى فرعين. بالنسبة للبعض، كان القديس يوحنا المعمدان والمسيح أيضاً من الإسّانيين، لكن، لا المسيح ولا الإنجيليون قد تحدثوا عن ذلك.

الفصل السادس

الانتداب:

أحيت نهاية الحرب العالمية الأولى آمالاً كبيرة لدى شعوب الشرق الأوسط. بعد تحررهم من نير السلطنة العثمانية التي انهارت، اعتقدوا أن ساعة الاستقلال قد دقت. ألم يعلن الرئيس الأميركي ويلسون، في عام 1918، في تصريح «النقاط الـ 14» حق الشعوب في استقلالها الذاتي.

والقادة العرب الذين نظموا، إبان الحرب، الانتفاضة ضد الباب العالي بالاتفاق مع الحكومة البريطانية، لم يكن لديهم شك، بأن الإنجليز سيحترمون وعدهم بالتحرير الكامل للمنطقة.

كانوا يجهلون، يومها، أن لندن لكي تتأكد من النصر، قد اتخذت على نفسها التزامات متناقضة بدون علم الكثيرين من المعنيين، إلى الصهاينة، وعد اللورد بلفور «وطناً قومياً يهودياً» في فلسطين. وفي نفس هذه المنطقة، وفقاً لتأكيدات وعد بها لورانس (لورانس العرب) الشريف حسين ملك الحجاز، ستكون جزءاً من مملكة عربية مستقلة. مع أن الاتفاقية السرية، سايكس ـ بيكو، التي عقدت في أيار/مايو عام 1916، قد توقعت بشكل آخر تجزئة السلطنة العثمانية. سيكون الشرق الأوسط مجزأ إلى مناطق نفوذ: بريطانيا العظمى تمتلك ولاية بغداد والبصرة، وكذلك المنطقة الغربية لبلاد الرافدين؛ فرنسا تمتلك ولاية الموصل والأراضي التي تضم اليوم سوريا ولبنان؛ وكانت فلسطين موضوعة تحت الإدارة الدولية؛ وتأخذ روسيا القيصرية شمال كردستان.

وعندما ألغت الثورة البلشفية النظام القديم وكشفت الاتفاقات السرية، تقاسمت فرنسا وبريطانيا العظمى بقايا السلطنة العثمانية. بدت المهمة عسيرة.

منذ ربيع عام 1919، بدأت الثورة تهدد بلاد الرافدين، حيث خضعت ولايات بغداد والبصرة والموصل للانتداب البريطاني. وفي تموز/يوليو عام 1920، قاتل السوريون الجيش الفرنسي الذي يقوده الجنرال غورو، الذي تمكن من الاستيلاء على دمشق، موقعاً الهزيمة بالأمير فيصل بن الحسين شريف مكة الذي اعترف به الإنجليز، وفي السنة نفسها، اندلعت أولى الفتن المعادية لليهود وللبريطانيين في فلسطين.

لتثبيت النظام أولاً، ولإقامة السلطة المستقرة، لجأت القوتان العظميان إلى تدابير متعددة، مناوبة أو رابطة العنف بالوفاق. في مصر، أبعدت السلطات الإنجليزية القادة الوطنيين، مع مفاوضات بدت بدون جدوى، ومنعت التظاهرات بالقوة، وخنقت الثورة دون أن تنجح في جمع الرأي العام الأصيل. وبقي هذا الأخير معادياً ومشككاً بإعلان استقلال مصر، في شباط/فبراير 1922؛ ووصلت بريطانيا العظمى إلى نتائج مماثلة في العراق حيث أقامت في عام 1921 الملكية، وعقدت في السنة التالية مع الملك فيصل (هو نفسه الذي هزم في دمشق قبل سنتين) معاهدة تحالف. وسلّم الإنجليز الأردن إلى أحد أشقاء الملك فيصل، الأمير عبدالله. ووقّعت معه معاهدة صداقة عام 1928. وفي فلسطين، الموضوعة تحت الانتداب البريطاني

عام 1922، واجهت لندن الوضع الأصعب؛ غير متوصلة للاتفاق بين وجهات نظر العرب واليهود.

لم تتوصل فرنسا، من جهتها، إلى إخماد الموجة القومية السورية. وبين أعوام 1920 و1922، جُزأت سوريا إلى خمس دول ـ هي دمشق وحلب واللاذقية وجبل الدروز والإسكندرون ـ يجمع بينها نظام اتحادي. أثارت هذه التجزئة تحركات تحولت إلى انتفاضة عام 1925. ولم يعد الهدوء إلا بعد سنتين عندما وافقت باريس على أن يختار السوريون بحرية حكومتهم. كرست انتخابات شباط/فبراير عام 1928 نصر الوطنيين. وضع هؤلاء مشروع دستور أثار استياء الدولة المنتدبة. نظَّم المفوض السامي الفرنسي، بعد أن حل الجمعية العمومية وفرض قانوناً أساسياً جديداً، استفتاءً عارضه الوطنيون. وبدأت المناوشات مجدداً عام 1932.

الفصل الثامن

تل كيفا وأحداث 1960

في عام 1960 تورط بعض مسيحيي هذه القرية في شمال ـ شرق الموصل، مع الشيوعيين، في مجزرة معادية للمحافظين وللناصريين، كان ضحاياها مسلمي الموصل.

في عام 1963، بعد سقوط عبد الكريم قاسم، حمَّل

المسلمون سكان تل كيفا مسؤولية المجازر، وأمام التهديد الذي استهدفهم، فضلوا الهجرة.

أورفية

أوديسه القديمة، مدينة شهيرة. ففيها، يقال، إنه وجد كفن السيد المسيح. في القرن الحادي عشر، أقام «بودوان دي بولونيا» فيها مملكة قوية. لكن الذكرى التي بقيت حاضرة والتي تجذب الكثير من المسيحيين والمسلمين، هي بحيرة ابراهيم حيث تسبح أسماك مقدسة. ويؤكد التقليد أن ابراهيم قد توقف في هذا المكان.

الفصل التاسع

التوحيدية

ملَّة مسيحية ظهرت في القرن السابع لإعادة المؤمنين بالطبيعة الواحدة إلى الأرثوذكسية المسيحية. اقترح أحد بطاركة القسطنطينية في القرن السابع نظاماً يعترف بالطبيعتين، ولكن بإرادة واحدة للمسيح. أدانت روما هذه البدعة عام 649، ثم في مجمع القسطنطينية عام 681.

الفصل الحادي عشر

احتفال درزي سري

إتهم عدد من المؤلفين، عن سوء نية ـ الدروز بطقوس العربدة الإباحية، في الوقت الذي يمتحن فيه المرشَّح لكي يصبح من العقال.

إليكم ما كتب، منذ بضعة سنوات، أحد الصحافيين في تعليق له مخصص عن لبنان: «المرشح للقب العاقل يشترك في وليمة باذخة، ثم يُحبس في غرفة حيث تنتظره إمرأة شابة وجميلة جداً. يقضي الليل معها؛ تكون خبيرة في فن الحب وتستخدم كل الإغراءات لإيقاظ رغبته الجنسية. إذا خرج منتصراً من تجارب الشهوة الحسية، كما نجح في الامتحانات السابقة الخاضعة للجوع والعطش، يصبح عاقلاً، وتُكشف له الأسرار».

بالنسبة لمن يعرف الدروز على حقيقتهم فمثل هذه الأعمال هي غير واقعية.

السيدة بلافاتسكي

تيو ـ صوفية روسية أسست مع الكولونيل أولكوت مجتمع التيو-صوفية (باللغة اليونانية: تيوس ـ الله، وصوفيا ـ

الحكمة). نظام ديني قائم على رغبة المعرفة الإلّهية: إشراق الإنسان الذي يتذكَّر السماوات، ويصبو إلى الارتقاء عن حدسه الخاص للألوهية التي تكشف له عن مذهب الباطنية والوصول إلى الأسرار؛ قريبة من الغنوصية؛ وتستخدم غالباً العلوم السرية. من بين التيو ـ صوفيين المعروفين، نذكر باراكيلس و جاكوب بوهم و سويدنبرغ وسان ـ مارتين. لكن التيو ـ صوفية التي أسستها «السيدة بلافاتسكي»، وعقيدتها «الحكمة الإلّهية» تعبِّر عن تفوق كل الديانات. تقيم، استناداً إلى العصور القديمة، سلسلة من إعادة التجسد للذين يتخلون عن أجسادهم الكوكبية ليعرّفوا الناس إلى الحكمة الكونية.

تزعم السيدة بلافاتسكي أنها التقت في عزلتها في الهيملايا برجال المهاتما «المحفل الأبيض الكبير» الذين هم كبار معلمي التيو ـ صوفية.

يعترف التيو-صوفيون ببعض معتقدات ديانات الهند، كالتقمص مثلاً والجبرية. يعلِّمون نظرية الأجساد الثلاثة للإنسان: جسد كوكبي لكي يحب ويحس، وجسد ذهني لكي يفكر، وجسد مادي لكي يظهر الأحاسيس. يقيمون وزناً كبيراً للعلوم الباطنية.

مركزهم الرئيسي هو الأديار بالقرب من قدراس، لكن لديهم بعض المراكز في الولايات المتحدة وفي أوروبا.

تشكل أحد الانشقاقات «المحفل الموحد ـ للتيو-صوفيين»، الذي يبحث في تطوير الأخوة الكونية.

الهرمسية

مذهب سري للمعرفة، أو غنوصية وثنية، ظهر في العصور الأولى للمسيحية في مصر حيث يونانيو المدرسة النيو ـ أفلاطونية يُشبِّهون إلّههم هرمس، الذي أصبح عطارد الرومان، بالإلّه حوت، إلّه المعرفة المصري. يعتبرون هرمس كباعث للحكمة الإلّهية التي يمكن عن طريقها أن يصل الناس إلى أعلى ذرى المعرفة. هذا الهرمس كان يسمى «هرمس تريسمجيست» أي (الأكبر ثلاث مرات). كان إلّه الوحي، ومكتشف الفنون والعلوم، ومؤلف عدد كبير من الكتب السرية الشبيهة بالسحر وعلم الفلك، وعلم الكيمياء. هذه المؤلفات، حيث تمتزج تأثيرات مصر والتوراة والأفلاطونية ـ الجديدة، لعبت دوراً كبيراً في الغنوصية المسيحية؛ جُمعت بعض أجزائها وتُرجمت إلى لغات عديدة، ولا تزال قاعدة العلم المسمى «الهرمسي»؛ وهذا الأخير هو مرادف للتعليم السري المطبق بصورة خاصة في الفلسفة وعلم الكيمياء. تعترف الهرمسية بإمكانية معرفة «الأنا» الحقيقية، وتوازنها العضوي، من هنا تطبيق هذا العلم في الطب فهو يتناول علم الكيمياء والطب. كان شعاره «المعرفة، الجرأة على الإرادة،

والسكوت». كان لمؤلفاته تأثير كبير على عدد من العقائد السرية. أصبحت الهرمسية في أيامنا مرادفاً للسرية.

الغنوصية

معرفة مطلقة تحتوي على كل شيء. تفسِّر هذه المعرفة بذاتها الألوهية والخلق، أي الكون والإنسان من خلال نظرية الانبثاقية.

إن المادة، بالنسبة لهم، هي سيئة جداً. وهي ليست من صنع الله، بل من خالق سيء، مما يستتبع ثنوية تؤدي من وجهة نظر مسيحية، إلى أشكال الهرطقة، وقد كانت في أساس المانوية، والملل التي نتجت عنها (الكاتارية، والبوغوميلية...).

هذا العلم مخصص، بصورة عامة، إلى بعض المطلعين من ديانات مختلفة؛ إنه سري باطني. عندما يُفهم عن طريق الحدس وليس العقل يؤدي إلى إشراق ملائم. وحدها هذه الغنوصية، هذه المعرفة، تستطيع أن تخلص الإنسان من السقوط في المادة ـ مبدأ الشر ـ لأن الشر كوني.

الغنوصية، نظام معقد، هي أكثر من عقيدة إنها موقف أخلاقي وديني يعبّر عنه من خلال أدب غزير وغريب، مثل الهرمسية التي يتقارب منها كثيراً. حركة توفيقية واسعة، اتخذت مظاهر متنوعة جداً وشكلت أكثر من 70 ملّة في

القرون الأولى للمسيحية؛ عدد كبير منها له ميول يونانية ونيو ـ أفلاطونية، ذو طابع يهودي. وعدد آخر تأثر بالهرمسية حيث الأسرار القديمة أدت إلى الغنوصية الإسلامية للإسماعيليين والدروز وبعض الصوفيين؛ والبعض الآخر كان من طراز مانوي. وبعض الملل المسماة بـ «الآسيوية» في القرن الثاني والقرن السادس لأعمال السحر.

تطورت الغنوصية المسيحية في ذلك الملتقى من الأفكار والفلسفات والديانات التي كانت موجودة في الإسكندرية. هناك نجد أكبر عدد من الملل التي أزعجت آباء الكنيسة بخلقها انشقاقات أكثر من معلمين غنوصيين، مثل سيمون الساحر، و ميناندر، و بازيليد، و كاربو كرات، و فلانتين، و ماسيون، و نار ديزان. وظهرت آداب كثيرة عن كتب الحكمة (أغلبية المؤلفات وضعت باللغة القبطية). وفي عام 1945 تم اكتشاف مكتبة لملَّة غنوصية في مصر العليا؛ أدت خدمة كبرى بالنسبة لمعرفة هذه الحركة في الفكر البشري الذي مارسته ديانات عديدة، بحثاً عن مذهب الباطنية.

عمر

عندما دخل الخليفة عُمر إلى القدس رفض دعوة البطريرك سوفرونيوس للقاء به في قبر المسيح. «إذا صليت في هذا المكان، قال، سيقوم كل مسلمي العالم بالحركة ذاتها، ولن

يكون هذا المكان المقدس بعدها خاصتكم». واكتفى بأن يضع بساط الصلاة على مدخل القبر المقدس.

ملّة الأفعى

(أوفيس تعني الأفعى باللغة اليونانية). أعضاء ملّة غنوصية في مصر في القرن الثاني. كرسوا طقساً خاصاً بأفعى سفر التكوين التي خدعت آدم وحواء. يعتبرون أنها نقلت إلى البشرية مبدأ الخير والشر و المعرفة (طالما بحث الغنوصيون في هذا الشأن). هذه الملّة التي لاقت أتباعاً كثيرين حتى القرن الرابع المشبعة بالفلسفة اليونانية والديانات السرية، يبدو أنها أحد أشكال الغنوصية القديمة جداً. تعرَّفنا اليها بصورة خاصة من خلال أوريجين والقديس إيريني.

الفصل الثاني عشر

الشامانيون (Chamans)

أنصار الشامانية، نظام ديني تأسس على مفهوم الأرواح سيدة الطبيعة؛ وعلى شخصية الكائنات المتفوقة القادرة على إقامة العلاقات بين البشر وعالم الأرواح: هؤلاء هم الشامانيون.

جرى وصف الشامانيين للمرة الأولى في القرن الثالث

عشر، من بعض النروجيين؛ لدى جماعة «لابون»، و «أفاكوم» الذي عاش في سيبيريا في القرن السابع عشر. عندما يثورون، لهم قدرات مذهلة، ذات وجهتي نظر، وبوسعهم أن يتنقّلوا في العالم الأسطوري. إن دورهم، مبدئياً، دور مبارك. يمكنهم تحييد الأرواح الشريرة وشفاء المرضى. لديهم نوابغهم الوصيون، ووفقاً للميتولوجيات المختلفة لشعوب الأورال، أو الشعوب الأميركية، يتفسَّر نوعاً ما أصلهم. يعيشون فيما وراء ـ الطبيعي الذي يفصلهم عن العالم المدنَّس. وصاحب رؤى العوالم السماوية، عليه أن يتلقى تعليماً خاصاً (تعليم المعلم)، ويتحمل التجارب، والصوم، والمحرمات التي تشكل طقوساً تختلف من شعب لآخر، ويكون مختاراً من بين «الأرواح القوية» عن طريق انتخاب ما فوق ـ الطبيعي أو بدعوة إلَهية، ومتقمصاً غالب الأحيان بشاماني قديم جداً.

الفصل الثالث عشر

المدافعون عن القلعة

من بين سكان ميا شياريم، يوجد فرع جذري يتعذر تبسيطه، لا يعترف بوجود الدولة اليهودية. إنهم أنصار مجموعة «المدافعين عن القلعة» ويتراوح عددهم ما بين 500

و600 شخص. ويجب الملاحظة أن هؤلاء المتطرفين لا ينتمون إلى مجموعة الهاسيديم، لكنهم من المقربين إلى الميتناغديم، وهم أكثر تشدداً من الأول الذين يتعارضون معهم متهمينهم بالهرطقة والهلوسة الروحية. «إن الشعب الصهيوني هو ملحد ومنتهك للمقدسات، يعلّم «المدافعون» إن إسرائيل الحقيقية ستعود مع المسيح، لا يمكن إلا أن تكون نهضة روحية للشعب اليهودي تقوده اليد الإلّهية».

وأعضاء «المدافعون» يبصقون عندما يجري الكلام أمامهم عن الأمة الحالية. وكتاباتهم التي تغطي جدران ميا شياريم، تشبّه الدولة العبرية بالنازية، صليب معقوف ونجمات داوود ممزوجة بشكل مبتذل ـ بينما في كل سنة، وفي وسط الشوارع، يحرق أنصارهم علم الدولة في يوم الاستقلال.

يعتبرون أنفسهم خاضعين للملك حسين الذي اليه يرسل حاخامهم، موشي هيرش، طلبات للإذن بالذهاب إلى حائط المبكى. وتُرسل طلبات أخرى إلى الأمم المتحدة، لكي تدرج الملّة في مشاريع الاستقلال الذاتي المخصصة للفلسطينيين في الضفة الغربية.

تورا (Thora)

(كلمة عبرية تعني: الوصية) إسم أطلقه اليهود على وصية موسى، وأسفار موسى الخمسة التي يتضمنها. إن سفر ـ تورا

يحتوي على كتب الأعداد، سفر التثنية. مكتوب بخط اليد بواسطة كتبة، وبعناية فائقة. يُحتفظ به في الكنيس ليقرأ يوم السبت.

القبلانية أو التلقي

إنها كلمة سحرية؛ ما من أحد يقرأها ويبقى غير مبال، مثلما يثير التآمر على فيدر (Phèdre)، وبعض ممارسة الأرواحية، والدخان السري لعقيدة كيفية.

يقول علم الاشتقاق إنها ولدت في الهند، ويقارنها آخرون بالطقس العائد إلى سيبيل (Cybele)؛ ويصنفها أحد القواميس من بين أنصار فيلون النيو ـ أفلاطوني، والمشَّائي ابن سينا! والواقع هو بسيط جداً. باللغة العبرية، تعني كلمة كابالا؛ التقليد. (التلقي).

وبالمعنى العام، فالتلقي هي الوصية الشفهية التي تلقاها موسى على جبل سيناء، في الوقت نفسه، مع الوصية المكتوبة التي هي تورا؛ إنها الرسالة الروحية القديمة التي نقلت إلى الإنسان دون وساطة نص، من الفم إلى الأذن. وحوالى القرن الخامس المسيحي، دوَّنها التلمود وثبَّتها. وانبثق هذا التقليد المعاش والمنقول والمتلقى شخصياً، من الدراسة التلمودية وبعلاقة وثيقة معها. إنها حركة المعرفة

والشفقة، التي أعطيت في القرن الثاني عشر في وسط فرنسا، إسم كابال، وهي مجموعة عقائد سرية عن الله والكون. كان عصرها الذهبي بعد قرن في إسبانيا، مع موسى دي ليون، ومن هناك، وصلت مع الهاربين الإسبان إلى صفد في الجليل الأعلى في القرن السادس عشر.

زوهار أو سفر زوهار (Zohar)

«كتاب الروائع»، وهو تعليق مجازي لأسفار موسى الخمسة، يشكل أهم كتاب في الأدب القبلاني السري. كتب باللغتين الآرامية والعبرية؛ يبدو أنه من أعمال موسى دي ليون، صوفي يهودي إسباني، استلهم، في القرن الثالث عشر، بعض نصوص شيمون بار يوشاعي (القرن الثاني قبل المسيح) الذي تلقى إيحاءات من النبي إيليا.

يجمع عدداً من التقاليد السرية، باحثاً عن اكتشاف معنى خفي للنصوص التوراتية. يشكل زوهار موسوعة حقيقية تهدف إلى كونية ثنوية حيث الكون موزَّع بين إمبراطوريات الضوء، وإمبراطوريات الظلمات. كان لزوهار تأثير كبير جداً في اليهودية بالرغم من معارضة الحاخاميين.

التلمود

(تلمود تورا: درس الوصية). إسم أعطي إلى مجموعة

منتخبات دامت كتابتها أكثر من 700 عام. إنها تكيُّف مع وصية موسى في الأزمنة الجديدة. وتتضمن:

\الميشنا (تعليم شفوي) كتبت باللغة العبرية، ودوَّنها التنَّاييم في عام 225 حتى عام 220 ق.م.، تعالج مواضيع متنوعة كالزراعة، والأعياد، والقانون، والطقوس، والمهن...

«الغيمارا»، تعليق مسهب عن الميشنا، كُتبت باللغة الآرامية وانتحلها الأموريون من عام 500 حتى عام 200 ق.م. توجد ترجمتان للغيمارا: الأولى عن زالقدس، والثانية عن بابل. وتنقسم الغيمارا إلى ها\لاشاه التي تعالج القانون والعادات والأخلاق، والى هاغاداه التي تشكل القسم الكتابي من التلمود.

ويوجد في الأدب التلمودي أيضاً الميدراش من الكلمة العبرية دراش وتعني تفحص. بحث عن معنى الكتابات المقدسة بوسائل تأويلية متخذة من كتب مختلفة، وباللجوء إلى الرمز.

جرى تعليمه لمدة طويلة شفوياً وكتابياً، وقد تثبَّت التلمود في القرن الثاني عشر بواسطة مايمونيد (Maimonide).

عيد الأضواء (Hannukkah)

يحتفل بذكرى الانتصار الذي أحرزه المكَّابيون على جيوش أنطيوكوس، وإقامة وإعادة تكامل الهيكل المدنَّس. لأن

قارورة زيت واحدة بقيت في الهيكل تشتعل مدة ثمانية أيام بشكل عجائبي. الهنّوكا هي، قبل كل شيء، عيد الأضواء. في البيوت اليهودية، تُضاء شمعدانات ذات ثمانية فروع: شمعة في المساء الأول، اثنتان في المساء الثاني، وهكذا، حتى اليوم الثامن. والتقليد هو وضع الشمعدان، بعد مباركة الأضواء، على حافة النافذة لكي تُرى الشعلة من الخارج.

الغمر (Lag Baomer)

هو مرحلة اليوم الـ 49، التي تمتد من الفصح إلى شافووت (Shavouth)؛ وهكذا تسمى بسبب تقديم الأغمار (غمر) الذي يتم في يوم شافووت. إنها مرحلة حزن لأنها تذكّر بآخر انتفاضة يهودية كبيرة قام بها باركوشبا، وقمعها أدريان في عام 135.

اليوم الـ 23 من الغمر هو يوم احتفالات، وابتهاجات شعبية، يرتبط بذكرى بار يوشاعي، وكذلك بنهاية وباء الطاعون الذي قتل تلامذة أكيفا. وبشكل استثنائي يمكن الاحتفال بمراسم الزواج في هذا اليوم.

الفصل الرابع عشر

يربعام

كان موت سليمان، حوالى عام 930، إشارة إلى تفكك مباشر لدولة لم تعمر سوى 75 سنة. ابن عم سليمان، يَرُبعام صعد إلى سيشام، ليجمع القبائل، لكنه أجبر على الخضوع لمن هو أقوى منه: يربعام العائد من المنفى والذي أعلن ملكاً (سفر الملوك 12 ـ 20). كان على يَرُبعام أن يعود إلى القدس لا يحمل معه سوى دعم قبيلتين هما: يهوذا وبنيامين. وانضمت القبائل العشر الأخرى إلى يربعام.

سيمون الساحر

مشار اليه في أعمال الرسل، عاش في السامرة، وكان معروفاً بأعمال السحر. تلقى المعمودية، لكنه اقترح، فيما بعد، على القديس بطرس أن يبيعه سلطاته ومواهب الروح القدس، (من هنا كلمة السيمونية تعطى لنقل الفوائد الروحية). تروي حكايات خرافية عديدة وكتابات مزيفة مآثر سيمون الساحر الذي وصل إلى روما ليتأملها. جعل منه البعض مؤسس بدعة غنوصية هي «السيمونية».

الفصل الخامس عشر

جلجامش (Gilgamesh)

البطل الكبير للملحمة القديمة المعروفة، ملحمة الآشوريين ـ البابليين التي تعود إلى حوالى عام 2500 ق.م.

قاتل ملك أوروك (Ourouk)، ضد القبائل المجاورة، وفي مدينته، ضد التابعين لعشتار، إلّهة اللذة مع صديقه المخلص أنكيدو، وكان بشكل نصف بشري. قام برحلة طويلة إلى الغرب لكي يطلب من بطل الطوفان نابيستيم، نوح البابلي، ويتعلم منه سر الخلود.

كتب قصة طويلة عن الطوفان. مات أنكيدو في هذه الحملة، ونزل جلجامش إلى الجحيم وهو مكان مظلم توجد فيه الأموات. فكر البطل بأن يصبح خالداً، لكن أفعى أغرته، وتوجب على جلجامش أن يتلقى المصير المشترك للبشرية. ظهرت هذه القصيدة لجلجامش لدى اكتشاف مكتبة آشور بانيبال. رويت الأسطورة في الشرق كله، وبلدان البحر المتوسط الشرقية. وقد ظهر البطل غالباً في نقوش القصور الآشورية، وبصورة خاصة في خرسباد.

الأتونية

في مصر القديمة، تعني كلمة أتون (Aton)، الشكل المرئي لقرص الشمس المحترم كسيد للضوء، وموزع لكل الخيرات: الإلّه الكبير، أمون ـ ري، الذي ترمز اليه مجموعة من التماثيل، كانت تخدمه «رهبنة هليوبوليس» القوية. وحوالى عام 1450 ق. م.، حدد بعض الكهنة ظهور الجوهر الإلّهي بخلقهم إلّه أتون الذي تكرس له الفرعون أمنحوطب الرابع؛ واتخذ هذا الأخير منذ ذلك الوقت، إسم أخناتون، وأنشأ عبادة هذا الإلّه الأوحد، وخصص له عرشه من عام 1375 حتى عام 1358 ق.م. كانت تلك ثورة حقيقية، قبلت بها رهبنة أمون بصعوبة. وللمرة الأولى في مصر، تأكدت الوحدانية، وعبّرت عن ذاتها بحرّية في العبادة، والأناشيد، والقصائد الملحمية، وتزيين المعابد في العاصمة الجديدة إيخوت ـ أثون (وهي اليوم تل العمارنة)؛ يتمثل القرص الشمسي مرسلاً أشعته الساطعة على الكون. لم يبق من ذلك إلا بعض اللوحات الثمينة، والقبور، وبقايا المعابد الرائعة، التي شيدها الفرعون الصوفي الذي لم يعرف كيف يرى أعداءه، لا في الداخل ولا في الخارج؛ وديانته النقية جداً والبسيطة جداً التي ترفض الأصنام والآلهة المحليين، كانت أبعد من أن يستوعبها الشعب. لذلك لم تستمر. وتهدّمت كل ذكرى لهذه البدعة.

عيد النار

يروي «غوتييه فينيزوف»، مؤلف رحلة الملك ريتشارد فيما يتعلق بالنار المقدسة قصة طريفة جداً هي:

«عشية عيد الفصح، وصل صلاح الدين برفقة أتباعه، إلى قبر السيد المسيح، لكي يشهد هبوط النار من السماء، التي، في هذا اليوم كالعادة في كل السنين، تشعل مصباح المعبد. لدى وصوله، نزلت النار السماوية فجأة، وانفعل جميع الحاضرين؛ عبَّر المسيحيون عن فرحهم بالترتيل لعظمة الله؛ وعلى العكس، قال المسلمون المغاربة إن النار التي نزلت هي عملية وسائل خادعة. أراد صلاح الدين أن يلاحظ عملية الغش، فأطفأ القنديل الذي أشعلته النار من السماء، لكن القنديل عاد فأضاء من جديد؛ أطفأه مرة ثانية وثالثة، وفي كل مرة يعود فيشتعل. عندئذ اختلط الأمر على السلطان فصاح بشكل نبوئي: نعم، عما قريب سأموت أو سأفقد القدس!».

وممّا هو أغرب من ذلك هو أن صلاح الدين مات في أيام الصوم اللاحق.

في القرن التاسع عشر، نجح أحد الباشاوات السوريين الأقل تعلقاً بالخرافات من صلاح الدين والأشدّ دهاءً منه، في الوصول، في الوقت المناسب، إلى مكان سر النار المقدسة؛ ويستحق هذا الحدث أن نذكّر به.

«منذ عشر سنوات أو خمس عشرة سنة، جاء في إحدى رسائل الشرق، أن باشا دمشق كان في القدس خلال الأسبوع المقدس لدى الأرثوذكس، وأراد، بفضولية، أن يرى بنفسه معجزة النار المقدسة. ويوم السبت المقدس، أراد الوزير أن يدخل مع البطريرك الأرثوذكسي إلى القبر المقدس. لم يستطع البطريرك أن يتهرب من هذه التجربة. راح يرتجف بكل أعضائه، ولاحظ الباشا بسهولة ارتباكه الشديد. وبدأت تراتيل كيرياليسون تدوي في الكنيسة؛ ويطلب الشعب صارخاً بقوة معجزة النار المقدسة. بعد ساعة من القلق القاتل، لم يستطع البطريرك أن يخدع الباشا، بعد محاولات عديدة ذهبت سدى، ولا يمكنه أن يؤجل توقيت المعجزة، ركع أمام قدمي الوزير وقال له بكل تواضع، إنه مرغم على أن يشعل ولاعة لكي يضيء الشعلة المقدسة؛ كانت نقمة الباشا قوية أولاً؛ لكن الضحك حلَّ محل الغضب. قال البطريرك الأرثوذكسي: يا سعادة الباشا، إن لم نشعل النار المقدسة لا نحظى بمثل هذا العدد من الحجاج الذين نعتاش منهم، ويساعدوننا في دفع الضرائب المتوجب دفعها لحضرتكم». وعد الباشا البطريرك بأن يحتفظ بهذا السر حول هذه الحيلة؛ واكتفى بأن جعل البطريرك يدفع في اليوم ذاته غرامة بقيمة 12 ألف قرش.

روزنامة بعض الأعياد وأيام الحج المذكورة في الكتاب

عند المسيحيين في القدس وفي لبنان

العيد المسيحي الرئيسي هو الفصح. يذكّر بآلام المسيح وقيامته. لا يتوافق هذا العيد عند الأرثوذكس مع اللاتين لأن الروزنامتين مختلفتان. يستخدم اللاتين الروزنامة الغريغورية التي وضعها البابا غريغوار الثالث عشر الذي قام، في عام 1582، بتغيير تأريخ 5 تشرين الأول/أوكتوبر، وجعله في 15 منه؛ وألغى بالإضافة إلى ذلك، السنوات الكبيس، باستثناء واحدة على أربعة. وبالتالي، فالأرثوذكس الذين لم يعترفوا بهذا التغيير، ويستخدمون دائماً روزنامة جوليان التي وضعها يوليوس قيصر، يجيء عيدهم بعد 13 يوماً.

مع ذلك، في بعض السنوات، مثلاً في سنوات 1974 و1980، يقع عيد الفصح في اليوم ذاته لدى الكنيستين. في عام 1980 سيكون في 6 نيسان/أبريل.

يسبق الفصح الأسبوع المقدس الذي يبدأ يوم أحد

الشعانين، ويستمر حتى خميس الغسل المقدس وينتهي في الساعة الثامنة في ساحة القبر المقدس بزياح درب الصليب بعد ظهر يوم الجمعة المقدسة في فيادولوروسا، وفي احتفال النار المقدسة يوم السبت المقدس، أو سبت النور صباحاً حول قبر المسيح.

يجتمع الموارنة بحضور بطريركهم تحت أشجار الأرز، في أعالي بشري، ليحتفلوا بعيد العذراء في 15 آب/أغسطس.

عند اليهود

تحسب السنة العبرية انطلاقاً من يوم الخلق: آذار/مارس. يتوافق عام 1980 مع عام 5740.

لكي نحسب السنة العبرية، يكفي أن نطرح العدد 40 من الرقمين الأخيرين للسنة المسيحية، ووضع العدد 57 أمام النتيجة. مثلاً، بالنسبة لعام 1980: 80 ـ 40 = 40. إذا وضعنا 57 أمام هذا الرقم نحصل على 5740.

العيد الرئيسي اليهودي هو الفصح الذي يقع في اليوم الرابع عشر من العام. وكذلك بالنسبة للسامريين، مع أن فصحهم لا يتوافق مع فصح اليهود لأن روزنامتهم مختلفة.

في عيد «الغُمر» «لاغ با أومر» يذهب الهاسيديم إلى الحج على قبر الحاخام شيمون بار يوشاعي، في ميرون في الجليل، ويقع بعد 33 يوماً من الفصح اليهودي.

عند المسلمين

يحسب الإسلام السنوات انطلاقاً من السنة الهجريَّة، يعني في 16 تموز/يوليو من العام 622م. يدل هذا التاريخ على هجرة النبي محمد من مكة إلى المدينة. يتوافق عام 1980 مع عام 1399هـ.

بالنسبة للشيعة، التأريخ الأهم هو عاشوراء، عيد يقع في أوائل شهر محرَّم، أي ما يقارب 3 أشهر وعشرة أيام بعد نهاية رمضان. وهو ذكرى موت الحسين. ويعبَّر عنه بمشاهد احتفالات جماعية يجلد فيها الرجال أنفسهم حتى يغتسلوا بدمائهم.

يرقص الدراويش المولويون (الدراويش الدوَّارون) كل سنة في كانون الأول في قونية في الأناضول. تاريخ قمة الاحتفالات هو 17 كانون الأول/ديسمبر، الذكرى السنوية لموت مولانا.

يلتقي البكتاشيون في الحج على قبر الحاج بكتاش بالقرب من القيسارية، في وسط تركيا من 15 إلى 17 آب/أغسطس.

يجتمع دروز إسرائيل في 25 نيسان/أبريل على قبر النبي شعيب «جيثرو، صهر موسى» بالقرب من طبريا، بينما دروز لبنان يجتمعون في أواسط آب/أغسطس على قبر النبي أيوب.

يعيِّد اليزيديون الساريزار، عيد السنة الجديدة عندهم، في

باشيكا في شمال ـ شرق الموصل، في ثالث يوم أربعاء من نيسان/أبريل حتى نهاية الأسبوع.

المحتويات

عندما انطلق منذ أكثر من أربعة آلاف سنة، زعيم قبيلة سامية يُسمّى إبراهيم، مستجيباً لدافع لا يقاوم أسماه يهوه، في رحلة استثنائية عبر الشرق الأوسط، كان بوسعه أن يتصوَّر أنه من خلال ذرِّية وعِد بها «بعدد نجوم السماء» سيُعترف به يوماً ما كمكتشف للإله الواحد وكأب روحي لثلاث ديانات كبيرة هي: اليهودية والمسيحية والإسلام.

إن أحداث مغامرته – أول ما سجلت في كتاب سفر التكوين – ما إن خرجت من دائرة القصة حتى أخذت بُعداً تاريخياً لم نتمكن من مقاومة سحره. منذ عشر سنوات ونحن نحلم بالعثور على آثار البطريرك، وإعادة قراءة المشاهد والأمكنة التي وجَّهت مسيرته، وإعادة الصلة بالتقليد التوراتي. لكن هذا الحج لا يمكن أن يتحوَّل إلى جردة أثرية وإلى مجرد «عودة إلى الجذور»، فملاءمة مثل هذه المسيرة هي خاضعة للنقاش.